بلاغة العرب فى الأندلس

تأليف

دكتور/ أحمد ضيف

الأستاذ بالجامعة المصرية

obeikandl.com

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1433هـ-2012
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الدكتورضيف، احمد بن على بن اسماعيل ضيف ، 1880-1945
بلاغة العرب فى الاندلس /تاليف: احمد ضيف
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2012
338 ص ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-578-8
ا-البلاغة العربية
- العنوان

ديوى: 414

رقم الايداع: 2012/14335
obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

تمهيد

كانوا ولا يزالون يعتبرون الأدب ضربًا من الفكاهة والتسلية. ويريدون بالأدب نادرة ظريفة، أو عبارة طريفة، أو حكمة بليغة، أو بيت شعر يملك النفس، ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة. ويقولون فلان أديب: لأنه كثير النادرة، حاضر الذاكرة، واسع الاطلاع، أنيس الجليس، عذب الحديث، حافظ رواية. ويقولون هذا كتاب أدب: لأنه جامع لكثير من مسائل اللغة وقواعدها، والشعر وأنواعه، والنوادر الخاصة والعامة، وتواريخ الملوك والأمم. ويقولون فلان كاتب: لأنه طلى العبارة، عارف باختيار الألفاظ، عالم بكثير من المترادفات، تنقاد إليه البلاغة انقيادًا، فيصور الحق باطلا، ويجعل الباطل حقًا.

ولكن الأدب نتائج العقول والقرائح البشرية، وقوة الفكر والإدراك الإنسانى التى تنفتق بها ألسنة الشعراء، وتسيل بها أقلام الكتاب، فيفيضون على العالم من أحوال الاجتماع وصوره، وأسرار النفوس وخفايا الوجود ما يملأ النفس عظة وإعجابًا، بصحيح الآراء وجمال الافتنان، ويمتازون عن العامة من الكتاب والمفكرين بدقة الإدراك، وتصوير المعانى النفسية والاجتماعية تصويرًا يقرب من أن يكون مدركًا بالحواس.

إن البلاغة - أو الأدب كما يقولون - هى خلاصة كد العقول والأفهام، وثمرة هذا الاضطراب الفكرى الذى ما برح دليلا على قوة الإدراك وحياة النفوس العاقلة. الغرض من الكتابة البليغة أن يجعل الكاتب أو الشاعر الألفاظ وسيلة من وسائل التعبير عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتفى أن

obeikandi.com

يدركها عـقله إدراكًا ثم يتركهـا تمر ولا تعود، ولكنه يحرص عليهـا ويحيطها بعبـارات تكشف عن أسرارها وتبيـن حقيقـتها. قـال أحد كبـار نقاد الأدب "ليست الحيـاة الآن لهواً أو لعبًا، ولكنها نوع من المسـابقة والمباراة. ذلك إلى أننا جمـيعًا مـضطرون إلى إبداء آرائنا فى الدين والفلسـفة والسيـاسة والفنون والاجتـماع. إذ على كل واحد منـا أن يكون مختـرعًا أو آخذًا طريق غـيره. والاختراع صـعب المنال، والتقليد مخـجل مؤلم. ليست الحياة دار مـسامرة، ولكنها معمل فكر وجد. أتظن أن معمـلا كيميائيًا يكون من دواعى السرور؟ أو أن ميدان مسـابقة يكون من أسباب الراحة؟ لقد تكون فيـه الوجوه مقطبة، والعيون متعبة، والجبهة فى حيرة والخدود شاحبة"(١).

والحق أن حـركات العـقول الإدراك ليس لهـا أن تظهر إلا على أقـلام الكتـاب وألسنة الشعـراء. ليس الأدب مـن دواعى اللهـو، وإنما من دواعى الإعجاب والعبـرة. أما العبرة فلما له من آراء الكتاب والشـعراء المحتوية على كثير من صور الإنسان وحالات الاجتـماع. وأما الجمال فهو من أخص لوازم الأدب، لأنه من فنونه، ولأن الكتابة لا تدخل فى باب الأدب أو البلاغة حتى تملك الحواس وتـأسر العقـول بما فيـها من جمـال التعـبير وحـسن الأسلوب والافتنان فى العـبارة، وحتى يكـون صاحبـها من أصحـاب المواهب الفنية، والملاحظات الدقيقة، والإبداع المطلق.

بهذا يمكن أن يكون الأدب شيئًا من جمال الحياة وأثرًا من آثار العقول، ومعـرضًا لصور النفـوس والإدراك الإنسانى، وفنًا من فنون الجمـال، ودليلا على الحيـاة العقلية. فهـو أكثر الأشياء انتـشارًا فى الحياة ومن ألـصق الأشياء

---

(1) Voir St Beuserie de Iundi T. 18. P, 250

بالإجماع. لأنه كل هذه الأحاديث التى فى المجالس الخاصة والعامة، والمسامرات من جد وهزل وأسرار الناس وخفايا ما يمر بين الرجل وأهله وولده وصديقه، وما يتحدث به عن نفسه، وما يحدثه به ضميره، وما يمر بذاكرته، وما يوقظ منه حب الاستطلاع. فليس أدل على الحياة من الأدب.

قد تستغنى بعض الأمم عن سماع الموسيقى، وربما لا تدرك جمال التصوير. ولكن أمة من الأمم لا تعيش بدون أن تعبر عن إدراكها، ولا بغير أن تثبت عواطفها وإحساساتها، ولا من غير أن تتغنى بآلامها وأحزانها وحظها من الحياة أو آرائها فى الوجود.

يجب أن يفهم جمهور الناس أن الغرض من قراءة قصيدة بليغة أو قصة أنيقة هو إدراك معانيها النفسية والاجتماعية. ويجب مع هذا أن يسلك كتابنا وشعراؤنا طريقًا غير هذا الطريق الذى سارت فيه آدابنا زمنًا طويلا فلم تتقدم خطوة واحدة، ولم تسلك مسلكًا نافعًا، ولم تفد الإجتماع شيئًا كثيرًا، يجب على شعرائنا وكتابنا طرق الموضوعات الاجتماعية العامة لنقدها فى كتاباتهم، والعمل على إصلاحها، وإرشاد الناس إلى طريق الخير. وذلك لا يكون إلا بكتابة القصص الاجتماعية، والخروج من هذه الصبغة الشخصية الوجدانية، التى لا يرى القارئ فيها غير نفس الكاتب أو الشاعر، وقد تكون نفسا مريضة مملوءة بالخطأ والنظر القاصر.

إن أسلوب القصائد المعروف عندنا لم يعد صالحًا لحالتنا الاجتماعية، ولا لنفوسنا التى تهذبت بشىء من العلم الصحيح، والنظر فى حياة الأمم المختلفة. هذه النفوس لا تطمئن الآن إلى قراءة قصيدة ليس فيها غير الوزن المرقص والقافية المنمقة. لأنه لا يطربها هذا الصوت القديم، ولا تلك الحكم

البالية المحفوظة التى ذهبت بجدتها الألسن الكثيرة مرورها على الأفواه والأذهان.

إن الواجب على أصحاب البيان وذوى اللسن أن يشتغلوا بوصف الاجتماع وتصوير النفوس، وأن يتركوا ضخامة اللفظ وعذوبة المنى - كما يقولون - وأنواع البديع، ويعلموا أن الحياة جد لا هزل، وأن الناس أحوج إلى ملاحظاتهم النفسية والاجتماعية منهم إلى العبث بالألفاظ والبراعة فى التشبيه.

هذا ما ندعو إليه كل عامل على ترقية اللغة العربية وآدابها. ويجب مع هذا أيضًا أن يعنى المؤلفون والأدباء ببيان ما فى بلاغة العرب، من نثر ونظم وما فى ذلك من الأفكار العامة والمسائل الاجتماعية التى لا تخلو من معرفتها الشعراء والكتاب، والتى هى نتائج العقول والقرائح وسبب حياة الأدب وبلاغات الأمم. وهذا ما حاولناه فى الكلام على بلاغات العرب فى الأندلس فى هذا الكتاب.

كان لعرب الأندلس أدب رائع، وشعر بليغ، ونثر بديع، وسعة فى الخيال، وقدرة على الابتكار. وكانت دولة الأدب هناك فى عز مجدها وأزهى عصورها، وساحاته غاصة بالشعراء والكتاب فى كل فن من فنون البيان، أو مذهب من مذاهب البلاغة. "من عجائب علمهم وغرائب نظمهم ونثرهم مما هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة، وأشهى من معاطاة العقار، على نغمات المزاهير والأوتار لأن رؤساء هذه الجزيرة كانوا رؤساء خطابة، ورءوس شعر وكتابة. ترفقوا فآنسوا البحر واسترقوا فأدركوا الشمس بالبدر. وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصماء"[١].

---

(١) راجع خطبة ابن بسام فى الجزء الأول من الذخيرة.

"فالأندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة آداب واشتغالا بفنون العلم وافتنانًا فى المنثور والمنظوم، لم تضق لهم فى ذلك ساحة، ولا قصرت عنه راحة. . . وهم أشعر الناس فيما كثره الله فى بلادهم وجعله نصب أعينهم، من الأشجار والأنهار والأطيار، ينازعهم أحد فى هذا الشأن . . . وأما إذا هب نسيم. ودار كأس فى كف ظبى رخيم. وصفق للماء خرير. أو راقب العشية وخلفت السحب أبرادها الفضية والذهبية. أو تبسم عن شعاع ثغر نهر، أو ترقرق بطل جفن زهر. أو خفق بارق. أو وصل طيف طارق. أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع من يهوى كالماء والريح . . فأولئك هم السابقون الذين لا يجازون ولا يلحقون. وليسوا مقصرين بالوصف إذا تقعقع السلاح، وسالت خلجان الصوارم بين خلجان الرماح. وبنت الحرب من العجاج سماء. واطلعت شبه النجوم أسنة وأجرت شبه الشفق دماء . . . وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم للعربية. وبقاعهم النضرة وهممهم الأبية . . الخ"(١).

فكان لهؤلاء الكتاب والشعراء أثر عظيم فى اللغة العربية وآدابها، ولا سيما ما ابتكروه من أنواع المعانى والخيال فى النظم والنثر.

لذلك رأينا أن نذكر هنا شيئًا من هذا. وبدأنا كلامنا بفصول موجزه عن تاريخ العب وحضارتهم فى الأندلس، حتى لا يحرم من لا يريد أن يكلف نفسه الاطلاع على ذلك من أن يستفيد من هذا الإيجاز.

ولكنا لم نقصد من هذا الكتاب أن يكون تاريخنا جامعًا لأدب العرب وبلاغتهم فى الأندلس، ذلك لم يكن نم غرضنا الآن. وإنما أردنا أن نجمع

---

(١) راجع نفح الطيب طبع أوروبا جزء ٢ ص ١٠٧.

طائفة قليلة من الشعـراء والكتاب المعروفين هناك، ونورد شيـئًا من منظومهم ومنثورهم ونتكلم عـما لهم من الآثار الفنية فى شعرهم ونثـرهم، لنفتح على طلاب الأدب وتلامـيـذ المدارس بابًا من أبـواب الفـهم والبـحث فى بلاغـة العرب. فإذا وفقنا الله إلى العـودة فى هذا الموضوع كانت لنا جولة أوسع من هذه. والله المسئول أن يرشدنا إلى الصواب.

القاهرة فى ذى القعدة سنة ١٣٤٢ الموافق شهر يونية سنة ١٩٢٤

أحمد ضيف

obeikandl.com

المصادر الأدبية والتاريخية للأندلس

- نفح الطيب للمقرى (طبع مصر وليدن).
- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (طبع ليدن).
- البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (طبع ليدن).
- الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (طبع مصر).
- أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم (طبع مجريط).
- الجزء الثانى والعشرين من كتاب نهاية الأدب فى فنون الأدب للنويرى وفيه أخبار ملوك الأندلس من العلويين والأمويين ومن ملك بعد بنى أمية إلى حين انقراض الدولة العبادية (طبع غرناطة).
- الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع مصر).
- مقدمة ابن خلدون.
- تاريخ مسلمى أسبانيا لدوزى (طبع باريز).

- Dozy. Histoire des Musulmans d,Espagne. Paris.

- تاريخ العرب والمغاربة فى أسبانيا والبرتغال لكوند (طبع باريز).

- J. Cond. Histoire de la domination des Arabes et des Manures en Espagne et en Portugal.

- تاريخ العرب العام نسيديو (طبع باريز).

- Seddillot. Histoire generale des Arabes, Paris.

- تاريخ العرب لهوار (طبع باريز).

- C. Huart. Histoire des Arabes. Paris.

- Recherehe sur Thistoire et la literature arabe en Espagne.

- 2 Volumes Par Dozy.

- Histoire des Arabes et des Maures d,Espagne. Par Louis Viadot. 2 Vols, Paris 1851.

- Enecyclopedie de Plslam.

- ديوان ابن قزمان (نسخة مأخوذة بالفتوغرافية بدار الكتب المصرية عن نسخة فى مكتبة بطرسبورغ).

- بحث فى حياة ابن زيدون لاوغست كور (طبع الجزائر).

- Auguste Cour. Lbn Zaidoun. Alger.

- طبقات الأمم لصاعد الأندلسى (طبع بيروت ومصر).

- قلائد العقيان للفتح بن خاقان (طبع مصر).

- مطمح الأنفس للفتح بن خاقان (طبع الأستانة).

- الذخيرة فى شعراء الجزيرة لابن بسام (مخطوط) منه جزأن فى دار الكتب المصرية والجزء الثالث فى مكتبة برلين والرابع مفقود).

- ديوان ابن حمديس الصقلى (طبع رومة).

- الحلة السيراء لابن الأبار (طبع ليدن).

- المكتبة العربية الأندلسية وهى الصلة لابن بشكوال فى جزأين وبغية الملتمس للضبى والمعجم لابن الأبار والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار وتكملة التكملة لابن الأبار (طبع مجريط) وتاريخ علماء الأندلس لابن القرضى وفهرست ما رواه عن شيخوخه من الدواوين فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموى الإشبيلى نشرها المستشرقان الأسبانيان كوديرا وريبيرا (طبع مجريط).

- F. Codera et J. Ribera Bibliotheca Arabi - co Hispana.

- المكتبة العربية الصقلية لميشيل آمارى (طبع ليبسيك).

- M. Amari Bibliotheca Arabo - Sieula (Leipzig).

- قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون (طبع ليدن).

- ترجمة ابن عباد (طبع ليدن).

- دار الطراز فى الموشحات لابن سناء الملك (من مخطوطات دار الكتب المصرية).

- تاريخ الأدب العربى تأليف نيكلسون.

- A Literary History the Arabs By Niehelson.

❊ ❊ ❊

obeikandi.com

obeikandl.com

العرب فى الأندلس

ظهر الإسلام فى العرب فانتشروا فى الأرض وأوغلوا فى الفتح واختراق الآفاق، وانسابوا فى البلاد وانساب عليهم الظفر والغنائم. فوجدوا فى ذلك مطمعًا لهم، وسعة لدولتهم، وعونًا لدينهم، وعزًا لمجدهم. ففتحوا فى نحو ثلاثة قرون ما لم تصل إليه أكبر دولة فى العالم.

وقد خرج العرب من بلادهم إلى مصر فالقيروان فبلاد البربر فالأندلس. فأسسوا هناك دولة واسعة الأرجاء، كانت أعظم دولة أقامها العرب، وأفخر مدنية جاء بها الإسلام. توغل المسلمون فى إفريقية سنة ٥٠ من الهجرة فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، بقيادة عقبة بن نافع الذى أسس مدينة القيروان. وانتشروا فى بلاد البربر شمال إفريقية فأسلم سكانها. وفى سنة ٨٢ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إلى موسى بن نصير بولاية إفريقية. فنزل القيروان وأخضع قبائل البربر. ثم سار إلى طنجة وفتحها. فدانت لسلطانه جميع هذه البلاد، وأسلم أهلها ومنهم أهل طنجة. وترك موسى بن نصير جنده تحت قيادة مولاه طارق بن زياد. ثم تطلع إلى فتح أسبانيا، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها. فاستأذن الخليفة فى ذلك، ونزل الشواطئ فى سنة ٩١ هـ، وفى سنة ٩٢ عبر طارق بن زياد البحر مع جنوده، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسمه. وانتشروا فى بلاد الأندلس انتشارًا عظيمًا. ولما استقرت قدمهم هناك نزح إليها العرب من كل بطن وقبيلة، من عدنانيين وقحطانيين وغيرهم. فمن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بنى حمود. ومنهم المخزوميون الذين

obeikandi.com

منهم أبو بكر المخزومى الشاعر الأعمى المشهور، والوزير ابن زيدون. ومن بينهم الفهريون، ومنهم عبد الرحمن الفهرى الذى غلبه على أمره، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بنى أمية بالأندلس. أما القحطانيون أو اليمنيون فكانوا أكثر انتشاراً. ومن قبائلهم كهلان. ومنها محمد بن هانئ الشاعر المشهور، ومنهم الأزد ومنهم الجم الغفير بالأندلس[1] ورحل إلى الأندلس أيضًا كثير من أهل مصر والشام والعراق. كما عبر إليها من مراكش وشمال إفريقية جماعة من البربر. واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة، وجمعهم الإسلام فكانوا أمة واحدة. ولكن هذه الأمم لك يكد يجتمع أمرها حتى دب فيها دبيب التنازع. وكانت العصبية العربية فى أشد ما تكون. فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتن القديمة النائمة. ودارت رحى الحرب بين اليمنيين والمضريين، وتنافسوا فى الملك، حتى أدى ذلك إلى انقسام الإمارة فيهم وأدلتها بين الجندين سنة لكل دولة[2]. وكان خلفاء بنى أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييداً لملكهم، ويميلون إلى اليمنيين الذين نصروهم فى واقعة مرج راهط. فكان انقسام منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد[3]. وقد دامت هذه الفتن مدة وجود الدول الإسلامية فى بلاد الأندلس، حتى قيل: ليست هناك بقعة من أرض الأندلس إلا رويت بدماء المسلمين. ولم يكد يخلو يوم من الأيام التى خفقت فيها راية الإسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود، أو بين بعض المسلمين وبعض.

---

(١) راجع الباب الثانى من نفح الطيب.

(٢) انظر الجزء الأول من تاريخ المسلمين فى أسبانيا تأليف دوزى صحيفة ٢٥٢ وتاريخ ابن خلدون جزء ٤ صحيفة ١٢٠.

(٣) راجع الفصل الحادى عشر من الجزء الأول من كتاب دوزى المذكور.

مع هذا فقد كان لدول المسلمين عصور ذهبية، وأيام زاهرة، أثمرت فيها قرائحهم وجهودهم. وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطرى للرقى، حتى أصبحوا قواد العالم وأساتذة المعمورة. وربما كان ذلك التنافس فى الملك من أسباب رقى تلك البلاد. لأن كل أمير أو خليفة كان يريد أن يوطد ملكه بنشر العلوم والمعارف، ولا سيما أن العباسيين كان مدنيتهم أزهرت فى بغداد، فأرادوا أن يجاورهم فى قرطبة، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من الفضل. هذا إلى ما كان عليه العربى من ميله للعلم ونشره، لأنه كان يرى فى ذلك نشر المدنية على يديه، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والإعجاب اللذين هما من أكبر مظاهر الأخلاق العربية. ولقد كان مثل الأمة العربية مثل النائم المستغرق فى نومه، فإذا استيقظ كانت يقظته يقظة النشيط المجد.

ولما دخل العرب الأندلس أدخلوا معهم بلاغتهم ولغتهم التى كانت من أكبر مظاهر الفنون لديهم، فتتبعت أول خطوة خطاها أكبر قوادهم فاتح هذه البلاد طارق بن زياد. وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشهيرة لهذا الفاتح العظيم، التى تدل على رسوخ ملكة البيان فى القواد، وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند، وكيفية امتلاكها بالرهبة أحيانًا والرغبة تارة، وبث الأمل فى نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الأجر من الله، وأن القائد بلسانه كالقائد بسيفه وسنانه. قالها طارق بن زياد وهو قادم على عدو أكبر منه عددًا وعدة، لأنه دخل الأندلس ومعه اثنا عشر ألف رجل أرهب بهم سبعين ألفًا من الأعداء.

وهذه الخطبة هى أول ريح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب. وأول كلام بليغ عبر عبيره هناك. بل أول تاريخ البلاغة العربية. ولم تكن

بلاغتها فى الأسلوب وحده، بل فى الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طب العربى. وهى من نوع الكلام الذى يوحى به حب الجهاد، والرغبة فى نيل الأجر الدنيوى والأخروى معًا، ويذكر الجيوش بمفخرة النصر على العدو، أو الموت فى سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين. وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب فى القتال ما لا يكون إلا من قلب حديد وقائد عظيم مجرب[1].

---

(١) وهذه هى خطبة طارق بن زياد:

أيها الناس. أين الظفر. البحر وراءكم. والعدو أمامكم. وليس لكم والله. لا الصدق والصبر. واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة. أصيع من الأيتام فى مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة. وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم. ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية. فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة. وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن صحتم لأنفسكم بالموت. وإنى لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة. ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس. أبرأ منها بنفسى واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمعتم بالأرفة الألذ طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى. فما حظكم فيه بأوفر من حظى. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان. والحلل المنسوجة بالعقبان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانًا. ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارًا واختانًا. ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان. ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته. إظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصًا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرًا فى الدارين. واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه. وأنى عند ملتقى الجمعين حامل على طاغية القوم لذريق فقالته إن شاء الله تعالى. فاحملوا معى فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عائل تستندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولى غليه فاحلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقلته فإنهم بعده يخذلون (نفح الطيب طبع أوروبا جزءًا صحيفة ١٥٠.

هذا وقد كانت للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية. أما العصور التاريخية فقد بدأت بعصر الأمراء منذ الفتح إلى سنة (١٣٨). وتولى الأمر فيها عشرون أميرًا كانت مدتهم ستة وأربين عامًا (٩٢ - ١٣٨). وكانت هذه الإمارات تابعة للخلفاء فى المشرق زمن الأمويين والعباسيين. ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب وشجار لا ينقطعان. ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموى بما هناك من المنافسة بين اليمنيين والمضريين، وكان قد فر من ظلم أبى جعفر المنصور الذى نكل ببنى مروان، إلتجأ إلى بلاد البربر وذهب إلى الأندلس مع جماعة من أتباعه، وأسس هناك دولة بنى أمية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ هـ استولى على قرطبة بمساعدة اليمانيين، فتأسست دولة بنى أمية التى كان عصرها من أزهى عصور العلم والأدب والحضارة بجميع أنواعها. وبقيت هذه الدولة ٢٨٤ سنة (إلى سنة ٤٢٢ هـ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة. وقد بلغت الدولة ذورة مجدها فى زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالمشرق. فكان نور المدنية الإسلامية يسطع من المشرق والمغرب معًا. فإن عبد الرحمن الداخل عاش من عصر أبى جعفر المنصور إلى زمن هارون الرشيد (١٣٢ - ١٨٢) وكان الحكم بن هشام معاصرًا للمأمون (١٨٠ - ٢٠٦) فكانت الدولتان تتسابقان فى ميدان العلوم والحضارة. وكانت قرطبة وبغداد كعبتى العلماء ومنبعى العلوم والفنون.

وبعد زوال دولة بنى أمية انقسم أحزابًا وشيعًا. فكانت هناك ممالك كثيرة مستقلة سموا ملوكها بملوك الطوائف. فقام ابن عباد فى إشبيلية. وابن

الأفطس فى بطليموس. وذو النون بطليطلة. وابن هود بسرقطسة إلخ. وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها أكثر ما تكون اضطرابًا[(١)].

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم. فكان ابن الأفطس الملقب بالمظفر أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو واللغة والشعر نوادر الأخبار وعيون التاريخ. انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفرى) كان يقع فى نحو ٥٠ مجلدًا. وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر. قالوا: وكانت أيام بنى المظفر أعيادًا ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الأدب. وفيهم قال الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة. وكان بنو هود ملوك سرقسطة وما يليها من أهل العلم وأنصاره. فقد كان المؤتمن بن المقتدر بالله قائمًا على العلوم الرياضية وله فيها تواليف. منها كتاب "الاستكمال والمناظر" ومن أشهرهم أبو القاسم المعتمد على الله بن عباد، كان شاعرًا أديبًا. وكان لا يستوزر وزيرًا إلا أن يكون أديبًا وشاعرًا، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون. ومنهم الكاتب ابن عمار. وكان المعتمد هذا من أعظم ملوك الطوائف. ولم تذهب دولته إلا بعد أن استعان بيوسف بن تاشفين الذى تغلب عليه وأسره فى

(١) قال صاحب المجيب: وأما حال أهل الأندلس بعد انحلال دعوة بنى أمية فقد تفرقوا فرقًا وتغلب فى كل منها متغلب؛ وضبط كل متغلب ما تغلب عليه وتقسموا ألقاب بالخلافة. فمنهم من تسمى بالمعتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد وغير ذلك من ألقاب الخلافة. وفى ذلك يقول أبو على حسن بن رشيق.

مما يزهدنى فى أرض أندلس	سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها	كالهر يحكى انتفاخًا صولة الأسد

إفريقية بعد أن أبلى بلاء حسنًا فى محاربته (سنة ٤٨٤ هـ). ومنذ ذلك الزمن ملك البربر أسبانيا وسموا بالمرابطين، وأصبحت الأندلس ولاية تابعة لإفريقية. وملك يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس وأصبح هو وابنه من أكابر الملوك[1].

أما دولة المرابطين هذه فعلى الرغم من ميلها للعلوم. لم يكد يستتب لملوكها الأمر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب لمسائل الدين. وابتدأت الحالة العقلية تنحط، وحركة اللغة والعلوم تقف. وفى زمن على بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب الإمام مالك، حتى قالوا أنه نسى النظر فى كتاب الله. وصودرت كتب الكلام، ومنع الكلام فى العقائد، وأمر بإحراق كتب الغزالى. ثم عمت الفوضى جميع البلاد, واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة، وأوكلت الأمور العامة للنساء. وعلى أثر ذلك قامت دولة الموحد التى نشأت بمراكش فى أوائل القرن السادس وأراد الموحدون أن يردوا عظمة عصر بنى أمية من علوم وفنون وصناعات. واشتهر فى زمنهم طائفة من العلماء والشعراء والفلاسفة. فقد كان لأمرائها ميل عظيم للعلم كأبى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠) الذى اشتهر حبه للعلم والاشتغال به وجمع الكتب، وكان يتنافس مع ابن رشد الفيلسوف الشهير. حتى قال ابن رشد أنه هو الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطاليس.

---

(١) قالوا وانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل عجم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يسبق اجتماعه فى عصر من العصور.

ثم ظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى وغلبهم بنو الأحمر ملوك غرناطة. واضطربت الحال فى هذه المدة بين بنى الأحمر وبنى هود، كما كانت عند الفتح بين الأمراء. وانتهت الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى حيث خفت صوت المسلمين هناك. وقد ظهر فى هذه المدة الأخيرة كثير من الأدباء والشعراء كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم.

أما عصور الأدب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الأموية. ولم يأفل نجم هذه الدولة إلا بعد أن أفعمت البلاد بالعلماء والفلاسفة والأدباء ومعاهد العلم ودور الكتب. وكانت الصبغة العربية فى هذا العصر ظاهرة فى الشعر والنثر. لأنها كانت أشبه بما فى بلاد المشرق. فلما كثر الترف وذاع اللهو والمجون فى أواخر الدولة وفى دولة العامرية، وفى عصر الطوائف، ظهرت الإباحة فى كل شىء، وظهر كل هذا فى أنواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق، ومن كلام فى وصف مجالس اللهو والطرب والغلمان والنساء، وأغرب الشعراء والكتاب فى هذه الأنواع. وأكثر مشهوريهم ظهروا فى زمن ملوك الطوائف وبعده، كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة والأدباء. وما زالت النهضة الأدبية سائرة سيراً حثيثًا، لأن العقول كانت قد نضجت وأخذت فى البحث والاستنباط. وقد زالت الدولة على أثر الاضطرابات السياسية، والحياة العقلية فى عز مجدها، وعلماؤها وأدباؤها كانوا لا يزالون فى إبان نشاطهم. ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا فى البلاد، وأفاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الأمم التى نزلوا فيها.

الحياة العقلية فى الأندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الأندلس بسكان البلاد وتصاهروا وتحابوا. ثم دخل كثير من غير العرب فى الإسلام، فظهرت صلة أخرى غير صلة الاجتماع فى بقعة واحدة، وهى صلة الدين، وامتزجت كل هذه الأجناس بعضها ببعض امتزاجًا تسرب فى عقولهم كما تسرب فى دمائهم. فكانت لهم نزعة عقلية جديدة. ونمت مواهبهم الفطرية، وساعدهم على ذلك انتجاعهم بلادًا واسعة غنية جميلة، مختلفة المناظر متعددة المناحى، فكان أثر ذلك كله أن أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لغيرهم من العرب الخلص. فاشتغلوا بأنفسهم فى نقل العلوم ونشرها، ووصلوا إلى البلاد فى طلبها، ورحل إليهم كثير من العلماء، فأخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس. ولم يكن العرب إذ ذاك من يزاحمهم، لأن معالم الحضارة كانت خفيت. والعالم يتطلع إلى من ينقذه من مخالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان. وكان العرب أبطال تلك الأيام، فأصبحوا زعماء المدنية. وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزعامة ويملكوا زمام العالم. وقد عرفوا أن ذلك لا يكون إلا إذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم، وأن دولة لا تؤسس إلا على العلم، وأن أمة تريد أن تعيش لا تحيى إلا بالعلم. فأراد عبد الرحمن الداخل أن تكون دولة بنى أمية فى المغرب أثبتت دعامة من دولة بنى العباس بالمشرق، وأبقى وأفخم من ملك آبائه فى ربوع الشام[1] فتمهدت فى زمنه وسائل

---

(١) نقد رووا عنه:

أبنى أمية قد جبرنا صدعكم ... بالغرب رغمًا والسود تبائل
ما دام من نسلى أمام قائم ... فالحكم فيكم ثابت متواصل

obeikandi.com

السعادة والمدنية وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات. كذلك كان عبد الرحمن الثانى المعاصر للمأمون (من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨) شديد الرغبة فى الفنون والأدب والموسيقى، فعمل على ترقية أذواق أهل الأندلس بنشر هذه الفنون الجميلة. فكان خلفاء بنى أمية يجارون دولة بنى العباس فى حضارتهم وفى كل شىء لديهم. وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد. فأدخل عبد الرحمن الثالث فى أسبانيا ما كان عند العباسيين من علوم وفنون. وأنشأ فى قرطبة كثيرًا من المبانى الفخمة. وبلغت أبهة الملك منتهاها فى أيامه. وفى عصره كانت المدنية الإسلامية زاهية. فكان العلماء والأدباء يفدون من المغرب إلى المشرق، ومن المشرق إلى المغرب. والطريق من بغداد إلى قرطبة لا يغيب عنه ضوء العلم، ولا تنقطع عنه قدم العلماء، والعالم يستضىء فى ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية، ويهتدى بآثار العرب وجهودهم فى نقل الحضارة من اليونان وغيرهم، مما كشفوا مخبآته وفتحوا معمياته. وقد نمت مواهب العرب فى أسبانيا كما ينمى النبات الصالح للحياة فى الأرض الخصبة الطيبة. وظهر أثر ذلك كله فى العلوم والفنون، كما ظهر فى أنواع البلاغة من شعر ونثر، مما لم يكن عند سواهم. ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب، والعمل على فهم ما تركه الناس قبلهم من علوم عقلية أو نقلية، ومن صناعات وفنون. فكان لهم أثر فى كل شىء اطلعوا عليه، فألفوا ودونوا واخترعوا، مما لا يكاد يحصى، حتى أن الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل فى زمنهم، لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرائح عند العرب جميعًا.

وقد عنوا عناية عظيمة بجمع الكتب فى كل علم وفن. فقد كان فى أسبانيا ستون مكتبة عامة، أنشأها الخلفاء الأمويون وغيرهم. أشهرها مكتبة

obeikandi.com

قرطبة، وكانت تحتوى على الكتب العقلية والنقلية التى ترجمها وألفها العرب فى الزراعة والفلك والرياضة. وفى الطب والكيمياء والموسيقى. وفى أصول الدين ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير. وفى فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة. كان ذلك كله مجموعًا جمعًا منظمًا فى مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) كل غرفة تحتوى على علم أو فن من الفنون[١] واشتدت رغبة الحكم فى اقتناء الكتب فكانت فهارس المكتبة أربعة وأربعين، وبلغت الكتب فيها مائتى ألف مجلد. جمعها من إفريقية وفارس وجميع البلدان. وانتقلت رغبة جمع الكتب إلى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفس ما يقتنى. وحرص الناس عليها وعلى نقلها. وكان الحكم نفسه عالمًا بالأخبار والأنساب محبًا للقراءة، حتى قالوا أنه قلما يوجد كتاب فى مكتبته إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأتى بغرائب لا توجد إلا عنده. وكان يجمع فى داره الحذاق فى صناعة النسخ والضبط والإجادة فى التجليد، ويجود عليهم بالمال. فكانت داره أسبه بمجمع علمى. وكان يبعث فى الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار، ويعطيهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يكن لهم به عهد، مما كان يضاهى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة. واستخدم العلماء فى كل ما يساعد على العلم ونشره، فكان منهم الوراقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط. وبعث فى

(١) كان الحكم من أشد أنصار العلم؛ لأن أباه عبد الرحمن الثالث رباه بأمهر الأساتذة ووكل أمر تعليمه إلى أبى على القالى. وقد نشر الحكم على نفقته الخاصة مؤلفات أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد. وجعل فى قرطبة أكبر دار لمطالعة الكتب العربية وجعل أخاه عبد العزيز مدير آها ومحافظًا عليها؛ على حين أن أخاه المنذر كان له الرياسة على أندية العلوم المختلفة التى تأسست فى قرطبة.

كتاب الأغانى إلى مؤلفه أبى الفرج بألف دينار من الذهب العين، فجاء بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق. كذلك كان للخلفاء ميل عظيم إلى إكرام العلماء والأخذ بنصارهم[١]. فكان المنصور بن أبى عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها فى أنحاء الدولة لدى الرعية على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم. وكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة، ويمدح المدرسين ويكافئ التلاميذ على جدهم، ويجلس فى مجالس العلماء للمناقشة والبحث، ويختار من نابغيهم القضاة والقراء والخطباء[٢].

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية. فكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدأون بإنشاء مسجد ومدرسة[٣] وكأنهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معًا لازم لتهذيب الأمم وأن تربية النفوس بالدين كتربية العقول بالعلوم والمعارف. وعنهم أخذ أهل أوروبا المدارس الجامعة ونظام "الكليات" التى يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة. وكان فى كل مدينة من مدن أسبانيا مدرسة كبيرة. بل كانت القرى تحتوى على مدارس لتعليم القرآن والكتابة. وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفًا بالقراءة والكتابة، على حين أن أهل أوروبا كانوا من العامة الذين لا يقرأون ولا يكتبون، لأن التعليم كان منحصراً لديهم فى طائفة

(١) راجع خبر دخول أبى على القالى فى الأندلس والاحتفاء به واشتغال الحكم بالعلم وجمع الكتب - نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص ٢٥٠.

(٢) هذا على الرغم من تظاهر المنصور بكراهة علوم الفلسفة والنجوم إرضاء لشهوته السياسية. راجع طبقات الأمم فى ذلك.

(٣) بلغت مساجد قرطبة فى زمن عبد الرحمن الداخل ٤٩٠ مسجداً.

القسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم، وإن تعداهم فإلى بعض الأمراء والأغنياء. وكانت معاهد التدريس غاصة بالعلماء والفضلاء ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين[1].

(١) أما العلماء والمؤلفون فكثيرون فى كل علم وفن. ذكر جملة من ذلك أبو محمد بن حزم الحافظ فى رسالة طويلة رد فيها على الحسن بن محمد القيروانى فيما كتبه فى تخليد علماء بلده وتقصير أهل الأندلس فى ذكر علمائهم (نفح الطيب طبع أوروبا جزء ٣ صحيفة ١٠٨).

فمن المؤرخين أبو مروان حيان بن خلف (ولد سنة ٣١٧ وتوفى سنة ٤٦٩) وكتابه المسمى بالمتين أو المبين فى تاريخ الأندلس يقع فى ستين مجلداً (منه نسخة بجامع الزيتونة بتونس) وله كتاب المقتبس فى تاريخ الأندلس فى عشر مجلدات (به نسخة بتونس وأكسفورد) وللقاضى أبى القاسم صاعد بن أحمد الطليلى كتاب التعريف بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم. ومما ألف فى الجغرافيا كتاب معجم ما استعجم من البقاع والأماكن.

ومن أشهر المنجمين إبراهيم بن ارزاحيل من رجال القرن الخامس الهجرى ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصد التحقيق نقطتى الرأس والذنب من الأرض. ومنهم جابر بن أفلح الإشبيلى الذى اختصر كتاب المجسى لبطليموس. ومنهم أبو محمد بن رشد القرطبى الفيلسوف ويقولون أنه أول من تنبه للسفع على وجه الشمس، وكتب عنها. وكبير من هؤلاء كانت لهم قدم راسخة فى الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية.

وممن اشتغل بالفلسفة أبو محمد على بن حزم من رجال القرن الخامس الهجرى. وله كتاب الفصل بين أهل الأهواء والنحل وكتاب أخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم وغيرها. ومنهم ابن باجة السرقسطى المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس ومن أكابر العلماء فى الفلسفة والرياضة والطب والموسيقى. ومنم ابن طفيل الذى كان معاصراً لابن الصائغ ويقولون أنه أول من قال بتدرج الحيوان إلى إنسان وهو صاحب الرسالة الشهيرة التى سماها حى بن يقظان. ومن تلاميذه أبو الوليد بن رشيد المذكور أشهر علماء الأندلس وأكبر فلاسفتها الذى ألف فى الطب ولخص بعض مؤلفات جالينوس فى الأمزجة والعلل والحميات. =

وكان للطب أربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والأجناس فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية.

هذا شيء يسير عن الحركة العلمية والأدبية فى الأندلس. منها يمكن الوقوف على مقدار ما كان هناك من الميل إلى العلوم والمعارف، وما وصلوا إليه فى الحضارة والاطلاع. وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الأدباء والفقهاء. وقد كانت لهم عناية خاصة بعلوم اللغة والدين، لأن تربيتهم العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين. لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين فى العلوم الرياضية والطبيعية شهرة عظيمة فى علم اللغة والدين. فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة بصيرًا بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعانى الشعر والفقه

= ومن أطباء الأندلس بنو زهر. وهم أبو العلاء بن زهر. وابنه أبو مروان عبد الملك وابنه أبو بكر. وعبد الملك هذا صاحب كتاب التيسير وكتاب الأغذية اللذين كانا لهما شهرة عظيمة فى المشرق والمغرب. ومن المشتغلين بالعلوم ابن البيطار وأحد أهل عصره فى معرفة النبات سافر إلى بلاد الإغريق وأقصى بلاد الروم والمغرب واجتمع بكثير ممن يعانون هذا الفن وعاين منابته وتحققها. ومنم أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى سنة ٥٠٠ من الهجرة كان أشهر أطباء زمانه وهو صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف. وهو أول من ألف فى فن الولادة ورسم فى كتابه آلات الجراحة. وعلماء اللغة والأدب أكثر من أن يحصى عددهم راجع فى الكلام على العلماء فى الأندلس ما يأتى:

رسالة ابن حزم المذكورة ورسالة أبى الوليد الشقندى فى ذكر علماء الأندلس ومؤلفاتهم فى الجزء الثانى من كتاب نفح الطيب جزء ٢ ص ١٠٨ - ١٤٠ وطبقات الأمم للقاضى أبى القاسم صاعد الأندلسى. والباب الثالث عشر من كتاب الأطباء والجزء الثانى من كتاب فياردو "تاريخ العرب والمغاربة فى أسبانيا" والسنة الثانية من مجلة الضياء فى مقالات "العلوم عند العرب".

والحديث والأخبار والجدل. وكان الحافظ أو الوليد هشام من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعانى الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض. فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساسًا لتربيتهم العقلية، حتى لا نكاد نجد عالمًا وفيلسوفًا أو منجمًا إلا وله علم بالشعر والعروض واللغة. لهذا ظهر شىء كثير من آثار تلك التربية العلمية والفلسفية فى بلاغتهم من نظم ونثر.

أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت فى كل أنحاء البلاد وعند الخاصة والعامة وملكت منهم ملكة البيان: قال بعض المؤرخين.

"هجر أهل أسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك. وقال إننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية باللغة العربية لنتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة. ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية. وكل شبابنا الأذكياء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها، لأنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب إلى الإعجاب بآداب العرب. فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها، وقالوا أنها لا تستحق قارئ أو مستفيد. من أجل ذلك نسى المسيحيون لغتهم، فلا تكاد تجد فى الألف منا واحدًا يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية. أما إذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فإن كثيرًا منهم يكتب بعبارات بليغة، وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم فى ذلك، حتى فى الشعر وكتابة القوافى"(١).

---

(1) Dozy Hist des Arabes en Fspane T. 2. P. 103.

كذلك دخلت الألفاظ العربية فى اللغة الأسبانية وغيرت شكل لغة البلاد وأكسبتها لهجة جديدة فى زمن شارل الأصلع.

"وفى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية. وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه، واتهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل على ترك اللاتينية. وقد دامت هذه الحال زمنًا طويلا فى قرطبة وطليطلة، حتى أن المفسر لجهلهم باللاتينية اضطروا إلى ترجمة كتب الكنيسة إلى اللغة العربية. وبقى ذلك إلى أواخر القرن الحادى عشر، أى بعد أن استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م.

وليس لأحد أن يناقش كلام "كوند" القائل بأن من أدب أهل أسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب متأثر به. ولا شك فى أن الأسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفية الخ"(١).

وأما اهتمامهم بالفنون كالأدب والغناء والموسيقى فقد كان أكثر انتشارًا، لأنهم كانوا أحوج إليها فى ساعات اللهو والطرب، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والأمراء. وهى عليهم أسهل، ولدى ذوقهم أعذب، ولنفوسهم أقرب.

---

(1) James Fitzmaurice Kelly. His de la literature en Espagne P. 7 & 8.

Aliterary History of the Arabs by Nichelson P. 476.

Engene Baret. De la litt. en Espagne. P. 16 & 17.

الفنون فى الأندلس

كانت همة العرب فى إبان نهضتهم متجهة إلى العلوم، منصرفة إلى الدرس والتأليف والنقل. فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والأطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا إلى ذلك. وكان اهتمامهم بالفنون كالموسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيمًا أيضًا، حتى فاقوا غيرهم فى بعضها وأخذوا بعضها عن الأمم الأخرى. ولهم فى ذلك آثار جميلة بديعة، وميولهم إلى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الأمل على تقدمهم فى ذلك لو أن دواتهم امتد زمنها. فقد كان لدولة بنى الأحمر بغرناطة آثار بديعة فى فن العمارة، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الأمويين لفنى النحت والتصوير. فبنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها، أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها، وجعلها مستنزهًا ومسكنًا لها ولحاشيتها وأرباب دولته، ونقش صورتها على الباب. وكانوا يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الأخرى كالقسطنطينية وغيرها. وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها[١] وقلدوا بعض النقوش التى كانت فى كنائس أسبانيا وصقلية. وروى بعض المؤرخين أن ثلاثة أعمدة فى مسجد قرطبة كانت عليها نقوش وصور. فكان على أحدها صورة عصا موسى، وعلى الثانى صورة أهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح[٢] أما تصوير الآنية والأثاث والأشكال الهندسية فقد برعوا فيها براعة عظيمة،

---

(١) نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٣٤٦ راجع الكلام هنا على مدينة الزهراء.

(٢) نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٣٤١.

وصوروا الطيور وأشكال الرجال، كما فى الحوض الذى أتى به الناصر إلى مدينة الأندلس. فقد كانت به نقوش وتماثيل على صورة الإنسان نصب عليه اثنا عشر تمثالا[١].

ومن آثارهم فى فن العمارة هناك ما لا يزال ناطقًا بما كان لهم من البراعة فى بناء المدن والقصور والمساجد. ولهم من الإتقان فى ذلك ما لم يكن لغيرهم فى زمنهم. ومن أشهر آثارهم الفنية مسجد قرطبة الشهير الذى - فضلا عما يدل عليه من البراعة فى فن العمارة - يدل على ذوقهم الفنى، وعلى بلوغهم درجة عظيمة فى الترف ومجاراتهم غيرهم فيما عرفوه من آثار الرومان فى المدن العظيمة والقصور الشامخة والكنائس المنمقة[٢].

---

(١) نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ٣٤٦. راجع مجموعة الصور المأخوذة من صقلية وطبعت فى روما ومنها نسخة بمكتبة سراى عابدين. وراجع الكلام على فن العمارة فى نفح الطيب جزء ١ صحيفة ٣٠٣ والجزء الثانى من كتاب فياردو.

(٢) أما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل وأتمه ابنه هشام. فكان إنشاؤه فى أول أيام الدولة الأموية؛ مما يدل على تيقظ العرب ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد. وقد كان فى هذا المسجد ألف ومائتا عمود كلها من الرخام، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب المطعم. وكان باب المقصورة من الفضة. وكان بالمقصورة تفاحات من الفضة والذهب. محيط كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف؛ واثنان من هذه التفاحات من الذهب الإبريز، وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ورمانة ذهب. قال المقرى أنها إحدى غرائب الأرض. وكان بالجامع المذكور فى بيت منبره مصحف عثمان الذى خطه بيده (هكذا يقولون) وعليه حلة ذهب مكللة بالدر والياقوت، وعليه غشية من الديباج وهو على كرسى من العود الطيب بمسامير الذهب. وارتفاع المنارة إلى مكان الآذان. ٥٤ زراعًا: ودور الثريا الكبرى تحتوى على ألف كأس وأربعة وثمانين: كلها موشاة بالذهب. وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة؛ اثنان أخضران واثنان لازورديان وبه منبر خشبة العاج والأبنوس والعود.=

وقد أخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس كثيـراً من الفنون وغيرها. فقد كانوا لا يعرفون شيئًا عن علوم اليونان ومدنيتهم. ولا عن اللغة الإغريقية وما ألف فيهـا. فلما ترجم العرب كتـبهم وشرحوها وأضـافوا إليها مـا أضافوه، فتحوا على أهل أوروبا باب المدنية الحاضرة، وأطلعوهم على تلك الآثار التى بنوا على أنقاضها حضارتهم. فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية. ومنذ ذاك عنوا بدراستـها وبمعرفة اللغـة اليونانية. بل ترجم أهل أوروبا الكتب العلمـية اليـونانية من العـربية إلى اللاتينـية. ومن أول الكتب التى ترجـمت فى ذلك كتاب إقليدس فى الهندسة سنة ١١٣٦ م.

ولم يأخـذ أهل أوروبا عن عرب الأندلـس العلوم وحدها، بل أخـذوا عنهم أيضًا بعض الفنون التى اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر(١). أما فن الموسيـقى فقد توسع فيه أهل أوروبا بما تركـه العرب لهم. قال بعض المؤرخين "إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التى ساعدت أهل أوروبا على الوصول إلى الدرجة التى عليهـا الآن هذا الفن الجميل. فإن مكتبة طليطلة بهـا آثار عظيمة تدل على ما كان للعـرب من التقدم فى ذلك. وأن هناك جـزءاً من المخطوطات فى الموسـيقى عليـه بعض مـلاحظات بخط

=وصرف عليه عشرة آلاف مثقال وخمسون مـثقالا ويقولون أنه كان بالجامع حاصل كبير ملآن من آنيـة الذهب والفضـة لأجل وقوده: راجع الكلام على مسـجد قـرطبة فى نفح الطيب جزء ١ صفحة ٣٥٨ - ٣٦٩.

(١) أخذ العرب كـثيراً من فنون العمارة عن دولة الروم الشـرقية. كما نقلها الجـرمانيون إلى بلادهم. فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ما عند عرب أسبانيا. حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسـة الجرمانية الكبرى. لأن أصلهما مـأخوذ عن الشكل البوزانتى. وكانت آثار البناء فى أوروبا الجنوبية مأخوذة من نماذج عـربية حتى قالوا أنه يوجد شىء من ذلك فى كنيسة باريس الكبرى: فياردو جزء ٢ ص ١٨٠.

ألفونس العاشر، الذى كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من قراءة الكتب العربية. وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت مقصورة على الكنائس. فساعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنساويين أنفسهم، الذين كانوا يقيمون فى أسبانيا مع العرب، أو يتعلمون فى مدارسهم. وكان الشعر الفرنسى العامى من نوع الشعر العامى الأسبانى المأخوذ عن الشعر العربى، لا عن الشعر اليونانى أو الرومانى. لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان، حتى ينسجوا على منوالهم، إذ لم يطلعوا على شىء من ذلك قبل القرن الرابع عشر. لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربى من حيث أنه قطع صغيرة، وأبيات قليلة فى المدح أو الذم أو الوصف. وذلك أظهر ما يكون فى فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر، وبعض القرن الخامس عشر. حتى أن أسماء هذه المقطوعات أو الأصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربى. قال: ولقد أجدنا صناعة الشعر والقوافى عن العرب، فإن الأسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربى ثم وصلت هذه الصناعة إلى مرسيليا وطولون بواسطة التجار الذين يجيئون من أسبانيا "(١).

واقتبس الأوروبيون كثيرًا من أعمال العرب فى الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه. وإنما أردن أن تثبت ذلك القدر القليل تنويهًا بفضل العرب وأثرهم فى المدينة الحاضرة.

وقد بلغ عرب أسبانيا إلى درجة عظيمة من الترف وأبهة تلك. ولعل ذلك ما يسمونه الآن "رد فعل". فقد كانوا فى خشونة من العيش، بعيدين

(١) الجزء الثانى من كتاب فياردو.

عن كل رفاهية، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه، ورأوا مدنية الأمم الأخرى وملكوا العالم، أرادوا أن يتناسوا تلك الخشونة البدوية، فتشبهوا بالدول العظمى. وكان العربى بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة. لأنها هى التى كونت فكره وإدراكه وتصوره، وأوحت إليه هذه المعانى الشعرية. وقد رأى ذلك كله فى البلاد التى فتحها، فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والأبهة والترف. فاهتم ببناء القصور الضخمة، والأبنية المشمخرة، وحيازة الأشياء النفيسة، ولبس الحلل الفخمة المزركشة، وامتلاك الأوانى الذهبية والأثاث المرصع بالأحجار الكريمة، وغلبت عليه طبيعة السخاء، فكان يجود بالهدايا الثمينة، ويستهين بالأموال[1] فقد اتخذ عبد الرحمن الثانى القصور والمتنزهات، وجلب إليها الماء من الجبال وأقام الجسور، وبنيت فى أيامه المساجد الكثيرة والمدارس. على ما كان عليه من الكلف باللهو والميل إلى الجوارى[2]. وكان ملك عبد الرحمن الناصر بالأندلس فى غاية الفخامة والضخامة، كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له، فقد أمر أن

---

(١) فقد رووا عن عبد الرحمن الثانى أنه كان له جارية اسمها طروب أغضبها مرة فهجرته ونزلت مقصورتها. فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها. وأراد أن يسترضيها فأعياه ذلك فأرسل مع خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول إليه. فأغلقت بابها فى وجوههم وآلت أن لا تخرج إليهم طائعة ولو انتهى الأمر إلى القتل. فانصرفوا وأعلموا الأمير بذلك واستأذنوه فى كسر الباب عليها. فنهاهم وأمرهم بسد الباب من خارج ببدر الدراهم. ففعلوا وبنوه عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها على أن لها جميع ما سد به الباب. فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر فى بيتها فأكبت على رجليه تقبلها وحازت المال (نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ٢٥٥).

(٢) أعطى جاريته حليًا قيمته مائة ألف دينار فقيل له أن مثل هذا لا ينبغى أن يخرج من خزانة الملك فقال أن لابسه أنفس منه.

يتلقوا أعظم تلق وأفخمه[1]. وامتدت الثروة والأبهة إلى الحجاب والوزراء. فقد أهدى أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذى استوزره الناصر هدية لسيده، قال فيها ابن خلدون: أنها تدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها. وقالوا أنها عبارة عن خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين، وأربعمائة رطل من التبر، وخمس وأربعين ألف دينار من سبائك الفضة، واثنى عشر رطلا من العود الهندى، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير، وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات، وعشرة أفرية، من غالى جلود الحيوان الخرسانية، وغير ذلك.

وكثرت القصور والمساجد وغيرها من الأبنية العامة إلى درجة عظيمة فقد كان عدد الدور فى قصر قرطبة أربعمائة دار ونيفًا وثلاثين. وكان عدة دور الرعايا مائة ألف وثلاثة آلاف دار، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف، وبلغ عدد المساجد بها سبعة وثلاثين وثمانمائة وثلاثة آلاف وعدد الحمامات سبعمائة[2].

(١) رتب الناصر لحجابته رجالا من الموالى ووجوه الحشم وصاروا إلى قصر منية الحكم ولى العهد، وكانوا ستة عشر رجلا لأربع دول لكل دولة أربعة رجال، ورحل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لوفود الروم عليه فقعد فى بهو المجلس الزهراء، وحضر الوزراء على اختلاف مراتبهم، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والأمراء، وقد بسط صحن الدار بعتاق البسط وظلت أبواب الدار وحناياها الديباج، ورفيع السطور، حتى أن رسل ملك الروم عندما وصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك وفخامة السلطان وقدموا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية وفيه وصف هدية عظيمة أرسلت إلى الناصر.

(٢) نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص ٣٥٥.

obeikandi.com

الغناء ومجالس الأدب

أما مجالس الغناء واللهو فقد غصت بها المحافل، وشغلت أكثر أوقات الشعراء وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل وفتحت عليهم أبوابًا من الخيال. وزاد فى الإقبال عليها ميل الخلفاء والأمراء وأهل الظرف والأدب والنساء الشواعر[(١)].

جاءت صناعة الغناء إلى الأندلس من المشرق، لأنها كانت وهى فى أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناضجة، ومن أكبر وسائل السرور والتسلى. وأستاذ المغنيين فى الأندلس زرياب (أبو الحسن على بن نافع مولى المهدى العباسى)، قدم إلى الأندلس بأمر الحكم بن هشام المتوفى سنة ٢٠٦هـ. ولما أخبر بوفاة الحكم قبل وصوله إلى الأندلس هم بالرجوع، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم يذكر تطلعه إليه وسروره بقدومه عليه. وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ويرافقوه إلى قرطبة. وأمر خصيًا من أكابر الخصيان أن يتلقاه، فدخل هو وأهله البلد ليلا، وأنزله فى دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما تحتاج إليه، وكتب له فى كل شهر بمائة دينار راتبًا، وأن يجرى على بنيه الذين حضروا معه عشرون دينارًا كل شهر لكل واحد منهم، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مدى. وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار. ولما استدعاه إلى

---

(١) فقد كان عبد الرحمن الثانى مولعًا بالسماع مؤثرًا له على جميع لذاته. نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ٢٥٥.

مجالسه وسماع غنائه ترك كل غناء سواه، وأحبه حبًا جمًا، وقدمه على جميع المغنيين وشرفه بالأكل معه، لما علمه من فضله وأدبه. وكان زرياب مغرمًا بفنه، حتى أنه كان يدعى أن الجن كانت تعلمه، فكان يهب من نومه فيدعوا بجاريته غزالات وهنيدة فيأخذون عودهما، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته، ويكتب الشعر، ثم يعود عاجلا إلى مضجعه. وزاد زرياب فى أوتار العود وترًا خامسًا اختراعًا منه، وزيادة على الصنعة القديمة. وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الأغانى بألحانها. قالوا وهذا العدد من الألحان هو غاية ما ذكره بطليموس واضع هذا الفن. واختص بنوع من الصناعة فى تعليم الغناء وضرب العود، صارت منهجًا لمن جاء بعده، وكان عالمًا بكثير من العلوم والفنون، أديبًا ظريفًا، حسن المسامرة(١). وكانت له جارية اسمها متعة أدبها وعلمها أحسن أغانيه. وعرفت حمدونة ابنته بإتقانها هذه الصناعة. وأخذ عن زرياب الغناء كثير من الرجال والنساء.

وكانت مجالس اللهو والطرب غاصة بغناء الأشعار والرقص والراقصات، وفى جميع البلدان أصناف من الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع واللعب بالسيوف وغيرها، كما كان من بين المغنين كثير من كبار القوم، مثل عبد الوهاب حسين الحاجب، "الذى كان وحيد دهره فى الغناء الرائق، والأدب الرائع، والشعر الرقيق، واللفظ الأنيق، ورقة الطبع، وإصابة النادرة والتشبيه المصيب، وكان قد قطع عمره وأفنى دهره فى اللهو والطرب، وهو أعلم الناس بضرب العود".

(١) راجع أخبار زرياب فى الباب السادس من نفح الطيب والجزء الثانى من تاريخ دوزى ص ٨٩.

هذا كله يدل على حسن الذوق، ورقة الطبع، إذا كما أمعن الإنسان فى فنون الجمال دل على رقة ذوقه. ولو أن العرب عـرفوا شيئًا من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم فى فنون التمثـيل واختراع القصص ولكنهم قنعوا من ذلك بما كـان لهم فى مـجالس الأدب الغناء والـلهو والشـرب التى تفنن الكتـاب والشعراء فى وصـفها[1] واشتملت أغـانى الأندلسيين على كثـير من أغراض الشعـراء فكانت تشمل مـدح الأمراء، ووصف القصـور والحدائق، والخـيول والفرسان، ومجالس الشرب فى الولائم. وغـير ذلك من الموضوعات الكثيرة المختـلفة، التى أنشـأت من أحوال الاجـتمـاع هناك وأوحت بها إلى نـفوس الشعراء تلك الحياة الاجـتماعية، وطبيعة البلاد ومـا بها من رغد فى العيش، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربى.

وقد كـانت أغانى العشق تدل علـى أثر المرأة فى النفوس والاجتـماع. لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعـة وأثر ظاهر فى الحركة العقلية، بل كانت تسابق الرجال فتسبقهم أحيانًا، واشتهر عدد عظيم من النساء فى الشعر والأدب كما هو معروف. ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة قـلبية أو نفسية لا غيـر، بل كانت صلة احـترام وإجـلال، لظهورها فى مـيدان الجد والـعمل، واشـتراكـها مع الرجل فى أحـوال الاجـتمـاع، ولأثرها فى مجـالس الأدب

---

(١) كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال:

انتظم نم إخوانك أعزك الله عقد شرب يتـسابقون فى ودك؛ ويعاطون ريحانة شكرك وحمدك؛ وما منهم إلا شره المسامع إلى رنة حمامة ناد؛ لا حمامة بطن واد. والطول لك فى صلتنا بجماد ناطق، قد استعار من بنان لسانًا، وصـار لضمير صاحبه ترجمانًا. وهو على الإساءة والإحـسان لا ينفك من إيقاع به، فى غـير إيجاع به، فإن هفـا عركت أذنه وأدب. وإن تأنى واستوى بعج بطنه وضرب. لا زلت منتظم الجذل ملتئم الأمل.

وفنونه. وكان ذلك فى أكثر طبقات النساء. فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط، راوية للشعر، حافظة للأخبار، علله بضروب الأدب. وكانت العبادية جارية المعتمد أديبة ظريفة، كاتة شاعرة، ذا ذاكرة لكثير من اللغة، معدودة من علماء إشبيلية. فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها فى أوروبا، وحبها ممزوجًا بشىء من الوجد والإجلال معًا. وازدانت مجالس الغناء بالغانيات المطربات من الجوارى وغيرهن، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال فى هذه الصنعة، وأكثرهن وافد من المشرق. كالمغنية فضل التى اشتريت من المدينة للأمير عبد الرحمن الأول. فقد نشأت فى بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه، واشتهرت فى هذا الفن شهرة عظيمة. وكان يؤثرها عبد الرحمن على غيرها لجودة غنائها. وكانت قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمى صاحب إشبيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان. قالوا وجلبت إليه من بغداد وجمعت أدبًا وظرفًا ورواية وحفظًا، مع فهم بارع وجمال رائع. كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والإقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب.

وكانت مجالس الأدب فى الأندلس من أكبر مسارح الأفكار، وأفخم مظاهر الجمال، وأجمع أنواع الأدب واللهو والجد والهزل، ومظهر الحياة العقلية والاجتماعية. والشعراء فرسان هذا البيان. والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليبه المختلفة البليغة. وكان الشعر نشوة الشارب، وغناء الراقص، ومؤدب النفوس وزاجرها، وسلوة الفقير والغنى، ومعزة الشريف والسوقى، وكانوا جميعًا على فهمه أقدر، وعلى الإقبال عليه أسبق، وكل أذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته، لأنه كل مظاهر الحسن والجمال

فى مجالس الخلفاء والأمراء. كذلك كانت روعة تلك المجالس فى الشعر وبلاغة الكلام. وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتاب، والعمال وجباة الأموال والمستعملون فى أمور الدولة، والخلفاء أنفسهم، وكثير من أولادهم ونسائهم ومن يحضر مجالسهم. فبرع أهل الأندلس فى فنون الأدب والشعر براعة شهد لهم بها جلة الناس(١) وكانت مجالسهم لذيذة ومحاضرهم فكهة. والشعراء كثيرًا ما تحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار.

"حضر أبو عامر بن شهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبى عامر بقرطبة فقامت تسبقهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق، ولم تزل تسهر على خدمتهم إلى أن هم جند الليل بالانهزام، وأخذ فى تقويض خيام الظلام، وكانت تسمى أسيماء، فعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها على صغر سنها. فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالا.

أفدى أسيماء من نديم ... ملازم للكؤوس راتب
قد عجبوا فى السهاد منها ... وهى لعمرى من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها ... فقلت لا ترقد الكواكب"

ومن البداهة فى المجالس أيضًا ورسوخ ملكة الإبداع فى النفوس، ما قيل عن ابن شهيد هذا، وذكره ابن بسام. "أن جماعة من أصحاب ابن شهيد قالوا له يا أبا عامر، إنك لآت بالعجائب وجانب بذوائب الغرائب، ولكنك

(١) من ذلك ما قيل "الأندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة آداب. واشتغالا بفنون العلم وامتنانًا فى المنثور والمنظوم، لم تضق لهم فى ذلك ساحة ولا قصر عنه؛ فما مر فيها بمصر إلا وفيه نجوم وبدور وشموس: وهم أشعر الناس فيما كثره الله فى بلادهم؛ وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار والكؤوس؛ لا ينازعهم فى هذا الشأن منازع.

شديد الإعجاب بما يأتى منك، هاز لعطفك عند النادر، تياح لك، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا. وكان الذى طلبوه منه زبدة التعنيت، لأن المعنى إذا كان صلفًا ثقيلاً على النفس، قبيح الصورة عند الحسن، كلت الفكرة عنه وإن كانت ماضية، وأساءت القريحة فى وصفه وإن كانت محسنة. وكان ما فى المجلس باب مخلوع معترض على الأرض، ولبد أحمر مبسوط قد رصت خفافهم عند حاشيته. فقال مسرعًا:

وفتية كالنجوم حسنًا ... كلهم شاعر نبيل

منفذ الجانبين ماض ... كأنه الصارم الصقيل

راموا انصرافى عن المعالى ... والغرب من دونها كليل

فاشتد فى أثرها فسيح ... كل كثير له قليل

فى مجلس زانه التصابى ... وطاردت وصفه العقول

كأنما بابه أسير ... قد عرضت دونه نصول

يراد منه المقال قسرًا ... وهو على ذاك لا يقول

تنظر من لبدة لدينا ... بحر دم تحتنا يسيل

كأن أخفافنا عليه ... مراكب مالها دليل

ضلت فلم تدر أين تجرى ... فهى على شطه ثقيل

فعجب القوم من أمره

"ودخل الوزير أبو العلاء زهر بن الوزير بن مروان على الأمير عبد الملك بن زرين فى مجلس أنس، وبين يديه ساق خمرين من كأسه ومن

obeikandi.com

لحظه، ويبدى درين من حبابه ولفظه، وقد بدا خط عـذاره فى صفحة خده، وكل حسنه باجـتماع الضـد منه مع ضده، فكأنما بسحـر لحظه أبدى ليلا فى شمس، وجعل يومه فى الحين أحسن من أمس، فسأله ابن رزين أن يضع فيه بديهًا.

تضـاعف وجـدى إذ تبدى عـذاره ... وتم فـخـان القلب منى اصطبـاره
وقـد كان ظنـى أن سيـمـحق ليله ... بدائع حـسن هـام فـيـهـا نهـاره
فـأظهـر ضـد ضـده إذا وشت له ... بعنبـره فـى صـفـحـة الخد ناره

واستزاده فقال بديهًا

مـحـيت آية النهـار فـأضـحى ... بدرتم وكـان شـمس نهـار
كـان يعـشى العـيـون نورًا إلى أن ... شـغل اللـه خـده بالعـذار

وكانت مجـالس الأدب من بواعث قول الشعر، ومـجاراة بعض الأدباء بعضًـا فى ذلك: قالوا: "إن ابن العريف النحـوى دخل على المنصور بن أبى عـامر وعـنده صاعـد اللغـوى البـغدادى، فـأنشـده وهو بالموضع المعـروف بالعامرية.

فـالعـامـرية تـزهى ... على جـمـيع المبـانى
وأنت فـيـهـا كـسـيف ... قـد حل فى غـمـدان

فقام صاعـد وكان مناقضًا له. فقال أسـعد الله الحاجب الأجل، ومكن سلطانه. هذا الشعر الذى قـاله قد أعده، وأنا أقول أحسن منه ارتجـالا. فقال له المنصور قل ليظهر صدق دعواك. فجعل يقول من غير فكرة طويلة.

يا أيهـــا الحـــاجـب المعـ ـتـلى على كـــيـــوان

ومن بـه قـــــد تناهى فـــخـــار كل يمـــانى

العـــامـــرية أضـــحت كـــجنة الرضـــــوان

فـــــريـدة لفـــــريـد مـــا بـين أهل الزمـــان

إلى أن قال:

أنظر إلى الـنهـر فـيـــهـا ينســـاب كـالثـــعـبـان

والطـيـــــر يخطب شـكرًا على ذرى الأغـــصـان

والقـــضب تلتـف سكرًا بميس القـــضـبـــان

والروض يـفـــتـــر زهوًا عن مـبـتسم الأقـحـوان

والـنرجـس الغـض يرنـو بوجـنة النـعـــمـــان

وراحـــة الـريح تمـتـــا ر نفـــحـــة الريحـــان

فـدم مـدى الدهر فـيـهـا فى غـــبـطة وأمـــان"

هذا أدل فى جملته على مكانة الشعر فى النفوس، وأنه شىء من روائع القول وجمال الكون. وهذا من مميزات الشعر العربى، وهى جمال الشعر الوجدانى. لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة إلى عالم الأحلام والخيال، حيث يتذوق الإنسان السعادة، وينسى آلام الحياة وكوارثها. وذلك هو الغرض من فنون الجمال. لأننا إذا كنا فى حاجة دائمة الاتصال بالحقائق وأدراكها لفهم الأشياء، فإننا كثيرًا ما نكون أحوج إلى الابتعاد من ذلك.

"حضر أبو المطرف بن عبد العزيز مع ابن عمر الوزير عند المؤتمن فى يوم جادت فيه السماء بهطلها، وأتبعت وبلها بطلها، وأعقب رعدها برقها،

obeikandi.com

وانسكب دراكًا وذقها. والأزهار قد تجلت من كمامها، وتحلت بدر غمامها، والأشجار قد جلى صداها، وتوشحت بنداها، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد، تديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد. إذا بفتى من فتيان المؤتمن أخرس لا يفصح، مستعجم لا يبين، ولا يوضح، متنمر تنمر الليث، مشمر كالبطل الباسل عند الغيث، وقد أفاض على نفسه درعًا، تضيق بها الأسنة ذرعًا، وهو يريد استشارة المؤتمن فى الخروج إلى موضع بعثه ووجهه إليه فكل من صده عنه نهره، حتى وقف إلى مكان انفراده، ووقف بإزاء وساده. فلما وقعت عين ابن عمار عليه، أشار بيده إليه، وقربه واستدناه، وضمه إليه كأنه تبناه، وجد أن يخلع عنه ذلك الغدير، وأن يكون هو الساقى والمدبر، فأمره المؤتمن بخلعه، وطاعة أمره وسمعه، فنضاه عن جسمه. وقام يسقى على حكمه ورسمه، فلما دبت فيه الحميا، وسبت غرامه بهجة ذلك المحيا، واستنزلته سورة العقار، من مرقب الوقار. قال

وهويته يسقى المدام كأنه	قمر يدور بكوكب فى مجلس
متأرجح الحركات تنهدى ريحه	كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسعى بكأس فى أنامل سوسن	ويدير أخرى فى محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده	ومصرف الفرس القصير المحبس
إياك بادرة الوغى من فارس	خشن القناع على عثار أملس
جهم وإن حسر القناع فإنما	كشف الظلام عن النهار المشمش
يطغى ويلعب فى دلال عذاره	كالمهر يدرج فى اللجام المجرس
عنا بكأسك قد كفتنا مقلة	حوراء قائمة بسكر المجلس"

هذا شىء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع فى الأندلس.

النثر فى الأندلس

كان الشعر فى أكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر، ولذلك الشعراء أشهر من الكتاب، لأن البلاغة فى الشعر أظهر، والأخيلة فيه أبين، وقراء العربية كانوا إلى التأثر بهذه الأساليب والصناعة أقرب. وكانوا يفهمون من الأساليب ما لا يفهمون من الموضوعات ومعانيها وأغراضها.

ومع أن النثر فى المشرق كان أقل من الشعر انتشاراً، وكان فى المرتبة الثانية من حيث أنه صورة من صور البلاغة العربية، أو من حيث الاعتماد عليه فى الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم، فقد تنوعت مناحيه، وظهرت له مذاهب وطرق، كمذهب ابن المقفع وطريقته، ومذهب الجاحظ وأسلوبه، وطريقة ابن العميد والحريرى، وغيرهم كما هو معروف.

أما فى الأندلس فقد وسع كل أساليب العرب فى المشرق، من كلام مرسل سهل، وعبارات يتخللها سبع غير متكلف، أو كلام مسجوع متعمل. وكانت هذه الأساليب كلها ظاهرة فى جميع العصور، وعلى ألسنة الكتاب وأقلامهم، حاشا العصر الأول إلى أواسط دولة بنى أمية، حيث كانت الكتابة سهلة قليلة السجع، كما فى خطبة طارق وكتب الأمراء من بنى أمية.

وقد ألف عرب الأندلس فى العلوم والفنون، فكان اشتغالهم بالتأليف والكتابة والعلم من الأسباب التى جعلتهم يطرقون هذه الموضوعات فى كتاباتهم، فلم تقتصر الكتابة النثرية على الدواوين والرسائل، قصيرة كانت أو طويلة. مسجعة أو مرسلة، فى العشق والغرام، أو فى الذم واللوم، أو فى المدح والاستعطاف، وغير ذلك، مما يظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات

الممتعة، والمعانى العامة الاجتماعية، بل شمل كل شىء فى الاجتماع هناك، وكان مظهراً لتلك المدنية، والحالة العقلية والسياسية والعلمية. وكان أثره فى الأدب والبلاغة كأثر الشعر، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب. كوصف المبانى الفخمة من كنائس ومساجد، وقصور وآثار، وما فيها من صور وتماثيل. وكوصف الأشياء الجميلة التى غنموها أو عملوها بأيديهم. ووصف محافل الأمراء والخلفاء وأبهة الملك، والمجادلات والمخاصمات، ومجالس العلم والأدب. وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية. بشكل قصصى. كما فى رسالة "حى بن يقظان" لابن طفيل. وكتابة الحقائق فى أسلوب قصصى خيالى، كما فى رسالة الوزير أبى عامر أحمد بن أبى مروان ابن شهيد التى هى من نوع رسالة الغفران، وكالرسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية، كرسالة أبى محمد بن حزم الحافظ التى ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين، وسرد فيها آثارهم ومؤلفاتهم. ثم تلك الرسائل الفريدة فى بابها التى هى من نوع رسائل ابن زيدون. ثم كتابة الفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب وما يشبهها مما لم يكن مثله كثيراً فى بلاد المشرق، بل بعض هذه الأنواع لم تكن معروفة.

وكانوا يصفون فى كتاباتهم نفوس الكبراء والأمراء والقواد، كما كتبوا فى المناظرات الخيالية، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر. وكالمناظرة بين بلدان الأندلس لأبى بحر صفوان بن إدريس(١). وكما كتبوا فى الدعوات والإرشاد والتوسل إلى الرسول وفى شعائر الحج(٢). وكان لهم

(١) التى كتبها للأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن. وهى من الرسائل الطويلة المملة راجع الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ١٠٥.

(٢) من ذلك ما كتبه الوزير الفقيه أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد عن لسان من رجع من الحج. وهى من نوع الدعاء أو التوسل بالرسول راجع الذخيرة جزء ٢.

أساليب فى الزهد والأسرار الربانية عرف الكتاب كيف يتصيدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف(١).

وفى جوار ذلك نجدهم برعوا فى أساليب اللهو والمجون(٢). ولهم عبارات تحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكلف السائغ للنفس تذوقه(٣).

---

(١) من فلك المعرفة فى الملكوت. ونجوم الحكمة فى الجبروت. وحياة القدس. ولباس التقوى والصراط المستقيم. وراشتك الطبيعية بريش النهى حتى تصير مع الروحانيين فى مجال الصديقين ومنازل المقربين الخ وغير ذلك من ألفاظ الغيبيات وأساليب ما وراء المادة. راجع رسالة الفقيه ابن عمر أحمد بن عيس الألبيرى فى الذخيرة من الجزء الأول.

(٢) كما بعث بعض الكتاب بأترجة وكتب معها كتابًا يقول فيه: قد بعثت إليك من بنات الثمار أجلها، ومن نتائج البستان أفضلها. فشربت على وردها رطلين، وتناولتها بالراحتين فبحرمة الكأس التى رضعنا، إلا ما رفعت قدرها، وجعلت مهرها، وجعلتها على مجلس المدام، وحجبتها عن عيون اللئام، فخصالها عجيبة، وصفاتها غريبة، أن خزنتها عطرت أثوابك، وإن أمسكتها أذهبت أو صابك، وإن أعملت فيها غرب السكين، قرنت لك بين النرجس والياسمين وارتك الكثب على وجه الحبيب. يا لها من أترجة غضة. قد صورت من ذهب وفضة. سرقت من العاشق سيماه، ومن المعشوق طعم ثناياه . . الذخيرة جزء أول.

(٣) مثل قولهم خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظره لبنى عبد بموضع يقال له الفت. تحف مروج مشرقة الأنوار. متنسمة الأنجاد والأغوار. مبتسمة عن ثغور النوار، فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسمها ووليها. وجللتها من زاهر ملبسها وباهر حليها. وأرداف الربى قد تأزرت بالأزار الخضر من نباتها. وأجياد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها. ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها. وهناك من البهار ما يزهى على مداهن النضار ومن النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الأجفان. وقد نووا الانفراد للهو والطرب والتنزه فى روضى النبات والأدب. وبعثوا صاحبها لهم يسمى خليفة هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم الخ . . . نفح الطيب جزء ٢ ص ١٦٣.

وبرعوا فى فن المقامات. ولأبى جعفر عمر بن الشهيد فصول جيدة فى ذلك، تشبه ما عند الفرنجة الآن، أو يشبهها ما هو عندهم. وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة فى انتقاء الألفاظ والمعانى، وإمعان فى الصناعة وضروب الخيال(١). وتجد لهم كلامًا مسجعًا هو من السهل الممتنع، مع رقة

---

(٣) كقول أبى حفص بن الشهيد . . . وقد صحبتكم مدة. وسبحت الله على رؤوسكم مرارًا عدة أوقظكم بالأسحار. وأوذن بالليل والنهار. وقد أحسنت لدجاجكم سفادًا. وربيت لكم من الفراريج أعدادًا فالآن حين بلى فى خدمتكم تاجى. أنعى إلى دجاجى. وتنحى الشفرة على أوداجى. وحين أدركنى المشيخ يمزق لحمى ويطبخ، يا للكرام من ذل هذا المقام، وجعلت دموعه تسفح من دمه. والحزن يطبق على فمه. ثم غشى عليه، فاجتمعت الناس إليه، يضربون وجهه بالماء. ويخلصون له فى الدعاء، ثم أفاق من غشيته وأنشد:

علام يقتل الشيخ ... من كل ذنب برى
محقق متحد ... موحد سنى
هل نص هذا كتاب ... أو قال هذا نبى
لا ذنب لى غير أنى ... مؤذن بدوى

فرقت له نفس القوم. وأقبلوا على صاحب النزل باللوم. فقال ويحكم. إن هذا الديك ذو فخذ وصدره قد أصابتنى عليه ضجره. ولى فى ذبحه سر، ولابد أن تزين به قدر، وتضرم تحته النيران، ويشبع من لحمه الضيفان. أما ترونه قرة العين والقلوب سبيكة لجين وتمثل.

ومن شيمتى مهما تزين منزلى ... لضيق أن أقريه أحسن ما عندى
لو أن دمى خمرًا لأرويته به ... ولو صلحت كبدى شويت له كبدى
بذلك أوصانى أبى من عقلته ... وقد كان أوصاه بذا قبله جدى

فقال الديك: لا أكذب، الحق طريق مستبين، وأتباعه مروءة ودين. أما أنه على خلق عظيم كريم ابن كريم. غير أنه لؤم فى امرئ. وأفرط وغلط ما شاء أن يغلط. أما علم أن هرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك، وأنها بالأدوية أشبه منها بالأغذية. وأقسم لو اتخذ برمة من فؤاد مهجور ووضعنى من مثله على تنور، لا قضى به حاجة، ولا=

فى اللفظ، وجزالة فى المعنى، وطول لا يمل، وصراحة فى القول، وحرية فى الفكر[١].

=عدم منى فقرا ومجاجة . . فزكى قوله من حوله، ولم يألوه تعظيمًا، واتخذوه من ذلك اليوم حكيمًا. وصرف البدوى من ألطافه ما أحسن منه قرى أضيافه، وختم توبة بره بالرغبة فى بسط عذره. وسمعنا منه ورحلنا سحرًا عنه. إلى أن قال:

فأصغيت فإذا أنا بصوت ناقوس فى دير قسيس. وقرية كلها حانة دار البطريق. وملعب الكأس والأباريق. سائمتها خنازير. وحياضها المغاصير. ومياهها إلا نبذة والخمور. وشكلها مثلث مسطوح هندسته حوارى نباتها غصون من قدود تهتز فى أوراق من برود. وتثمر رمانًا من نهود. وتفاحًا من خدود. وعقارب من أصداغ. وأفاعى من أسورة وعقود. وفيها مدام من رضاب. وشفاه من كواعب أتراب، وغيد تهووى بقرط، وارتجاج لكثيب فى مرط، وجولان النطاق، وعض الخلجان فى ساق، وخنث فى ألفاظ، ومواعيد بألحاظ، وقلوب تكلف وتشغف، ونفوس تنشأ، وأخرى تتلف. فلما كثر تحدثنا بحضرة الفقيه من هذا التشبيه فطبنا له وجوه الاستكراه، وعضضنا له الشفاة، فبينما نحن كذلك نكثر لغطًا، ونرى الحلول بالمستحسن غلطًا، إذ نظرنا إلى أطراد صفوف من أعطاف حسنة، وخصور هيفة، وشموس وأقمار، على أفلاك جيوب وأزراز، لا سيوف إلا من مقل ولا درق إلا من عجل، ولا عارض إلا من خلوق، وأقسم بنعمة قد ودهن ألا جزتم المنة، وثنيتم الأعنة، تعريجًا علينا إلينا وتحكمًا فى المال والولد لدينا. فكرمت الشفاعة، وقلنا السمع والطاعة.

(١) كما فى رسالة لابن الحداد.

لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الأقدار، وصقال الأصداء. وعقال الأدواء. وسمتى منه بوسام. ولحفتنى منه بسموم. وأسررت حسوا فى ارتغاء وأدمجت ذما فى ثناء، والحر يأنت من الضيم. ويشمئز من الذم. ولا يقتصر على الاجتزاء. يثير الجراء. ولو ترك القطا ليلا لنام. وفى العتاب حياة بين أقوام. فاصطبر لشرب صبره. وانتدب لتسوغ مره. فمن الحكم العدل. والقضاء الفصل. إن ألذعك بما لذعتنى. وأجرعك ما جرعتنى. غير آفك فى حال. ولا مياهت بمحال. والتمويه ليس من خلق الكاذب النبيه. والحر على ما أساء يصر. وكل مجر فى الخلاء يسر. والفضل لمن حواه. لا لمن زخرف دعواه. وتحقيق البرهان. غير تنميق البيان. والسؤدد فى محاسن الخلال والفعال، لا فى إمكان الزمان،=

وأحيانًا نجدهم وصلوا إلى درجة فى النثر لا تفرق بينها وبين الشعر إلا فى الوزن وقواعد العروض[١]. ومن السجع الجميل والأساليب الممزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب ابن بسام فى الذخيرة وترجمته الأدباء والشعراء[٢]. وتجد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبى الفنى، أنواعًا من الرسائل الطويلة المسجوعة سجعًا متكلفًا مملا، مملوءة بالعمل، كثيرة الصناعة، قليلة المعانى[٣]. وأمام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب. والفتح بن خاقان طريقته معروفة فى كتبه. حتى أصبح السجع طابعًا من طوابع الأدب العربى فى الأندلس وتسلل الفقهاء مناصب الخطابة والكتابة. فنفخوا الأدب بنفخة جافة جف من أجلها عوذة، حتى كسر أو كاد يكسر. وبلغ هذا منتهاه فى أيام ابن تاشفين.

=وإقبال السلطان، وقيمة كل امرئ ما يحسن. أمثال أضر لها عليك. واضحة المناهج، ومقدمات أنشأتها معك، صادقة النتائج. وجمل تشتمل على تفصيل حالينا، ونبذ تشير إلى ما فيه جرينا. وقد قابلنى عتابك. وإجلابك. بريح تعصف ورعد يقصف. واسقبلنى خطابك. وأطنابك. بوبل يخسف، وسيل ينسف، بلغ الزبى وزاد. وغمر الربى والوهاد . . . إلخ.

(١) كما فى رقعة شفاعة كتبها أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم: إذا شرب روض الشكر من حوض البر، وأطلع من الزهر ما يخجل مسك الغرر وتنسم عن نسيم، يشفى حرارة القلوب الهيم ولم يزل يجرى خلف الطلب، بيد الأدب، ويسرى فى ظلام الأمور، بسراج المنظوم والمنثور . . . الخ الذخيرة جزء ١.

(٢) كقوله فى ترجمة ابن شهيد: كان أبو عامر شيخ قرطبة وفناها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها، ينبوع آياتها، ومادة حياتها وأساتها. ومعنى أسمائها ومسمياتها نادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار. أن هزل فسجع الحمام، وإن جد فزئير الأسد الضرغام. نظم كما انشق الدر، على النحور، ونثر كما خلط المسك والكافور . . الخ.

(٣) راجع كتاب لسان الدين بن الخطيب عن لسان سلطانه نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص ١١٤.

وعلى الرغم من رقى النثر فى الأندلس فإنه لم يخرج عن صبغته العامة، وهى الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية. غير أن الكتاب حاولوا كما قلنا طرق الموضوعات العامة، كالقصص والحكايات الخيالية[1]، وغيرها، وابتكروا هذه الأساليب فى النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات فى الشعر.

أما طول الكلام والإطناب فيه، فيكاد يكون عامًا فى جميع كتاباتهم. وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البحتة، والافتنان فى التصور والخيال، وبعضه ممل سقيم، يدل على تمكن النصاعة لا غير فى نفوس الكتاب والعناية بالألفاظ والسجع، بل يدل على انحطاط ملكة البلاغة، كما فى كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان وغيرهم من الكتاب.

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالأندلس، ودخوله هذه البلاد بخطبة طارق بن زياد، التى قلنا أنها أول صوت سمع هناك من بلاغة العرب وأول غرس من غراسها. فهذا كان نموذج النثر والخطابة فى تلك الأيام إلى أواسط دولة بنى أمية. لأن الوافدين جاءوا من المشرق إلى المغرب، والدولة عربية فى بيت بنى أمية، وروح البلاغة العربية البدوية كانت تجول فى نفس كل خطيب وكاتب وشاعر. فالذين هاجروا إلى بلاد الأندلس فى الأزمنة الأولى كانوا لا يزالون أعرابًا فى أفكارهم وأخيلتهم وأساليبهم. ولذلك نجد النثر فى تلك المدة يشبه كثيرًا نثر الأمويين فى المشرق، وخطباؤهم ى الأندلس أشبه بخطبائهم فى الشام وبلاد العرب. ولما كثر الوافدون على الأندلس من المشرق نقلوا إليها طريقة النثر المسجوع، والصناعة اللفظية، والتنميق فى

(١) كما فى رسالة لابن شهيد على لسان الأوزة. راجع الذخيرة جزء أول

الكتابة. وسرى هذا فى كل أغراض الكتابة، حتى فى الكتب الفنية والعلمية، من تاريخية وغـيرها ومن تراجم للعلماء والأدباء، ومن كـتب جدية وهزلية. ومن أشهـر ذلك كتب الفتح بن خـاقان، كقلائد العـقيان والمطمح وغـيرها، وتاريخ الإحاطة فى أخبار غـرناطة للسان الدين بن الخطيب. حتى أصبح من غير المستطاع أن يجد الإنسان من يكتب نثرًا غير مسجوع.

* * *

obeikandl.com

الشعر فى الأندلس

البلاغة من نظم ونثر لها غرضان غرض فنى، وهو ما بها من الجمال الذى يدعو الإنسان إلى السرور والإعجاب، وارتياح النفس إلى المعانى الجزلة، والألفاظ المختارة، وتناسق العبارات، وحسن الأساليب، وتأنق التراكيب، وغير ذلك مما ذكره العرب ونقادهم، من أنواع المعانى والبيان البديع. ويدخل فى هذا النوع قدرة الكاتب أو الشاعر على الافتنان فى الصناعة، ومقدار ماله من التصرف فى الكلام، وما يدركه من أسرار هذا الفن، مما يدل على عبقريته. وهذا الجزء النفى من البلاغة هو أحد أركانها، وأكبر دعائمها، إذ بدون ذلك لا تعد البلاغة من فنون الجمال فى شىء.

والغرض الثانى هو الحقيقة المنطوية فى غضون ذلك الكلام، التى يكشف بها الفنى عن كثير من المعانى الخفية فى النفوس، وأسرار الكون، وحقائق الموجودات، والآراء الاجتماعية والفلسفية، وصور الإنسان والإنسانية. فغرض الكاتب أو الشاعر البليغ أن يتسرب فى النفوس، ويستولى عليها بجمال الافتنان، وينعشها ويوقظها بأسلوبه، ويهذبها بمعانيه وما فيها، ليرشدها إلى حقيقة من الحقائق الإنسانية. ولقد يدرك النفى ما لا يدركه غيره، لأنه دقيق الإدارك، قوى الملاحظة، سريع الخاطر، تخترق نفسه الحجب فيرى ما لا يراه غيره. لذلك يمكن أن يكون مساويًا للفلاسفة أو الحكماء فى الإفاضة على الإنسان من أسرار الكون وحقائقه.

والعرب يميلون إلى جمال القول ويقصدون إلى حسن العبارة والاستيلاء على النفوس بسحر الكلام. فكان الشعر فنًا عربيًا جميلا، وكان

obeikandl.com

العربى شاعرًا بطبيعته، ونصيبه من أنواع الجمال قول الشعر الجميل. وكانت الفصاحة والبلاغة مظهر الحياة النفسية العربية ودليلا على جهود العقول وآثارها. وكما نزل العربى بمكان بذر بذرة الشعر فيه وتعهدها بالنمو، فلما نزل أرض الأندلس غرسها هناك، فنمت فى تلك الأرض الخصبة. فكانت كالزهرة الطيبة العرف لقحت بأصل آخر نضير الطلعة، فظهر فيها أرج الطيب ونضارة اللون. ذلك مثل الشعر العربى فى بلاد الأندلس.

جاء الشعر بلاد الأندلس بصبغته الأولى البدوية، وما لبث أن أخذ صبغة جديدة باتساع التصور، واختلاف المناظر، والاطلاع على كثير من العلوم والآراء، والميل إلى مزج الحركة العقلية بالحركة الاجتماعية. فشمل كل مظاهر الأفكار ومرافق الحياة. ولكن كثيرًا ما كان الشعراء يرجعون فى أساليبهم وأفكارهم إلى الأساليب والأفكار البدوية، لأن العرب من أشد الأمم عصبية وحنينًا إلى وطنهم وعيشتهم الأولى. إذ رغم ما كان فى نفوسهم من الأثر الذى اكتسبوه من تلك البلاد، وما حصل لهم من الحياة التى لم يكن لهم بها عهد فى بلادهم، كانوا لا يزالون يميلون إلى أخيلتهم الأولى، ولم يكن لهم أن يهجروا عاداتهم، لأن العجب والخيلاء، اللذين كانا لهما السلطان على عقولهم، جعلاهم - حتى فى تلك البلاد البعيدة، وحتى بعد قرون من انتجاعهم إياها - يتغنون بذكر بلادهم، ويتخذون الشعر القديم نموذجًا لهم فى الصناعة والخيال.

والذى يقرأ الشعر الأندلسى يجده أخا الشعر فى بغداد، بل وفى بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة، والموضوعات التى كانت عند القدماء[1].

(١) راجع قصيدة ابن الحداد فى مدح المعتصم فى ابن خلكان جزء ٢.

على أن شعر الأندلس يمتاز فى جملته عن الشعر العربى بما فيه من المعانى المبتكرة الجميلة، التى كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع، والكلام الرشيق، والذوق النقى، والافتنان فى أساليب الخيال، ولأنه يدل على حياتين ويرسم صورتين من أحوال العربى: فبينما ترى الشاعر يصبو إلى ذكر بلاده الأولى من حياته البدوية، نجده يذكر الرياض والبساتين والأزهار والأنهار، والمياه الجارية وظلال الأشجار والنسيم العليل والآراء العامة والخاصة وأحوال الاجتماع والعادات.

هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة، وظهر هذا كله فى الشعر، لأن الشعر كان مسرح العقول من جد وهزل وعلم وفلسفة. ولبث منتشرًا زهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الأصليين كالقوط وغيرهم. وقال الشعر كثير من الأمراء. وسابق النساء الرجال فى ذلك، فكن أحيانًا يسبقنهم، وعنى الناس هناك بالشعر عناية عظيمة، فكانوا ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة، واتصل بالحوادث العامة الاجتماعية. وكان من وسائل الرقى، ومن دواعى السلم والحرب، وفك أسر المسجونين، والعفو عن المجرمين.

ولم تكد تخلو رسالة نثرية من الشعر، حتى سرت عدوى الوزن والقافية إلى النثر. وانتشرت طريقة السجع فى جميع المكاتبات، وهى محلاة بأبيات من الشعر، حتى فى الكتب العلمية، ومكاتبات الحكومة، وأجازت السفر. وكانت صناعة الشعر لازمة، وروايته واجبة، لمن يريد أن يندمج فى حواشى الملوك. فقد كان الأدباء يجتمعون فى حضرتهم للإنشاد والمسابقة فى ذلك، كما كانت الحال فى حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته

ممن جاء بعده من الملوك والأمراء، الذين كانوا يجرون المرتبات والجوائز على الشعراء[١].

وقد كان لنشاط العرب العقلى وصفاء قرائحهم فى قول الشعر ما كان لهم من العلوم والفنون، بل زاد ذلك فى الشعر لما لهم من ميلهم الفطرى إليه والافتنان فيه. فقد وسع كل شىء من أحوالهم الاجتماعية والنفسية. فكانوا يصفون الكبراء والعلماء، ويمدحونهم بعبارات رقيقة، أكثرها خال من المبالغات. ويبثونه فى شكواهم وآلامهم[٢]، ولهم قصائد فى التقرب إلى الله ومدح الرسول عليه السلام، والزهد والتصوف والرثاء[٣]، ولهم أشعار رقيقة فى المزح والتهكم والمجون[٤].

---

(١) راجع الكلام على الشعر فى الأندلس فى كتاب

Von Schack. Poesie und Kunst der Araber

(٢) كما فى قصيدة ابن الرندى الشهيرة ورثاء ابن عبدون لبنى الأفطس وشكوى المعتمد بن عباد مما أصابه فى آخر حياته.

(٣) راجع الجزء الأول من كتاب الذخيرة لابن بسام.

(٤) كما فى قصيدة قاضى الجماعة بغرناطة أبى عبد الله بن على بن الأزرق. نذكر منها شيئًا على سبيل الفكاهة قال:

عم باتصال الزمن	ولا تبالى بمن	وهو يواسى بالرضا	من سمج أو حسن
أو من عجوز تختطى	والظهر منها منحنى	أو من مليح مسعد	موافق فى الزمن
مهما تبدى خده	يبدو لك الورد الجنى	وإن تسفه نظرى	ومذهبى وتنهنى
فالصفح تستوجبه	نعم ونتف الذقن	وبعد هذا أشتفى	منك ويبرى شجنى
	واضرب الكف أمام	ذلك الوجه الدنى	
	طقطق طق طقطق طق	اصغ بسمع الأذن	
	قحقح قح قحقح قح	الضحك يغلينى	

obeikandi.com

. . . .

أفدى صديقًا كان لى	بنفسه يسعدنى	فتارة أنصحه	وتارة ينصحنى
وتارة ألعنه	وتارة يلعننى	وربما أصفعه	وربما يصفعنى
أستغفر الله فهـ	ـذا القول لا يعجبنى	يا ليت هذا كله	فيما مضى لم يكن
أضحكت والله بذا الـ	ـحديث من يسمعنى	دهر تولى وانقضى	عنى كطيف الوسن
يا ليتنى لم أره	وليته لم يرنى	دنست فيه جانبى	وملبسى بالدرن
وبعت فيه عيشتى	لكن ببخس الثمن	كأننى ولست أد	رى الآن ما كأننى
	والله ما التشبيه عنـ	ـد شاعر بهين	
ومنها	هل أمتطى يومًا إلى الـ	شرق بطون السفن	
وأجتلى ما شئته	فى المنزل المؤمن	حينئذٍ أخلع فى	هذى القوافى رستنى
وتحسن الفكرة بالـ	ـعدوس والسمنتنى	واللحم مع شحم ومع	طوابق الكبش الثنى
والبيض فى المقلاة بالـ	زيت اللذيذ الدهن	وجلدة الفروج مشو	يا كثير السمن
ومنها	هل للثريد عودة	إلى قد شوقنى	
	تغوص فيه أنملى	غوص الأكول المحسن	
ولى إلى الإسفنج شو	ق دائم يطربنى	وللارز الفضل إذ	تطبخه باللبن
	وللشواء والرقا	ق من هيام أنثنى	
ومنها	وهات ذكر الكسكسو	فهو شريف وسنى	
	لا سيما إن كان مصـ	ـنوعًا بفتل حسن	
ومنها	وصدنى عن ذاك قلـ	ـة الوفا بالثمن	
به خليلى هذه	مطاعم لكننى	أعجب من ريقك إذ	يسل فوق الذقن
هل نلت منها شبعًا	فذكرها أشبعنى	وإن تكن جوعان يا	صاح فكل بالأذن
فليس عند شاعر	سوى كلام الألسن	يصور الأشياء وهـ	ـى أبدًا لم تكن
فقوله يريك ما	ليس يرى فى الممكن	فاسمح وسامح واقتنع	واطو حشاك واسكن

راجع القصيدة فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء ثانى صحيفة ٢٠٢. وراجع الكلام عن ابن الأزرق فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٩٤٠.

obeikandi.com

وقد نظموا التاريخ وحوادثه[1]. وبرعوا فى وصف الأبنية الفخمة وما فيها من الصور والأشكال والزينة، ووصف القصور والحدائق ومجالس الشرب والسمر والغناء والرقص. كقول الشاعر:

يا رب ليل قد هتكت حجابه ... بزجاجة وقادة كالكوكب
يسعى بها ساق أغن كأنها ... من خده ورضاب فيه الأشنب
بدران بدر قد أمنت غروبه ... يسعى ببدر جانح للمغرب
فإذا نعمت برشف بدر طالع ... فأنعم ببدر آخر لم يغرب
حتى ترى زهر النجوم كأنها ... حول المجرة ربيب فى مشرب
والليل منحصر يطير غرابه ... والصبح يطرده بباز أشهب

ووصفوا التنزه بالليل فى ضوء القمر، والأشجار وغصونها، والرياح وهى تعبث بها وظلها الظليل، وأشعة القمر على الجداول، وصفاء الجو، والفاكهة، والأثاث والمساكن، والقصور والصور. كقول الشاعر:

قصر بمدرجة النسيم تحدثت ... فيه الرياض بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سموه ... وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية ... وأقام فى روض من الكافور
غنى الربيع به محاسن وصفه ... فاقتر عن نور يروق ونور
فالدوح يسحب حلة من سندس ... تزهى بلؤلؤ طلبا المنثور
والنخل كالغيد الحسان تقرطت ... بسبائك المنظوم والمنثور

---

(١) راجع الأرجوزة المذكورة لأبى طالب عبد الجبار فى آخر الجزء الأول من كتاب الذخيرة.

والرمل فى حبك النسيم كأنما أبدى غضون سوالف المذعور

والبحر يرعد متنه فكأنه درع تشن بمعطفى مقرور

وكأننا والقصر يجمع شملنا فى الأفق بين كواكب وبدور

ووصفوا التماثيل وبرك المياة وأوانى الأزهار. كما قال بعضهم فى دائرتين من ورد وياسمين:

يا حسنها دائرة من ياسمين كالحلى

فالورد قد قابلها فى حلة من خجل

كعاشق وحبه تغامزا بالمقل

فاحمر من خجل واصفر ذا من وجل

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه(١).

وتكلموا عن الغلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة ومجالس اللهو والشرب والرقص. كما قال ابن شهيد:

هاك شيخًا قاده السكر لكا قام فى رقصته مستهلكًا

لم يطق يرقصها مستثبتًا فانثنى يرقصها مستمسكًا

عاقه من هزها منفردًا نقرس أخنى عليه فاتكًا

من وزير فيهم رقاصة قام للسكر يناغى ملكًا

أنا لو كنت كما تعرفنى قمت إجلالا على رأسى لكًا

قهقهة الإبريق منى ضاحكًا ورأى رعشة رجلى فبكى

---

(١) راجع وصف ابن حمديس فى نفح الطيب طبع أوروبا جـ ١ ص ٣٢١.

وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح، ووصفوا ميادين الحروب وأهوال القتال والنضال؛ والشجاعة والجبن والإقدام، والنصر والخذلان. ووصفوا النفوس وما يجول بها من الميول والأهواء وما يحدث فيها من لذة وألم والعشق وأثره فى النفس. كما قال الشاعر:

قبلة كانت على دهش ... أذهبت ما بى من العطش
ولها فى القلب منزلة ... لوعدتها النفس لم تطش
طرقتنى والدجى لبست ... خلعًا من جلدة الحبش
وكأن النجوم حين بدت ... درهم فى كف مرتعش[1]

وبرعوا فى هذا النوع براعة لا تحارى حين أتوا بالغرائب من المعانى الجزلة التى تثير النفوس وتحملها على التعشق كما قال الشاعر:

---

(١) وكقول بعضهم:

بتنا كأن حداد الليل شملتنا ... حتى بدا الليل فى ثوب سحولى
كأن ليلتنا والصبح يتبعها ... زنجية هربت أمام رومى

وكقول الشاعر:

ولما تجلى الليل والبرق لامع ... كما سل زنجى حسامًا من التبر

وكقوله فى وصف زنجى يسبقهم

وزنجى أتى بقضيب نور ... وقد زفت لنا بنت الكروم
فقال فتى من الفتيان صفه ... فقلت الليل أقبل بالنجوم

وكقولهم فى ملاقاة الأحبة أوقات الوصل

وواعدتها والشمس تجنح للندى ... بزورتها شمسًا وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشى سنى الصبح فى الدجا ... وطورًا كما مر النسيم على النهر
فعطرت الآفاق حولى فأشعرت ... بمقدمها والعرف يشعر بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها ... كما يتقصى قارئ أحرف السطر

obeikandl.com

غصبوا الصباح فقسموه خدودًا ... واستنبهوا قضب الأراك قدودًا

ورأوا أحصى الياقوت نحورهم ... فاستبدلوا منه النجوم عقودًا

واستودعوا حدق المهى أجفانهم ... فسبوا بهن ضراغما وأسودًا

لم يكفهم حمل الأسنة والظبا ... حتى استعاروا أعينا ونهودًا

وتضافروا بضفائر أبدوا لنا ... ضوء النهار بليلها معقودًا

صاغوا الثغور من الأقاحى بينها ... ماء الحياة لو اغتدى موردًا

ولهم خيالات مبتكرة وعبارات طلية خصوصًا فى الوصف، كقول ابن شهيد:

فكأن النجوم بالليل جيش ... دخلت للكمون فى جوف غاب

وكأن الصباح قانص طير ... قبضت كفه برجل غراب

ومن أبدع كلامهم فى الوصف الجميل والشعر الذى لا يجارى فى طريق الخيال والابتكار، ورقة العبارة وحسن الأسلوب، وجزالة المعنى، قول أبى الفضل بن شرف القيروانى (١):

مطل الليل بوعد الفلق ... وتشكى النجم طول الأرق

ضربت الصبا مسك الدجى ... فاستفاض الروض طيب العبق

وألاح الفجر خدًا خجلا ... جال من رشح الندى فى عرق

جاوز الليل إلى أنجمه ... فتساقطن سقوط الورق

واستفاض الصبح فيها فيضه ... أيقن النجم لها بالغرق

(١) راجع القصيدة فى الجزء الثانى من نفح الطيب طبع أوروبا ص ٢٦٧ .

فـــانجـلى ذاك السـنا عن حـلك　　　وانمحى ذاك الـدجى عن شـــفق

بأبى بـعـد الـكرى طيف ســرى　　　طارقًــــا عن سكـن لم يـطرق

زارنى والـليل نـاع ســـدفـــه　　　وهو مـطـلوب ببــــاقى الـرمق

ودمــوع الطل تمريهـا الصـبـا　　　وجـفـون الروض غــرقى الحـدق

فـــــتــــأتى فـى أزار ثابـت　　　وتـثـنـى فـى وشـــــــاح قلـق

وتجلى ووجـــهــه عن شـعــره　　　فــتـــجلى فلـق عن غـــسق

نهـب الصـــبح دجـى ليلـتـــه　　　فـحـبـا الخـــد ببـعض الشـفق

سلبت عـــيناه حـــدى سـيـفـه　　　وتحـلـى خـــــــده بالـرونـق

ووصفوا الكنائس والأديرة والقسس. كما قالوا عن ابن شهيد "إنه بات ليلة بإحـدى كنائس قـرطبـة وقد فـرشت بأضـغاث آس، وعـرشت بسـرور واستيناس وقـرع النواقيس يبهج سمـعه، وبرق الحميا يسـرج لمبه، والقس قد برز فى عبـدة المسيح، مـتوشحًـا بالزنانير أبدع توشـيح، قد هجـروا الأفراح وطرحوا النعم كل إطراح.

لا يعـــمـــدون إلى مـــاء بآنيـــة　　　إلا اغـتـرافًـا من الغـدران بالراح

وأقم منهم يعملها حميا، كأنما يـرشف من كاسها شفة لميا، وهى تنفخ له بأطيب عرف، كلما رشفها أعذب رشف، ثم ارتجل بعد ما ارتحل:

ولرب حـان قـد شـــمـت بديره　　　خمر الصبا مزجت بصرف عصيره

فى فتـية جـعلوا السرور شـعارهم　　　مـتـصـاغرين تـخشـعًـا لكبـيـره

والقس مما شـــاء طول مــقـــامنا　　　يدعـــو بـعـــود حـــولنا بزبوره

يهـــدى لنا بالراح كل مـــخـفـــر   كـالخشف خـفرة التـماح خـفيـره

يتناول الـظرفـاء فـيـه وشـــربهم   لســـلافـــه والأكل من خـنزيره"

أما الأزجـال والموشحـات وغيـرها ن الأوزان التى ابتكروها فى الشـعر العربى، والمقطوعات الشعرية جدية أو هزلية أو اجتـماعية، فحدث عن البحر ولا حرج. فقد أظهروا من البراعة فى ذلك ما لا يقدر عليه إلا نفوس خلقت شعرية بطبيعتها وشاعرة بفطرتها. وقد سرت هذه الأنواع إلى المشرق فأحدثت حركة جديدة فى الشعر العربى، مما سند كره فى موضعه.

* * *

obeikandl.com

أبو عامر بن شهيد

هو أبو عامر بن أبى مروان بن شهيد حفيد ذى الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر(١). ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ومات سنة ٤٢٦ فعاش فى أزهى عصور اللغة والأدب فى الأندلس، وفى عصر كان للمجون فيه سلطان عظيم على النفوس، وكان الأدباء أكرم الناس وأكثرهم إقبالا على ذلك، يجرون وراء أغراض الناس وأهوائهم، فانصبغت عقولهم بصبغة اللهو، وانصرفوا إلى وصف هذه المجتمعات والمحافل، وأخذ الشعر والنثر تلك الصبغة الهزلية التى جعلته خفيف الروح، عذب المذاق، سهلا رشيقًا، جميل البزة والأسلوب، مشتملا على كثير من أحوال الاجتماع وعادات الناس.

(١) هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشعجى الأندلسى القرطبى وزير عبد الرحمن الناصر وهو أول من تسمى بذى الوزارتين، وكانت له دالة على عبد الرحمن الثالث ومنزلة رفيعة لديه. فتصرف فى الوزارة كيفما شاء. واشتهر شهرة عظيمة فى سياسة الملك. كما طار صيته وعلا ذكره بين الأدباء. فكان من أكتب الكتاب وأشعر الشعراء. وقد كان هو وحفيده أبو عامر من أنبغ كتاب الأندلس وأظهرهم ميزة فى الكتابة والشعر ولا سيما فى الأساليب القصصية من جدية وهزلية كما أشرنا إلى ذلك. وهو صاحب الهدية المشهورة التى أهداها للناصر (راجع ص ١٩) وقد عاش فى كنف عبد الرحمن الناصر فكانت بينهما صداقة وصلة ودية وكان يدل أحدهما على الآخر.

ويخيل إلى من يطلع على حياة ابن شهيد هذا أنه كان يصرف كل أوقاته فى اللهو واللعب على الرغم مما اشتهر به من الكياسة فى سياسة الدولة. فقد كانت بينه وبين الناصر مداعبات تدل على ذلك (راجع أخباره مع الناصر وأهداه الغلام فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول ص ٢٢٢) وله أخبار وأشعار كثيرة فى نفح الطيب.

وكان أبو عامر من أعلم الناس متفننًا فى علوم الأدب، بارعًا فى صناعة النظم والنثر. فكانت له منزلة رفيعة وابتكارت بديعة، وأساليب راقية فى فنى المنظوم والمنثور، حتى فاق جده فى ذلك.

وبرع فى أسلوب الرسائل القصصية النادرة المثال فى الكتابة العربية، وربما انفرد فى نوعها، مما يدل على ميله إلى الأسلوب القصصى وابتكاره الفنى. ولقد تحسب هذه الرسائل فذة فى اللغة العربية على الرغم مما فى بعضها من المشابهة برسالة الغفران لأبى العلاء، من حيث الأسلوب والموضوع. كما فى رسالة "التوابع والزوابع". وقد ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة نقلا عن ابن حبان بأنه "كان فى تنميق الهزل والنادرة . . . أقدر منه على سائر ذلك وشعره حسن عند أهل النقد، تصرف فيه تصرف المطبوعين . . . وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال . . . وكان فى سرعة البديهة، وحضور الجواب وجدته مع رقة حواشى كلامه وسهولة ألفاظه . . . آية من آيات خالقه . . وكان له انهماك فى شرب وبطاله"[(١)].
وقد اتصل بالمؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر وكتب له رسائل طويلة بها قصائد جميلة يمدحه فيها ويتملقه كثيرًا. نذكر منها أبيات من قصيدة بدأها بنوع من الوصف البديع لروضة من الرياض، وما بها من لهو ونعيم وجواز وخدم، وتخلص من ذلك إلى الدخول على مدح المؤتمن فمدحه بما لا يكون إلا على لسان مثله.

---

(١) فى النسخة المخطوطة خطأ كثير فى بعض الجمل والألفاظ حذف منها ما لم يمكننا فهمهم ووضعنا محله نقطًا وأصبحنا ما ظهر أنه محرف. وقد تدل النقط على حذف عدة جمل للاختصار. وفعلنا مثل ذلك فيما اخترناه من شعر ابن شهيد وربما أهملنا وضع النقط فى حذف بعض الأبيات.

ولقد يرى القارئ فى قصيدة ابن شهيد هذه روحًا شعرية جديدة يلمح من خلالها نفس الشاعر وما له من القدرة على امتلاك المعانى، والتصرف فيها، وكأنما يقول ذلك بلا روية ولا تكلف، أو كأنه يعارض أبا نواس فى أسلوبه. قال بعد أبيات:

ورد كما خجلت خدو ... د العين من لحظات هائم
وشقيق نعمان شكت ... صفحاته من لطم لاطم
وغصون أشجار حكت ... رفص المآتم للمآتم
بكر الحسان يردنها ... من كل واضحة الملاغم
وضحكن عجبًا فالتقت ... فيها المباسم بالمباسم
ضحكت وأزعج بارق ... فظللت للبرقين شائم
وتكاوست فيها الأبا ... رق وهى فاهقة الحلاقم
وكأنها أظب رعفن ... ن دامية الخياشم
وعلا بنا سكر أبى ... إلا الإنابة للمحارم
نرمى قلائسنا له ... ويجر من عذب العمائم
وترنمت فيها القيا ... ن لنا ورجعت البواغم
قمنا نصفق بالأكف ... لها ونرقص بالجماجم
وأعدن من سندن الملو ... ك سليل أقيال خضارم
يشكو الرعاة تنعمًا ... ويضج من حمل التمائم
لا تستحيه الراشفا ... ت ولا تباليه اللوائم

obeikandi.com

يجنينه ثمر النحو ... ر ويمترين به المحارم

متجاهلات أنه ... يهوى وهن له عوالم

لازمت باب محله ... والنجح من قنص الملازم

حتى إذا وقفت بنا ... عجز الحواضن والخوادم

ألقيت من أخذى له ... وتلوت من سور العزائم

وأقدته بشكائمى ... فانقاد من تلك الشكائم

فوردت جنات المنى ... وكرمت عن لوم الملائم

وأغر قد لبس الدجى ... بردا فراقك وهو فاحم

يحكى لغرته هلا ... ل الفطر لاح لعين صائم

وكأنما خاض الصبا ... ح فجاء مبيض القوائم

ويسير فى يبس الكرى ... وكأنه فى الصبح عائم

حتى إذا علم الصبا ... ح أنار من تلك المعالم

وتمايلت أيدى الثريا وهـ ... ـى مذهبة الخواتم

ورمت ذكاء بناظر ... رمد من الأقذاء سالم

فإذا وصف وجدته يقظًا قوى الملاحظة، لا يصف الأوصاف العامة كأكثر الشعراء، ولكنه يصف ما يراه وصفًا دقيقًا، كالمصور يصور ما هو أمامه. وتلك صفة من صفات الرجال الفنيين.

ولقد يقرأ الإنسان شعره فكأنه فى هرج ومرج. وكأنما الكؤوس تدور،

obeikandi.com

والنفوس تثور، والعزائم تخور، والعقول، ثملة والحياة كلها جنة ونعيم كما قال:

أذن الديك فتب أو ثوب — وأنضج القلب بماء العنب
وتأمل آية معجزة — ما قرأنا مثلها فى الكتب
ركع الإبريق من طاعته — وبكى فابتل ثوب الأكؤب
ولول المزهر ينفى كربى — وتطربت فأعيى طربى
وربيب قام فينا ساقيًا — كالرشا أرضع بين الربرب
ظبية دون الظباء قصصت — فأتت غيداء فى شكل صبى
فتح الورد على صفحتها — وحماه صدغها بالعقرب
فمشت نحوى وقد ملكتها — مشيه العصفور نحو الثعلب
وغمام باكرتنا غيمه — تترع الأفق بدمع صيب
مثل بحر جاءنا من فوقنا — جرمه من لؤلؤ لم يثقب

وإذا هو ينتقل إلى المنح، كما ينتقل الإنسان من ظل الأشجار إلى خرير المياه والأنهار:

فسألناه وقد أعجبنا — حشوه العين بمرأى معجب
أنت ماذا؟ قال مزن علمت — كفه النفخة كفا درب
رامنى بالشوق أن أسقيكم — رحمة منه بأقصى المغرب
فسألناه أين ذاك لنا — قال هل يخفى ضياء الكوكب
ملك ناصب من خالفكم — عامرى المنتمى والمنصب

إلى أن قال:

أنجيته للمعالى أسرة ... نزلوا للمجد أعلى الرتب
بنفوس من سناء غضة ... فى جسوم غضة من حسب
ووجوه مشرقات أومضت ... ضاحكات فى وجوه الكرب
لهم أيام حرب كثرت ... فى عداهم داعيات الحرب

هذا أسلوبه فى الشعر، ولولا خوف الملل من الإطالة لذكرنا كثيراً من شعره[1].

أما نثره فأعجب من شعره من حيث أسلوبه الخيالى القصصى والميل إلى ذلك. وإن كان شعره أبلغ من نثره من حيث الديباجة والعذوبة.

وقد كتب رسالة هى أشبه برسالة الغفران، من حيث أسلوبها الأدبى وسماها "التوابع والزوابع" ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء فى ذلك، لأنه أدرك عسره ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب. وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق فى كل شىء[2].

كتب أبو عامر بن شهيد هذه الرسالة إلى صديقه ابن حزم. فقد عاش فى عصر أبى بكر بن حزم هذا فتصادقا وتحابا. وكان لكل منهما دالة على صاحبه. وكل منهما أديب وعالم، لا تمر بأحدهما لحظة من لحظات الحياة إلا

(١) أخباره مبسوطة مع شعره ونثره فى الجزء الأول من كتاب الذخيرة لابن هشام وفى نفح الطيب ومطمح الأنفس.

(٢) أدرك ابن شهيد عصر أبى العلاء فقد عاش من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٢٤٦ وعاش أبو العلاء المعرى من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٤٤٩.

كانت له فيها جولة فكر ونظر. وكانت بينهما رسائل ومكاتبات يعرضون فيها آراءهم وما يجول بنفوسهم[1]. فكانت عقولهم فى حركة مستمرة من الجد إلى الهزل، ومن اللهو والمزح إلى مسائل الأدب والدين. ولذلك تجد أحدهم يؤلف فى علوم الدين، وتجده يكتب فى الهزل والمجون، وتجده عالمًا وفيلسوفًا وشاعرًا وعاشقًا. فكانوا يأخذون من كل فن بطرف. وكانت تربيتهم العقلية تربية علمية وفنية معًا مبنية على حب الاستطلاع والبحث، وعلى الرغبة فى سرور النفس وارتياحها بآثار الفنون الرائعة. فكانت أخيلتهم مهذبة مصقولة، وأراؤهم بديعة وأساليبهم رشيقة، وابتكاراتهم عجيبة.

والظاهر أنه كان للفلسفة اليونانية وقراءتها وأساليبها أثر عظيم فى نفوسهم. ولعل أسلوب المحادثة والمناقشة الذى نجده فى بعض الرسائل هناك كان مقتبسًا من مثل أسلوب أفلاطون فى بعض كتبه، لأنه أسلوب جديد من الأساليب التى حدثت فى اللغة العربية.

أما الأسلوب الذى كتبت به رسالة ابن شهيد فهو أسلوب خيالى تهكمى ويسميه الأدباء أسلوبًا هزليًا كما ذكر ابن بسام أثناء كلامه عن ابن شهيد: "فصول من رسالة سماها بالتوابع والزوابع صدرت عنه مصدر هزل تشتمل على بدائع وروائع".

وهذه الرسالة عبارة عن عرض صورة عامة للأدب والأدباء ونقد شعرهم نقدًا بيانيًا مبنيًا على ما يعطيه اللفظ من الجمال، وما توحيه معانى هذه

---

(١) قال ابن خلكان وكان بينه وبين ابن حزم الظاهرى مكاتبات ومداعبات وله التصانيف الغريبة. منها كتاب كشف الدك وإيضاح الشك ومنها التوابع والزوابع، ومنها حانوت عطار وغير ذلك أدرك ابن شهيد . . إلخ.

الألفاظ من الروعة والإعجاب، على حسب مـا هو معروف من أساليب النقد عند أدباء العرب.

وله فيها شعر رقيق وأسلوب جميل، بشكل محادثات بينه وبين الشعراء المعروفين. فهى أشبه بقصة أدبية مملوءة بصور الأدباء والشعراء.

قـال فى صدرها: "كنت . . . أحن إلـى الآداب، وأصبـو إلى تأليف الكلام، فاتبـعت الدواوين، وجلست إلى الأساتيذ، فنبض فى عـرق الفهم، ودر لى شريان العلم . . ، وقليل الالتماح[1] من النظر يؤدنى، ويسير المطالعة من الكتب يفيدنى، إذ صادف شن العلم منى طبـقة، ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارًا، ولا كالحمار يحمل أسـفارًا، فطعنت ثغرة العلم دراكًا[2]، وأعلقت أرجل طيره اشتراكًا، فانثالت[3] لى العجائب، وانهالت الرغائب. وكان لى أوائل صبوتى هوى اشتد له كلفى، ثم لحقنى بعض ملل فى أثناء ذلك الميل. فاتفق أن مـات من كنت أهواه مدة ذلك الملال، فجـزعت وأخذت فى رثائه، . . فقلت:

تولى الحمام[4]؛ بظبى الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير[5]

إلى أن انتهت إلى الاعتذار من الملل الذى كان فقلت:

وكنت مللتك لا عن قلى[6] ولا عن فساد ثوى فى الضمير

---

(١) النظر الخفيف.

(٢) من المداركة وهى المتابعة.

(٣) تتابعت وكثرت.

(٤) الحمام الموت.

(٥) الغرير المخلوع.

(٦) القلى البغض.

فأرتج عن القول. فإذا أنا بفارس بباب المجلس، على فرس أدهم[١] كأنما بقل[٢] وجهه، قد اتكأ على رمحه، وصاح بى: أعجزا يا فتى الإنس؟ فقلت لا وأبيك، للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان. فقال بعده:

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته[٣]. وقلت بأبى من أنت؟ قال زهير بن نمير من أشجع الجن، تصورت لك رغبة فى اصطفائك. قلت أهلا بك أيها الوجه الوضاح، صادفت قلبًا إليك مقلوبًا. وهوى نحوك محبوبًا، وتحادثنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع[٤]. وقلت له هل حيلة فى لقاء من اتفق منهم؟ قال حتى أستأذن شيخنا. وطار عنى. ثم انصرف وقد أذن له. فقال جل على متن الأهم. فسرنا عليه، وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو[٥]، حتى لمحت أرضًا لا كأرضنا، وشارفت جوًا لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر. فقال حللت أرض الجن أبا عامر، فبمن تريد أن تبدأ؟ قلت الخطباء أولى بالقديم لكنى إلى الشعراء أشوق. قال فمن تريد منهم؟ قلت صاحب امرئ القيس. فأمال العنان إلى، وإذا ذى دوح[٦] تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره. فصاح يا عيينة بن نوفل، بسقط اللوى وبحومل ويوم دارة جلجل إلا ما عرضت لنا، وسمعت من

---

(١) أدهم أسو.

(٢) نبت عذاره.

(٣) أنفذت رأيه.

(٤) الزوبعة الشيطان أو رئيس الجن.

(٥) الدو الغلاة.

(٦) الشجر العظيم.

الإنسى وعرفتنا كيف إجازتك له. فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب. فقال حياك الله يا زهير وحيا صاحبك. أهذا هو؟ قال هو هذا وأبى جمرة يا عيينة. قال أنشد. قلت السيد أولى بالإنشاد. فتطامح طرفه، واهتز عطفه، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط . . . وجعل ينشد:

سمالك شوق بعد ما كان أقصرا

حتى أكملها ثم قال لى أنشد. فهممت بالحيصة[1]. ثم اشتدت قوى نفسى. وأنشدت:

شجته مغان من سليمى وأدؤر

حتى انتهت إلى قولى:

ومن قنة[2] يدرك الطرف رأسها ... تزل بها ريح الصبا فتحدر
تكنفتها والليل قد جاش بحره ... وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت حصن أبيض ذو شقائق ... وفى الكف من عسالة[3] الخط أسمر
هما صاحباى من لدن كنت يافعا ... مقيلان من جد الفتى حين يعثر"

إلى آخر ما قال:

وهكذا أخذ فى عرض أحوال الشعراء بطريقة خيالية لذيذة. ولكنها تكاد تتكون خالية من كل نقد أو رأى له. وليس فيها الإجمال العبارة، وسهولة الأسلوب، ووضعها هذا الوضع القصصى الذى يدل على سعة

(١) بالهرب.
(٢) قمة الجبل.
(٣) السيف.

خياله، وبلوغه منزلة رفيعة فى هذا الأسلوب الأدبى الصرف. على أنه يميل إلى مدح نفسه وعرض شعره، ويتخذ ذلك وسيلة من وسائل الإعجاب بكلامه. وقد برع فى وصف أحوال الشعراء الذين ذاكرهم ووصف حياتهم وميولهم النفسية، وكأن لكلامه ألوانًا ترسم أحوالهم المختلفة، وتميز بعضها من بعض، أو كأنما استعرض أمامه هذه البيئات والمناظر وأخذ يرسمها بقلمه. كما قال عن أبى نواس:

"ثم قال لى زهير: من تريد بعده؟ قلت صاحب أبى نواس. قال هو بدير حنة، قد غلب عليه الخمر. فركضنا ساعة وجزنا فى ممرنا بقصر أمه. فقلت لمن هذا القصر يا زهير؟ قال لطوق بن مالك أبى الطبع صاحب البحترى، فهل لك فى أن تراه؟ قلت أجل. إنه من أساتيذى. وقد كنت أنسيته. فصاح يا أبا الطلع فخرج إلينا فتى على فرس أشعل[1] بيده قناة، فقال له زهير إنك موفق، قال لا، صاحبك أشمخ مارنا من ذلك لولا تنقصه. قلت يا أبا الطبع إن الرجال لا تكال بالقفز إن، أنشدنا.

من شعرك فأنشد:

ما على الركب من وقوف الركاب

حتى أكملها ثم قال: هات إن كنت شيئًا فأنشدته.

هذه دار زينب والرباب

حتى انتهيت فيها إلى قولى:

فكأن النجوم بالليل جيش ... دخلت للكمون فى جوف غاب

(١) فى ذنبه بياض.

obeikandi.com

وكأن الصباح قانص طير　　　قبضت كفه برجل غراب

. . فكأنما غشى وجه أبى الطبع قطعه من الليل، وكر راجعًا إلى ما وراءه دون أن يسلم. فصاح به زهير أأجزته؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر.

. . . وسرنا حتى انتهينا إلى أصل دير حنة، فضرب زهير الأدهم. فسار بنافى قنته ففتق سمعى قرع النواقيس. فقلت فصحت[1] من منزل أبى نواس ورب الكعبة . . . وسرنا تجتاب أديارًا وكنائس، وحانات، إلى دير عظيم تعبق روائحه، وتصوك نوافحه، فوقف زهير ببابه: وصاح سلام على أهل دير حنة. فقلت أوسرنا بذات الأكيراح قال نعم. وأرقلت نحونا الرهابين، مشدودة الزنانير، قد قبضت على العكاكيز مبيضة الحواجب واللحى. . ، مكثرين للتسبيح، عليهم هدى المسيح. فقالوا أهلا بك يا زهير من زائر، وصاحب أبى عامر. ما بغيتك؟ قال حسن الدنان. قالوا أنه لفى شرك الخمرة، منذ أيام عشرة. وما نراكما منتفعين به، فقال وعلى ذلك. ونزلنا وقاد بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه، وعكفت غزلانه، وفى دير حنة شيخ طويل الوجه والسبلة[2]، قد افترش أضغاث زهر، واتكأ على زق خمر، وبيده طر جهازة[3]، وحواليه صبية كالظباء تعلو إلى عرارة[4]. فصاح به زهير، حياك الله أبا الإحسان. فجاوب جوابًا لا يعقل لغلبة الخمر عليه.

---

(١) يريد أن ما به يفصح ويدل على منزل أبى نواس.

(٢) الشارب.

(٣) شبه كأس يشرب فيه وفى النسخة الخطية طبجهارة ولعلها محرفة.

(٤) لعلها عرعارة وهى لعبة للصبيان. وظبى يعطو إذا رفع يديه ليتناول الشجر. فهو يشبه الصبية بالظباء التى تلعب.

فقال لى زهير اقرع أذنيه بإحدى خمرياتك، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك. فصحت أنشد من كلام أبى طويلة:

ولرب حان قد أدرت بديره ... خمر الصبا مزجت بصفو خموره
فى فتية جعلوا الزقاق[1] تكاءهم ... متصاغرين تخشعًا لكبيره
وإلى على بطرفه وبكفه ... فأمال من راسى لعب كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ... ففتحت من عينى لرجع هديره

فصاح من حبائل نشوته: أأشجعى؟ قلت أنا ذاك. فاستدعى ماء قراحا فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إلى من حاله. فأدركتنى مهابته، وأخذت فى إجلاله لمكانه من العلم والشعر. فقال أنشد حتى أنشدك. فقلت إن ذلك أشد لتأنيسى على أنه ما بعدك لمحسن إحسان فأنشد:

يا دير حنة من ذات الأكيراح[2] ... من يصح عنك فإنى لست بالصاح
يعتاده كل محفو مفارقه[3] ... من الدهان عليها سحق إمساح[4]
لا يدلفون إلى ماء بسانيه[5] ... إلا اعترافًا من الغدران بالراح

ثم قال لى أنشد. فقلت وهل تركت للإنشاد موضعًا. قال لابد لك . . فأنشدت

---

(١) جمع زق وهو وعاء الخمر.

(٢) هى بيوت صغار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال لأحدهما دير عبد وللآخر دير حنة وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض.

(٣) خالية من الشعر.

(٤) الثوب البالى.

(٥) الدلو العظيم.

أصـــبـــاح شـــيم أم بـــرق بدا | أم سنـا المحـــبــــوب أورى زندا
هب مــن رقــــدته منكــســـرًا | مـــســبــــلا للكم مـــرخ للردا
يمـسح النعـسـة من عـينى رشـا | صــــائد فى كـل يوم أســـــدا
قلت هب لى يـا حـبـيـبى قــبلة | تشـــفنى من غم تـبـريح الصـــدا
فـــانـثنى يهـتـــز من منكـبـــه | قـــائـلا: لا، ثم أعطانى الـيـــدا
كلـمـــا كـلـمـنى قــــبلتــــه | فـــهـــو إمـــا قـــال قـــولا رددا
كـــاد أن يرجع من لـثـمـى له | وارتشـــافى الثـــغـــر منه أدردا(١)
قـال لـى يلعب: خــذ لى طائرًا | فـــتـــرانى الدهر أجـــرى بـالكدا
وإذا اســـتنجـــزت يومًـا وعـــده | قـــال لى يمطل: ذكـــرنى غـــدا
شــربت أعطافـــه خـمـر الصـبـا | وسـقـاه الحـسـن حـتى عـربدا"

ولقد بلغ فى هذا من دقة التعبير وبلوغ المعنى الذى قصد مبلغًا تشعر به النفوس وكأنما ترى بعينك المعنى أو تلمســه بيديك، أو كأنك واقف معه ترى ما يراه هو ويـذكره فى شعـره، أو كأنك تنظر إلى صـورة واضحة تـبين لك أجزاؤها بألوانها المختلفة كل دقيق وعظيم.

وله رسالة فى الحلواء غيـر معهودة المثال فـى الكتابة العربية جرى فـيها مـجـرى المجـون والهـزل والفكاهة. ذكـرها ابن بســام فى الجـزء الأول من الذخيرة.

❋ ❋ ❋

---

(١) بدون أسنان.

وكان ابن شهيد مع هذا من كبار رجال الأدب وأهل النقد. وله آراء تدل على فكره الثاقب وعلمه الواسع فى طرق النقد الأدبى. وكأنها آراء مبنية على نظر عميق أو دراسة فنية أو علمية. وفى رأينا أن آراءه فى النقد أكبر ميزة من شعره ونثره، لأنها تدل على سعة اطلاعه وابتكاره الخالص من كل تقليد، فقد انفرد بين نقاد الأدب العربى فى ذلك. قال أبو عامر:

"إقامة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو، بل بالطبع مع وزنه من هذين. ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه. فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه، كان مطبوعًا روحانيًا يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيآتها ... ومن كان جسمه مستوليًا على نفسه من أصل تركيبه والغالب عليه جسمه، كان ما يطلع فى تلك الصور ناقصًا عن الدرجة الأولى فى التمام والكمال وحسن الرونق. فمن كانت نفسه المستولية على جسمه، فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائقة من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس. فإذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده، ولجمال تركيبها وجها لم تعرفه، وهذا هو الغريب: أن يتركب الحسن من غير الحسن. كقول امرئ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها   بيثرب أدنى دارها نظر عال

فهذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلا من غريب معنى لم تجده. ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى.

هذا شىء طريف فى النقد الأدبى عند العرب، وكأنه يشير إلى مذهب النقاد الذين يأخذون صور الكتاب من كتاباتهم، ويقولون أن البلاغة من نثر ونظم تدل على نفوس البلغاء. وفى هذا الكلام إشارة إلى مذهب علمى فى

obeikandl.com

النقد: وهو الأعضاء "ووظائفها" واتصالها بالإدراك. وذلك إن كان ليس مبنيًا على تجارب علمية أو على دراسة فنية فهى أفكار جالت فى نفسه تدل على قوة الفكر لديه. وهو يميل إلى أن الافتنان فى الكلام، أو البراعة فى النظم والنثر، أو ما يسمونه بالبلاغة، نوع من الإلهام، أو شىء من الغيبيات أو سر من أسرار النفوس. وهذه الآراء هى أصول مذاهب النقد الأدبى، وأصول معرفة الكلام البليغ وشرحه كما قال:

"وقال الجاحظ إنا إذا اكترينا من يعلم صبياتنا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهمًا فى الشهر. ولو اكترينا من يعلمهم البيان لما قنع منا بألف درهم. ولم يقل هذا إلا وقد ألف كتاب "البيان". لو كشف فيه عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج، لأرى كيف وضع الكلام وتنزيل البيان، وكيف التوصل إلى حسن الابتداء، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع بأنها معانى الصنعة، ومواضع مفاتيح الطريقة".

فمذهبه فى النقد وسط، لأنه يرى أن البلاغة شىء روحانى كما قال "فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعًا روحانيًا يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيئاتها. الخ" ويرى أن لهذا السر الروحى عددًا وأهبة. قال:

"جلس إلى يومًا يوسف الإسرائيلى وكان أفهم تلميذ مربى وأنا أوصى رجلا عزيزًا على من أهل قرطبة، وأقول له: أن للحروف أنسابًا وقرابات تبدو فى الكلام فإذا جاوز النسيب النسيب، ومازح القريب القريب، طابت الألفة وحسنت الصحبة وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر وطابت المخابر. أفهمت؟ قال لى أى والله. قلت، وللعربية إذا طلبت وللفصاحة إذا

obeikandi.com

التمست قوانين من الكلام من طلب بها أدرك، ومن تنكب عنها قصر، أفهمت؟ قال نعم. قلت وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب عن قبيحه. قال أجل. قلت أتفهم شيئًا من عيون كلام القائل:

لعمرك إنى يوم بأنوا فلم أمت خفافًا[1] على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير

فقال لى أى والله وقعت خفاتا موقعًا لذيذًا، ووضعت رميت ومتن الطريق موضعًا مليحًا، وسرى غصن يراح مطير مسرى لطيفًا" إلى آخر ما قال.

وكان يميل إلى القول بأن الأذواق تتفاوت وتختلف. وهذه قاعدة عامة فى كل الفنون، بل هذا أساس الفنون جميعًا. قال: وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله، فتصادف منه لا تتسع له فى كبير مبرة فتشاركه ونعتذر له، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين، فإذا قارعت أسماعهم وما زجت أفهامهم وانحلت عقدهم، جل شخص ذلك البائس فى عيونهم. فما شئت إذ ذاك من خبز وميرة يحشى بها كمه، ورقبة سمينة تدفن فى مخلاته، ومن كور فقاع يصب فى فمه، وتينة رطبة يسد بها حلقومه . . . فلا يكاد البائس يتمم ذلك حتى يأتينا، فيكب على أيدينا يقبلها وأطرفنا يمسحها، راغبًا فى أن يكشف له السر الذى حرك

(١) مات فجأة.

العامة فبذلك ما عندها له، وبادرت برفدها إليه. وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه. لأن هذا الذى يريد منا هو تعليمه البيان، وبين فكره وبينه حجاب. ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان" الخ

وكان يرى أن للكتابة أطواراً تتناوبها وأحوالا تعتريها. إذ قال:

"وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نقل وتغاير فى العادة. ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه. ألا ترى لما دار حال بعض الرسم الأول فى هذا الفن إلى طريق عبد الحميد وابن المقفع وسهل وأصحابهم. فالصنعة معهم أفسح باعًا وأشد ذراعًا وأنور شعاعًا، لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح فى العلوم. ثم دار الزمان دورانًا فكانت حالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات ونظرائهم، فرقت الطباع. ثم دار الزمان فاعترى أهله للطائف صلف وبرقة الكلام كلف، فكانت حال أخرى إلى طريقة البديع... وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة فى الصنعة بانتقال الزمان، وطلب كل ذى عصر ما يجوز فيه، وتتهيأ له قلوب أهليه. فكان من صريع الغوانى وبشار وأبى نواس وأصحابهم فى البديع ما كان من استعمال أفانينه، والزيادة فى تفريع فنونه. ثم جاء أبو تمام فأسرف فى التجنيس وخرج عن العادة، وطاب ذلك منه وامتثله الناس. والتوسط فى الأمر أعدل. ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغوانى عليه، لأنه لبس ديباجة المحدثين على لامة العرب فتركب له من الحسن بينهما ما تركب".

هذه نظرة عامة فى النقد الأدبى أو فى أطوار البلاغة العربية. يتبين منها

أن ملكه النقد كانت لديه كملكة الشعر والنثـر. وقد قسم الافتنان فى البلاغة إلى ثلاثة أقسام. وعرف أحوال الكتاب وما يلاقونه أثناء أداء هذا الفن. قال:

"وهل صناعة الكلام متبـاينون فى المنزلة، فمنهم الذى ينظم الأوصاف ويحرز جيـد اللفظ، إلا أنه يصعب عليه الكلام، ويكد قريحـة التأليف حتى أنه ربما قصـر فى الوصف. وأساء الوضـع. وهذا فى الأبيات القـلائل نافذ، وفى القريبـة المأخذ سـائر، وفى طريقة الجمـهور ذاهب. حـتى إذا ازدحمت عليـه، وانحشدت إليـه، وطالبتـه ببناء البهـجة وشـرف المنزلة، وقف وأثقل وتلاشى واضمحل، ومنهم الـكارع فى بحر الغرارة والقابح بشعـاع البراعة، الذى مرمر السـيل فى اندفاعه، والشؤبوب فى انصـبابه لا يشكو الفشل، ولا يكل عن طول الـعـمل. إذا ازدحـمت فى الـكلام عليـه المطالـب، وعلقت بحواشى فكره المآرب، وحشدت عليه الصـعائب والغرائب، أسهل بها كاهله واضطلع بثقلها غاربه، وأعارها من نظرة لمحة، ومن فكرة قدحه. ثم رمى بها عن جانبيه، وقد رويت بمائها. ولبست شـعاع بهائها ... ومنهم من يتجافى الكلام ويروغ عن المقال، فإذا منى به أخـذ بأطراف المحاسن وشارك فى أنحاء من الصنعـة، وجل ما عنده تلفيـق وحيلة. وبذلك يجارى الأيـام ويصاحب أبناء الزمان، ما كان له عـقل يقضبى على نقصانه، وسياسة يسـود بها فحول زمانه. ومن خرج من هذه الطبقات الثـلاث لم يستحق اسم البيان ولا يدخل فى أهل صناعة الكلام".

وقـد أنحى ابن شهـيـد باللائمـة على مذهب أهـل البديع. كـأن هذه الطريقة اللفظية كانت ممقوتة. أو أن ملكة النقد كانت على وشك النضج، أو أنها كانت آخذة فى الانتقال إلى طريق صحيح. قال أبو عامر.

"وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو، وحفظ كلمات من اللغة ينحتون عن قلوب غليظة وقلوب كقلوب البعران، وإلى فطن حمئة وأذهان صدئة لا منفذ لها فى شعاع الرقة، ولا مدب لها فى نور البيان، سقطت إليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليمانى فى الرقص على الإيقاع والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ومن لم تكن له آلة الصناعة مما هى مخصوصة بها، ولا تقوم تلك الصناعة إلا بتلك الآلات. فهو كالحمار الذى لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رسغه، واستدارة حافره. ولا له بنان يحبس بها ... ولو جاز أن يكون حمار يغنى.

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك

وشبهه من الرجال له حنكًا ولسانًا وقصبه ورئة، لما جاز أن يوقع بالمضراب على الأوتار، ويتمم بحبس الأنامل، ويرخى الوتر فى مجرى السبابة والبنصر، فيبلبل بنشيده، ويولول فى ضربه على بسيطه. فهذه حالة العصابة من المعلمين: يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم فى الشريانات إلى القلب، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى. وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة فساد الآلات الظاهرة، كفرطحة الرأس وتسفيطه، ... والتواء الشدق. وخزر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة".

أليس فى هذا دليل على اطلاع أبى عامر بن شهيد على كتب العلم والفلسفة، على الرغم مما فيه من الغموض، وهل نجد بين أدباء العرب فى

النقد الأدبى من سلك هذا الطريق العلمى؟ إن هذه لآراء ممتازة فى النقد الأدبى العربى. وطريقة علمية تشبه ما حدث فى الأدب عند أهل أوروبا فى القرن التاسع عشر. وكان هذا يكون نموذجًا للنقد الصحيح وطرقه العلمية التى تصل أفكار الكاتب وآراءه بتكوينه العصبى وتركيبه الجسمى. ولكن واحدًا من الأدباء الذين تكلموا عن أبى عامر بن شهيد لم يذكروا له غير "شعره الرقيق، وأسلوبه الرشيق، ومجونه الكثير وأدبه الوافر . . . " إلخ.

إن ابن شهيد من أفذاذ الأدباء المفكرين الذين أنجبتهم حركة العقول والإدراك فى الأندلس.

***

الوزير ابن زيدون[1]

اقترنت الوزارة فى الأندلس بالأدب. فكان الوزير كاتبًا وشاعرًا. وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء. وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة. فكان للوزراء أثر عظيم فى سير البلاغة والأدب. وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزراء أنفسهم فى الدولة. وظهر فى الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا فى مناصب الملك وتقلبوا فى مراكزالدولة. وتغلبوا على شئونها. وهم جميعًا من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل الشورى وأعلام الحياة العقلية.

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الأدباء والشعراء المجيدين، أو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى الأندلسى القرطبى، أشهر من عرف فى حلبة الأدباء، وأظهرهم ميزة فى فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان، لأنه صورة من صور الأدب فى الأندلس وصحيفة من صحف البلاغة هناك، وثمرة من ثمار وغرس العرب فى بلاد المغرب.

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة فى سنة ٣٩٤هـ وتوفى بإشبيلية سنة ٤٦٣هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون: أحدهم أبو بكر عبد الله بن

(١) ليس للدينا عن ابن زيدون ما يدلنا على شىء من حياته المنزلية أو تربيته الأولى، أو ما يتيح لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية أو حياته الفكرية ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر سوى أنه كان من وجوه الفقهاء بقرطبة. وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال فى كتابه (الصلة) أنه أثنى عليه وكان يكنى أبا بكر وتوفى سنة ٤٠٥ هـ ودفن فى قرطبة. وكل ما ذكر من صفاته أنه كان يخضب بالسواد. وفى بعض كلام الشعراء الذين رثوه ما يدل على أنه كان من أهل الفضل.

أحمد بن غالب والده، والثانى أبو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولا فى آخر أيامه. وهم من أصل عربى كما أشرنا إلى ذلك فى كلامنا على القبائل التى نزلت الأندلس من العرب.

كان أبوه قاضيًا مشهوراً بين قضاة قرطبة، وعالمًا وأديبًا. مات سنة ٤٠٥هـ فكان عمر ابنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة. وكان أبو الوليد منذ حداثته ميالا إلى العلم والتعليم، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلى وكانت نشأته فى قرطبة ساحة العلوم والآداب، فانكب على الدرس والبحث، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين. وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئًا كثيراً، كما وعى كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء وأمثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة، حتى أصبح فى مقدمة الشعراء والأدباء. واندمح فى مجالى الأدب، فصار علمًا من أعلامها ودعامة من دعائمها. وكانت قرطبة لا تزال فى أوج عزها على الرغم من أفول شمس بنى أمية بها، وأهلها فى رخاء من العيش، أكثرهم يميل إلى العلم والأدب ومجالسة الأدباء. فامتلأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل إلى المجون، فساعده ذلك على أن يسبق غيره وأن ينال شهرة واسعة بين أترابه.

وكان للنساء أثر عظيم فى هذه المجالس. فاتجه الناس إلى الاندماج فيها واستعذبوا هذا المورد، وانصرفت همم الأدباء إلى التفوق فى هذا الميدان فكان لذلك أثر عظيم فى أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر. وكأنما ضاعت كل صبغة جدية فى المجامع الأدبية فجرؤوا الوزراء على المجاهرة بالمجون. وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء فجذب إليه الأنظار.

وكان لولادة بنت المستكفى الخليفة الأموى شهرة عظيمة فى قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها. فوقع ابن زيدون فى شركها ووقعت فى شركه واشتمل كل منهما على صاحبه، حتى حسد عليها وحسدها الناس عليه. وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدون وهو كبير الحول والطول، فتقرب إلى ولادة حتى آمالها إليه، واغتصبها من صديقها، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته بعدم الإخلاص لها، كما اتهمها بذلك أيضًا، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتت من شملهما وحالت بين قلوبهما. لذلك غلب ابن عبدون ابن زيدون على أمره واستولى على قلب ولادة. ثم حدث أن رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية. ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب فى حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأدباء وأصحاب الأقلام والمفكرين. وهذه الحادثة من أكبر الحوادث فى حياة ابن زيدون.

عاش ابن زيدون فى بيئة كلها اضطراب ودسائس، وتربى ودرج فى ذلك وتقلد الوزارة فيها، لأنه اشترك فى حوادث الاضطراب التى كانت على أثر زوال دولة بنى أمية، فكان من أشيع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذى ادعى لنفسه الملك فى قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ وعلت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذه ابن جهور وزيرًا له فملك أزمة الأمور. وكان أقرب الناس إلى سيده الذى استعان به كثيرًا فى المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به. وحدثت حوادث أغرت عليه صدور كثير من منافسيه

وحاسديه على فضلـه ومنزلته؛ فحملوا عليه عند ابن جهـور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلا. فـاستغفر واستـعطف بما يلين من أجله الحديد، فلم يفلح فى إرضاء الأمير فعزم على أعمال الحيلة والهرب من السجن.

واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبى الوليد بن جهور عند أبيه أبى الحزم حتى شفع له. وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين فى دولته. ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقـائه فى قرطبة. فهاجر إلى إشـبيلية سنة ٤٤١ ودخل فى حاشية المعتضد بن عـباد وصار وزيراً لابنه المعتمد وبقى هناك إلى آخر عمره.

هذه حياته وأخلاقـه وقد ذكرها فى شعره ونثره ومنـها يرى أن حركات عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوة. فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة. لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبيـة إلى أقسام ثلاثة: عشـقة لولاده وأثر ذلك فى نفسه وما كتبه فى هذا. ثم مـدحه لابن جهور وابن عباد. ثم أثر السجن فى حياته العقلية.

***

شعر ابن زيدون

كان لأخلاق ابن زيدون والبيئة التى عاش فيها وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم فى شعره. فقد كان للمجون مسحة خاصة فى النظم والنثر، فبرع ابن زيدون فى الغزل، وكثير من شعره فى ذلك كان منبعثًا عن ثوران فى نفسه وغليان فى ميوله وأهوائه، وأذكى ذلك كله حبه لولادة. فإن عشقه هذا فتح له بابًا واسعًا من الخيال قال فيه ما شاء وشاءت عواطفه أن توحى إليه. كذلك كانت آلامه وما لاقاه فى السجن باعثًا من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه وإلهامًا من إلهاماته الفنية.

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور، وكاد له منافسوه فى حب ولادة حتى نالوا منه، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأيه السديد وبراعته فى إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة. ولم يكن لابن جهور أن يخطئ فى نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأى وصحته، فإذا نال ابن زيدون مكانة فى نفس ابن جهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق. ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جهور فغضب عليه وأمر بسجنه، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعرى أثارتها آلامه فأخذ يئن أنينًا جميلا ويفتن فى آلامه ووصفها والتعبير عنها شعرًا ونثرًا . . والفنى يمزج فنه دائمًا بكل ما يرى ويسمع ويشعر. ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الإدراك، التى إذا أنت تئن أنين الموسيقى، وإذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعورًا الواسعة التصور والإدراك الدقيق الجميل، الذى يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلا.

كتب ابن زيدون من السجن إلى صديقة أبى حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه، وهو ينهضه الأمل مرة ,يقعده اليأس أخرى. ولا يترك شاردة تمر بخاطره إلا أهدأ بها نفسه وتسلى بها عن آلامه. يستسلم أحيانًا إلى القضاء فيشعر فى نفسه براحة واطمئنان، ويقلب أمامه صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التى ألمت به. ويرجع إلى صديقه فيسليه هو بنفسه، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته، لأن السادة خلسة. ثم يعود فيذكر أعداءه ونيلهم منه ويبين أن ذلك ليس بالعجب لأنه

إن قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكانته، ويمزج ذلك بالعبر والحكم والسخرية والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة، ويرجع أنينه وألمهم وحقده على الناس ولا سيما حاسديه، ويضرب المثل كى يسكن من نفسه، وهو فى ذلك كعادته فى الشكوى: يهبط مرة إلى الدرك الأسفل من اليأس، ويرتفع أخرى إلى ذروة الرجاء، وكأنه فى شجار مستمر بينه وبين نفسه وشعوره، كل هذه المعانى فى أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق، يكاد يلمح الإنسان فيها خاطره المضطرب التماوج. حيث يقول:

ما على ظنى باس ... يجرح الدهر وياسو[١]

ربما أشرف بالمر ... ء على الآمال ياس

ولقد ينجيك أغفا ... ل ويرديك احتراس

والمحاذير سهام ... والمقادير قياس[٢]

(١) يداوى من آسى الجرح داواه.

(٢) قياس هنا جمع قوس.

obeikandl.com

ولكم أجدى قعود ... ولكم أكدى التماس(١)

وكذا الحكم إذا ما ... عز ناس ذل ناسف

وبنوا الأيام أخيا ... ف(٢) سراة(٣) وخساس(٤)

نلبس الدنيا ولكن ... متعة ذاك اللباس

يا أبا حفص وما سا ... واك فى فهم إياس

من سنا رأيك لى فى ... غسق الخطب اقتباس

ووادى لك نص ... لم يخالفه القياس

أنا حيران وللأمـ ... ـر وضوح والتباس

لا يكن عهدك وردًا ... إن عهدى لك آس

وأدر ذكرى كأسًا ... ما امتطت كفك كاس

فعسى أن يسمح الدهـ ... ـر وقد طال الشماس(٥)

واغتنم صفو الليالى ... إنما العيش اختلاس

ما ترى فى معشر حا ... لوا عن العهد وخاسوا(٦)

---

(١) أكدى يخل أو قل خيره.

(٢) مختلفون.

(٣) أشراف.

(٤) أدنياء.

(٥) العصيان.

(٦) غدروا.

obeikandi.com

أذوب هامت بلحمى ... فانتهاب وانتهاس[1]
كلهم يسال عن حا ... لى وللذئب اعتساس[2]
إن قسا الدهر فللما ... ء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبوسًا ... فللغيث احتباس
ويفت المسك فى التر ... ب فيوطى ويداس

هذه نفحات القلوب، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة، وهذا هو جمال القول، ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه وقافيته. بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله. كل معنى فيه تحتاج إليه النفس فى مثل هذه المواقف. ولقد كانت هذه المعانى سائغة للنفس لأن الشاعر صادق فى قوله، معبر عن شعوره يرسم صورة نفسه الحزينة المتألمة. لهذا كان الشعر جميلا.

وقد بدأ قصيدة من قصائده فى هذا بالفخر بنفسه، وأمعن فى ذلك، وكأنما كان يبكى حظه ويندبه بهذا الأسلوب الفخرى. أو كأنما معنى من هذه المعانى كانت تهدأ خاطره وتريح نفسه. فلما مدح ابن جهور مدحه فى قلب استعطاف، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدى. وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف أشم حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور، فكان عاتبًا أشد منه مادحًا، لأنه كثيرًا ما كان فى مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه، ولا يريد أن يملى عليها ولو همسًا أنه فى موقف مذلة. وكأنه كان يتسلى بهذا، لأنه

(١) مثل الانتهاش وهو الأكل بمقدم الأسنان.
(٢) تجسس.

يرى أن أعـداؤه لم ينالوا منه إلا لأنه فـاقهم بعلمـه وفـضله. حتى أنه قـال متهكمًا:

ولو أننى أستطيع كى أرضى العدا   شريت ببعض العلم حظًا من الجهل

فقال:

ألم يأن أن يبك الغمـام على مثلى   ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقـــامت أنجم الـليل مـــأتمًا   لتندب فى الآفاق ما ضاع من نبلى
فلو أنصـفتنى وهى أشكال همـتى   لألقـيت بـأيدى الذل لما رأت ذلى
لعمر الليـالى أن يكن طال عمرها   لقد قرطست بالنبـل فى مقتل النبل(١)
تحـلت بـآدابى وإن مـــــــآربـى   لسارحـة فى عرض أمنيـة عطل(٢)
أخص لفـــهـــمى بالقلى وكـــأنما   يبيت لذى الفـهم الزمان على دخل(٣)
وأجـفـى على نظمى لكـل قـلادة   مفـصلة السمطين بالمنطـق الفصل
ولو أننى أسطيع كى أرضى العـدا   شريت ببـعض العلم حظًا من الجهل
وإن رجائـى فى الأمام ابن جـهور   لمستحكم الأسباب مستحصد الفتل
كـريم عـــريق فى الكرام وقـلمـا   يرى الفرع إلا مسـتمدًا من الأصل
يرف على الـتـأمـيل لألأ بـشـره   كما رف لألآء الحسام على الصقل
ويغنى عن المدح اكـتفـاء بسروه(٤)   غنى المقلة الكحلاء عن زينة الكحل

---

(١) النبل بفتح النون السهم وبضمها الشرف.
(٢) لا فائدة فيها من عطلت المرأة إذا خلا جيدها من القلائد.
(٣) الذحل الحقد.
(٤) رفعته وعلو شأنه.

أبا الحـزم أنى فى عـتـابك مـائل | إلى جانـب تأوى إليه العـلا سهل
حـمـائم شكوى صبـحك هوادك | تنـاديك من أفنـان آدابى الهـدل

وكل قصائده التى أرسلها يستعـطف بها ابن جهور هى أثر ذلك الشقاء الذى لقيه فى سـجنه، وصورة من صور البؤس الذى حرك شـعوره وفتق من لسانه، وأثار فى نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همًا وغمًا.

ولكن أسلوبه فى الشكوى والاسـتعطاف واحد فى نظمـه ونثره. ومـا أشبه قصـائده فى ذلك وما فيها من المعانى برسالتـه الجدية. وكأنما كان فكره سجـينًا مثله من شدة تألمه فى السـجن، فإنه لم يخرج عن عـادته فى ضرب الأمثال والفخر بنفسه، وأنه أفضل إنسان وأكرم من دب على وجه الأرض.

غيـر أن كلامه مع ذلك المذاق، رقيق الحـاشية، جذاب خـلاب، تظهر عليه سـيما الابتكار والصـدق فى التعـبير، فـإنه ليس من الخيالات الشـعرية الصرفة بل به كثير من الحقائق التى كان يمليها عليه شعوره كما قال:

ما جال بعدك لحظى فى سنا القمر | إلا ذكـرتك ذكـر العـين الأثر
ولا استطلعت ذماء[1] الليل من أسف | إلا على ليلـة سـرت مع القـصـر

إلى أن قال:

فهمت مـعنى الهوى من وحى طرفك لى | إن الحـوار لمفـهـوم من الحـور
لم يسأل الناس عن حـال يشاهدها | محض العيان الذى يغنى عن الخبر
لم تطو برد شـبـابى كـبـرة وأرى | برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر

(١) الذماء بقية الروح يريد ما بقى من الليل

قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثب[1]   وللشبيبة غصن غير مهتصر

يا للرزايا لقد شافهت منهلها   غمرًا[2] فما أشرب المكروه بالغمر[3]

لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره   أنى معنى الأمانى ضايع الخطر

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة   أم الكسوف لغير الشمس والقمر

إن طال فى السجن ائداعى فلا عجب   قد يودع الجفن حد الصارم الذكر[4]

وإن يثبط أبا الحزم الرضى قدر   عن كشف ضرى فلا عتب على القدر

من لم أزل من تأنيه على ثقة   ولم أبت من تجنيه على حذر

وكتب إلى أحد أصدقائه وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن فقال " . . . وبلغنى أنك أحد اللائمين لى، ومن أمثالهم: ويل للشجى من الخلى[5] وهان على الأملس ما لاقى الدبر[6]. وعلمت أن العاجز من لا يستبد، فالمرء يعجز لا محالة. ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين، العير والوتد، وتذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين، وقد قال تعالى على لسان موسى: ﴿ففرت منكم لما خفتكم﴾. فنظرت فى مفارقة الوطن، فقديمًا ضاع الفاضل فى وطنه، وكسد العلق[7] فى معدنه. كما قال:

---

(١) قرب.

(٢) الغمر الكثير.

(٣) الغمر قدح صغير يريد أنه كثير البلوى.

(٤) سيف ذكر حاد.

(٥) الشجى المشغول.

(٦) يضرب فى سوء اهتمام الرجل بشأن أخيه والدبر الذى فى ظهره قرحة والأملس صحيح الظهر.

(٧) العلق النفيس.

Obeikandi.com

أضيع فى معشرى وكم بلد يكون عود الكباء[1] من حطبه

فاستخرت الله فى إنفاذ العزم. وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن، إلا أن الغى لم يرتفع، ومادة البغى لم تنقطع.

شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط وشط بمن تهوى المزار وما شطوا
أأحبابنا ألوت بحادث عهدنا حوادث لا عهد عليها ولا شرط
لعمركم إن الزمان الذى قضى بشت جميع الشمل منا لمشتط
وأما الكرى مذلم أزركم فهاجر زيارته غب وإلمامه فرط

إلى أن قال:

هرمت وما للشيب وخط بمفرقى ولكن لشيب الهم فى كبدى وخط
وطاول سوء الحال نفسى فاذكرت من الروضة الغناء طاولها القحط
وإنى لراج أن تعود كبدئها لى الشيمة الزهراء والخلق السبط[2]
وحلم امرئ تعفى الذنوب لعفوه وتمحى الخطايا مثل ما محى الخط
فمالك لا تختصنى بشفاعة يلوح على دهرى لميسها علط[3]

إلى آخر ما قال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر الماضى والحاضر والاستغفار والاستعطاف، والسرور بذكر ما

---

(١) الكباء العود المتبخزة.

(٢) يرد الخلق الكريم يقال رجل سبط اليدين كريمهما وسبط الجسم حسن القد فهى من صفات المدح.

(٣) الميسم أثر الحسن والعلط سواد يزين به الوجه.

انقضى والبكاء على الحاضر، وهى أيضًا أظهر فى لهجتها الجدية من كثير من شعره. ولذلك كانت أجف فى أسلوبها ومعانيها، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه. كل ذلك هاجه السجن وما تذوقه من الآلام، فرسمه فى شعره. لأنه رجل فنى عرف كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما يجول بخاطره.

ولقد يلاحظ الإنسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير طويل أو علم واسع. وإنما هو خياليًا أكثر منه مفكرًا، وشاعرًا أكثر منه عالمًا. وهذه كل حال شعره ونثره.

أما مدحه ورثاؤه فهما فى الدرجة الأخيرة من شعره، لأنه على جمال أسلوبه فى ذلك، وحسن تصرفه فى المعانى، لا يكاد يعثر الإنسان فيه على معنى جديد ولا أرى خاص، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعانى من قبيل معارضيه غيره من الشعراء والأخذ بمعانيهم ممزوجٌ ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان.

ومن أجمل قصائده فى ذلك كلامه فى المعتضد بن عباد وابنه المعتمد(١) ومن أرق كلامه فى الشكوى، وأقرب عباراته وصولا إلى القلوب بكاؤه على الماضى، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله:

الهوى فى طلوع تلك النجوم ... والمنى فى هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشى ... لو يدوم السرور للمستديم
وطرًا ما انقضى إلى أن تقضى ... زمن ما زمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى ... ليس يومى بواحد من ظلوم

(١) راجع قصيدته التى يرثى بها ويمدح المعتمد ابنه فى نفح الطيب طبع أوروبا جـ ٢ ص ٦١٤.

ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حينًا مؤلمًا، فإذا قرأت شعره فى ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعـادته البالية، فبكى وبكيت معه. كما قال:

ألا هـل إلى الـزهـراء أوبة نـازح تقـضت مبـانيـها مـدامـعه نزحًـا
مـقاصـير ملك أشـرقت جنباتهـا فخلنا العشاء الجون[1] أثناءها صبحًا
يمـثل قرطيـهـا لى الوهم جهـرة فقبتهـا فالكوكب الرحب فالسطحا
مـحل ارتيـاح يذكـر الخلد طيـبـه إذا عز أن يمسى الفتى فـيه أو يضحا
هناك الحـماء الورق[2] خفـافهـا ظلال عهدت الدهر فيهـا فتى سمحًا
تعوضت من شـدو القيان[3] خلالها صدى فلوات قد أطار الكرى صـبحًا
ومن حملى الكأس المفـدى مديرها تقـحم أهوال حملت لهـا الرمحـا

(١) الجون يطلق على الأبيض والأسود والغرض منه الأسود.
(٢) التى فى لونها بياض ممزوج بسواد.
(٣) الجوارى.

الغزل فى شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع فى الأندلس، وميول النفوس واختلاط النساء بالرجال، واندماج كثير من الأدبيات فى مجالى اللهو والطرب، أن المرأة شغلت جزءًا عظيمًا من أوقات الرجال المفكرين، وملأت رءوسهم كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم. فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور، والخمر تدير العقول وتملى عليها القول، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال. والعقول ثملة بنشوة الغرام، والرءوس مثقلة بحرارة المدام، والناس لا يفوتهم الطرب، ولا يريدون أن يتواروا عنه لعلقته بنفوسهم، حتى فى أشد المحن. فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو فى سجنه لصديقه أبى حفص بن برد يقول:

وأدر ذكرى كأسًا ... ما امتطت كفك كاس

واغتنم صفو الليالى ... إنما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون فى شرك ولادة بنت المستكفى بالله، وكانت خليعة ما جنة بارعة فى الجمال أديبة شاعرة، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء "تناضل الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء ... خرجت على نهاية فى الأدب والظرف حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبًا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غربتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب، وطهارة أثواب، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل

بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها . . . " وقالوا "أنها كانت بالمغرب كعلية بالمشرق، إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق. وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها. وكان لها صنعة فى الغناء. وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها وكانت من الأدب والظرف، وتمتيع السمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق السباب" فنال ابن زيدون رضاها، ووقع من نفسها كما وقعت هى من نفسه، حتى كتبت إليه تضرب له موعداً فقالت:

ترقب إذا جن الظلام زيارتى ... فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح ... وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

قال أبو الوليد "فلما طوى النهار نوره، ونشر الليل نيره أقبلت بقد كالقضيب، وردف كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل. فملنا إلى روض مدبج، وظل سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودر الطل منثور، ورحيق الراح مزرور. فلما شببنا نارها، وأدركت منا ثأرها، صرح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه . . . وأنشدتها:

ودع الصبر محب ودعك ... ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن ... زاد فى تلك الخطى إذا شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا ... حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم ... بت أشكو قصر الليل معك"

وكتبت إليه بعد ذلك تقول:

الأهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقى

إلى أن قالت:

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ولا للصبر من رق التشوق معتقى

سقى الله أرضًا قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

لا نريد الآن أن نتكلم فى العشق وأثره فى النفس وما يوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى عند عامة الناس، فإن تاريخ الإنسانية حافل بحوادثه. ولكنا نقول أن العشق فى كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه، ليس من المسائل الهزلية. لأن الشعر الذى هو وحى النفوس وجمال الإدراك الإنسانى، أكثر ما يكون ظهوراً فى التعبير عن الحب، ووصف هذا الضعف الإنسانى الذى نسميه عشقًا، فإن العشق إدراك أكبر مظاهر الجمال فى الحياة. ومن لم يفتح قلبه يومًا ما، لم يدرك أسرار الحياة، ولم ير غير ظواهرها ولم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال الكون. إن جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس فى التآلف، وكثير من آمال الناس فى تلك الصلة النفسية. والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن فى الشعر، لأنه مصدر الشعر الخيالى الجميل. لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس، ويفتح القلوب. ويظهر مكنونات الإنسان وأخلاقه وآلامه وآماله.

إن النساء منبع من منابع الشعر. والشعراء مدينون لهن بأفضل الصفات لديهم وهى وصف شعور الناس. والشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم. وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين. إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات ما يجول بها من المعانى ويدفعها إلى

النفوس فتصبو إليها، ويذيعهـا بين العشاق فيرى كل قلبه وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته. وذلك لا يكون إلا فى الشعر.

فإذا أخطأ العرب فـى إمعانهم فى هذا النوع والإكثار مـنه، فقد أخطأوا من جهة واحـدة: وهى تكرار المعانى وتقليد بعضهـم بعضًا فى ذلك، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحـد، وأن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية مـتينة، وأن المعانى محضورة فى ذلك.

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسـعة فى الخيـال، فكان فنيًا مـبدعًا. أرأيت شـعراء الغـرب كيف يطنبون فى وصف الأمكنة التى اجتـمعوا فيها مع صديقـاتهم، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين: الأول إحياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها، إذ كل شىء هناك كان يشـهد حبـهم ويعطف على عشـقهم، وتلك الأمكنة جـميلة لأنها احتوت عليهم، والأضواء التى كانت تسطع عليهم والأشجار التى كانت تظلهم، والكواكب التى كانت تتجسس أخبارهم، جديرة بأن لا تنسى، لأنها أثر من آثار العشق. الثانى أن الشاعر الفنى يفر من التكرار، ويعرف أن معانى العشق والحب سرعان ما تنفد، فهو يتحايل على بث شىء من المعانى الأخرى التى لهـا صلة بذلك، كى يتسـنى له أن يجول فى مـيدان أوسع ليـضل إلى التعبـير عن مراده، أو يمنع العقول من أن يـدركها الملل. فهو يسـتعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصورة التى يريد أن يبرزها. كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريبًا منهم. فـقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة فى أيام الربيع، يرد أن يسلى نفسـه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة، فذكـر فى شعر أرسله إليهـا كل ما كان يحـيط به إذ ذاك، وأبدع أيما إبداع، وافتن افتنانًا عظيمًا فى ذلك. فقال:

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقًا ... والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال فى أصائله ... كأنما رق لى فاعتل إشفاقًا

والروض عن مائة الفضى مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواقًا

يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقًا

نلهوا بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقًا

كأن أعينه إذ عاينت أرقى ... بكت لما بى فجال الدمع رقزاقا

ورد تألق فى ضاحى منابته ... فازداد منه الضحى فى العين إشراقا

سرى ينافحه نيلوفر عبق ... وسنان نبه منه الصبح أحداقا

كل يهيج لنا ذكرى تسوقنا ... إليك لم يعد عنها الصدر إن ضاقا

لو كان وفى المنى فى جمعنا بكم ... لكان من أكرم الأيام أخلاقا

لا أسكن الله قلبًا عن ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

لو شاء حملى نسيم الريح حين هفا ... وافاكم بفتى أضناه ما لاقا

كان التجازى بمحض الود من زمن ... ميدان أنس جرينا فيه إطلاقا

فالآن أحمد ما كنا لعهدكم ... سلوتمو وبقينا نحن عشاقا

وإذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس ذلك فى ابتكار المعانى التى لم يسبق إليها؛ وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب. وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والأسلوب. كما فى قوله:

إليك مـن الأنام غـدا ارتيـاحى   وأنت من الزمـان مـدى اقتـراحى
ومـا اعتـرضت همـوم النفس إلا   ومن ذكـراك ريحـانـى وراحى
فـديتك أن صـبرى عنـك صبـرى   لدى عـطش عن المـاء القـراح
ولى أمل لـو الواشـون كـفـوا   لأطلع غـرسـه ثمـر النجـاح
وأعـجب كـيـف يغلبنى عـدو   رضـاك عليه مـن أمضى سـلاحى
ولما أن جلـتك لى اخـتـلاسـا   أكف الـدهر للحـيـن المتـاح
رأيت الشـمس تطلع فى نـقـاب   وغـصـن البـان يرفل فـى وشـاح
فلو أسـتطيـع طرت إليك شـرقـا   وكـيف يطيـر مـقـصـوص الجناح
وحـسـبى أن تـطالعك الأمـانى   بأفـقـك فى مـسـاء أو صـبـاح
فـؤادى من أسى بك غـيـر خـال   وقلبى من هوى لك غـيـر صـاح
وأن تهـدى السـلام إلى شـوقـا   ولو فـى بعض أنفـاس الـرياح

ولقـد يسمع الإنسـان أنينه فى شعـره، ويرى نفسـه الحزينة مـن خلال كـلامه، وكـأنه يرى تلك الحيـرة وذلك القلق النفـسى للذين يملآن نفـوس العشـاق ويمنعان عنهم راحـة الحياة ولذاتهـا. على أنه يلتذ لذكـر محبـوبته وتذوق الآلام فى سبيلها. فيقول:

مـتـى أنبـيك مـا بى   يا راحـتى وعـذابى
مـتـى ينوب لسـانى   فى شـرحـه عـن كـتـابى
الـلـه يـعـلـم أنـى   أصـبـحت فـيك لما بى
فـلا يـلـذ منـامـى   ولا يسـوغ شـرابى

يا فـتنة المتـعـزى ... وحـجـة المتـصـابى
الشـمس أنـت توارت ... عن ناظـرى بالحـجـاب
مـا البـدر شف سـناه ... على رقـيق السـحـاب
إلا كـوجـهـك لما ... أضـاء تحت االنقـاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحـمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل الإخلاص فى حـبه، وأن حـبه هذا هو كل أمنيـته. وأنه يرى فى سـبيل العشق ما لا يراه غـيره، ويهون عليه كل شىء فى سـبيل إرضاء حبيـبه حتى حياته. وهو فخور بهذا كما قال:

أنى تضـيع عـهـدك ... أم كـيف تخلف وعـدك
وقـد رأتك الأمـانى ... رضى فـلم تتـعـدك
يا ليت شـعـرى وعندى ... مـا ليس فـى الحب عندك
هل طـال ليلـك بعـدى ... كطـول ليـلى بـعـدك
سلنى حـيـاتى أهبـهـا ... فـلـست أمـلـك ردك
الدهـر عـبـدى لما ... أصبحت فـى الحب عبدك

على أننا لا نبـرئ ابن زيدون من التصنع أحـيانًا فيـما يقـول لأنه كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور، فإن تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشـعر. كمـا قالوا أن السلطان أمره أن يـعارض قطعًا كـان يغنى بها، واستحسن ألحانهـا، فأنشأ أبياتًا كأنها صادرة من عاشق مـتيم، وضمنها مدح السلطان. فقال:

obeikandl.com

يقصر قربك ليلى الطويلا ويشفى وصالك قلبى العليلا
وإن عصفت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا
كما أننى إن أطلت العثار ولم يبد عذرى وجهًا جميلا
وجدت أبا القاسم الظافر الـ ـمؤيد بالله مولى مقيلا
لأقلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا

وفى بعض كلامه، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعانى التى قيلت فى العشق، فينظمها ويلبسها ثوبًا جديداً وكأنها له، وقد برع براعة عظيمة فى ذلك كما قال:

يا غزالا أصارنى موثقًا فى يد المحن
إننى مذ هجرتنى لم أذق لذة الوسن
ليت حظى إشارة منك أو لحظة تعن
شافعى يا معذبى فى الهوى وجهك الحسن
كنت خلوا من الهوى وأنا اليوم مرتهن
كان سرى مكتما وهو الآن قد علن
ليس لى عنك مذهب فكما شئت لى فكن

وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره، خفيف الروح عذب الألفاظ سهل الأسلوب.

أما نونيته التى أرسل بها إلى ولادة وبثها كثيراً من شعوره وآرائه المختلفة. فهى على شهرتها وجمالها ككل شعرة ولذلك لم نذكرها.

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برسالتيه الجدية والهزلية. أما الأولى فهى التى كتبها فى سجنه يستعطف بها ابن جهور، وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهكم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته فى غرامه.

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال، ولاحتوائهما على كثير من الأسماء التاريخية والأمثال العربية، واقتباس أبيات الشعر معروفة وقعت فى صوغ الكلام وكأنها عملت من أجله، أو قيست على سمته. وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته، ولا من الهين أن يخوض الإنسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه، ويحفظ نفسه من الضلال فى نواحيه ويميز بين الجيد وغيره، ويختار ما يناسب المقام، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ثم يصوغ ذلك كله فى قالب ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ويمخضه كما يمخض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر.

إن الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار فى التأليف المبتدأ، وكلما قرب إلى القارئ الأسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه، شعر بسعة اطلاع الكاتب، وأعجب به وكبرت فى نفسه منزلته. وكلما فاجأه اسم لم يكن يخطر له ببال، أو رأى كان بعيدًا عن ذهنه، أو تلميح إلى قصة لا يظن أن تذكر فى مثل هذا الكلام، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع، أو مثل اتعظ به، أو ذكر رجل شهير يمجده، أو نكتة تسر بها نفسه، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بذكرها، راد أعجابه بالكاتب وما كتب، ورأى أن كل إنسان غير على ذلك، وأن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه. كل ذلك

فى نثر ابن زيدون وهو من دواعى الإعجاب بأسلوبه فى رسـائله. فقد عرف كيف يأتى فى كـتاباته بالتناسق فى المعانى والألفاظ، بل عـرف أن يأتى بهذا التناسق فى التأليف والجمع وكيف يتـصيد كلام غيره ويرصفه رصـفًا جميلا، كما أمـكنه أن يرسم لنفسه منهجًـا جمع فيه كل مـعلوماته، واختار منـها ما يناسب حاجته وموضوعه، فكانت رسائله أنيقة جميلة، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجـر والحجر، والمصور الفنان الذى يؤلف بين اللون واللون.

ولقد حاول ابن زيدون فى رسالتيه الوصول إلى غرضه، فلم يدع وسيلة مـا يجسم بهـا المعنى فى نفس القـارئ لتنهال عـليه المعـانى ويكون غرضـه أوضح، ورأيه أظهر، إلا فـعلها. فكل ما ذكره من الأمـثلة المقتبسـة والمعانى المختارة قصد به توضيح ما يريد.

ففى رسالته الجدية أراد أن يستعطف ابن جهور، ويبرئ نفسه مما اتهم به وينكل بأعدائه. فبدأ رسالته بالاستـعطاف وهو يستذل نفسه تارة، ويمدح ابن جهور ويظهر إخلاصه له ويتملق إليه أخـرى. ويعتذر فيما وقع منه فى حقه، ثم يبين له شدة ألمه من شماتة أعدائه فقال:

"يا مولاى وسـيدى الذى ودادى له، واعتـمادى عليه، واعـتدادى به، وامتدادى منه، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم، وارى زند الأمل، ثابت عهد النعمـة. إن سلبتنى أعزك الـله لباس نعمـائك، وعطلتنى من حلى إيناسك، وأظمأتنى إلى برود إسـعافك، ونفضت بى كف حـياطتك، ,غضضت عنى طرف حمـايتك، بعد أن نظر الأعـمى إلى تأميلى لك، وسـمع الأصم ثنائى عليك، وأحسن الجـماد باستحـمادى إليك، فلا غرو قـد يغص الماء شاربه،

ويقتل الدواء المستشفى به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمنى فى أمنيته، والحين قد يسبق جهد الحريص.

كل المصائب قد تمر على الفتى   وتهون غير شماتة الأعداء

وأنى لأتجلد، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع. فأقول: هل أنا الأيد أدماها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفى ألصقه بالأرض صاقله، وسمهرى عرضه على النار مثقفة، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا   فليقس أحيانًا على من يرحم

ثم أخذ يتعلل بالآمال، ويضرب فى ذلك الأمثال، ليسلى نفسه ويهدئ منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو، ويحمده على كل شىء، كما يحمد الله على السراء والضراء. فقال:

"هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع. ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سيبه، أو تأخر غير ضنين غناؤه فأبطأ الدلاء فيضًا أملؤها وأثقل السحائب مشيًا أحلفها، وأنفع الحيا ما صادف جدبًا، وألذ الشراب ما أصاب غليلا، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب. له الحمد على اهتباله، ولا عتب عليه فى اغتفاله.

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدًا   فأفعاله اللائى سررن ألوف

ثم وقف موقف المذلة وكأنما يسمع الإنسان بكاءه فى كلامه، واستصغر ذنبه فى ساحة عفو سيده، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة، فقال:

"وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك؟ والتحامل الذى لم يف به احتمالك. لا أخلو أن أكون بريئًا فأين العدل؟ أو مسيئًا فأين الفضل؟

ألا يكن ذنب فعد لك واسع أو كان لى ذنب ففضلك أوسع

فهبنى مسيئًا كالذى قلت طالبًا قصاصًا فأين الأخذ يا عز بالفضل

حنانيك. قد بلغ السيل الزبى، ونالنى ما حسبى به وكفى، وما أرانى إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لى نوح اركب معنا، فقلت سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء، وأمرت ببناء صرح لعلى اطلع إلى إله موسى، وعكفت على العجل، واعتديت فى السبت، وتعاطيت فعقرت، وشربت من النهر الذى ابتلى به جيوش طالوت . . . "

والعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه الشديد. ثم أخذ بعد ذلك يبرئ نفسه، ويعجب من سيده الذى يصغى إلى أعدائه، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك، وأخذ يلوم ابن جهور لوما لا يظهر إلا من خلال عباراته، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول:

"فكيف ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح، ونبأ جاء به فاسق، وهم الهمازون المشاءون بنميم، والشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا، والغواة الذين لا يتركون أديمًا صحيحًا . . .

والله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية إليك، ولا ناصبت لك بعد التشيع فيك، ولا أزمعت يأسًا منك، مع ضمان تكلفت

به الثقة عـنك، وعهد أخذه حسن الظن عـليك. ففيم عبث الجـفاء بأذمتى، وعاث العـقوق فى مواتى وتمكن الضـياع من وسائلى. ولم ضـاقت مذاهبى وأكدت مطالبى؟ وعلام رضيت من الركب بالتـعليق بل من الغنيمة بالإياب؟ وأنى غلبنى المغلب وفجر علـى العاجز الضعيف، ولطمتنى غـير ذات سوار؟ وما لك لم تمنع منى قـبل أن أفترس وتدركنى ولما أمزق، أم كـيف لا تتضرم جوانح الأكفاء حسداً لى على الخـصوص بك، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة فى الكرامة عليك؟

ثم ذكره بإخلاصه له، ومدحه إياه، وأخـذ يرجع إلى استعطافه ويملقه فقال:

"وقد زاننى رسم خدمتك، وزهانى اسم نعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى سماطك، وقمت المقام المحمود فى بساطك.

ألست الموالى فـيك غـر قـصـائد   هى الأنجم اقتادت مع الـليل أنجما
ثـناء يـظـن الروض مـنـه منـورا   ضحى ويخـال الوشى فيـه منمنما

وهل لبس الصباح إلا برداً طرزته بفضـائلك؟ وتقلدت الجوزاء إلا عقداً فصلته بمـآثرك؟ واستملى الربيع إلا ثناء ملأته فى مـحاسنك؟ وبث المسك إلا حديثًا أذعتـه فى محامدك؟ ما يوم حليمة بسـر. وإن كنت لم أكسك سليبًا، ولا حليـتك عطلا، ولا وسمـتك غفـلا. بل وجدت آجرًا وجـصًا فـبنيت، ومكان القول ذا سعـة فقلت. حاشا لك أن أعد من العاملة النـاصبة، وأكون كالذبابة المنصوبة تضىء للنـاس وهى تحترق، فلك المثل الأعلى وهو بى وبك أولى".

ثم جاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى، فبين له أن مثله لا يصير على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام مستأنسًا بأدبه وفضله. فقال:

"ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أتحول إذا بلغتنى الشمس ونبابى المنزل، وأصفح عن المطامع التى تقطع أعناق الرجال، فلا استوطئ العجز، ولا أطمئن إلى الغرور. ومن الأمثال المضروبة خامرى أم عامر. وإنى مع المعرفة بأن الجلا سبا، والنقلة مثلة.

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى   مصارع مظلوم مجرا ومسحبا

وتدفن منه الصالحات وإن يسىء   يكن ما أساء النار من راس كبكبا

عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه، والخليط لا يتوقع زياله، والنسيب لا يخفى، والجمال لا يجفى. ثم ما قران السعد للكواكب أبهى أثرًا، ولا أسنى خطرًا من اقتران غنى النفس به، وأنتظامها نسقًا معه، فإن الحائز لها، الضارب بسهم فيهما، وقليل ما هم، أينما توجه ورد منهل بر، وحط فى جانب قبول، وضوحك قبل إنزال رحله، وأعطى حكم الصبى على أهله.

وقيل له أهلا وسهلا ومرحبا   فهذا مبيت صالح ومقيل

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما يظن فى هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه. فأخذ يلطف من حدته، ويسكن من هياجه، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شىء لديه فى الحياة. فقال:

غير أن الوطن محبوب، والمنشأ مألوف، واللبيب يحن إلى وطنه،

حنين النجيب إلى عطنه، والكريم لا يجفو أرضًا فيها قوابله، ولا ينسى بلدة فيها مراضعه، قال الأول:

أحب بــلاد الله مــــا بين منــعج   إلى وسلمى أن يصــوب ســحابهــا

بلاد بهـــا حل الشـــبـــاب تمائمى   وأول أرض مس جــلدى ترابهــــا

هذا إلى مغالاتى بعقد جوارك، ومنافستى بلحظة من قربك، واعتقادى أن الطمع فى غـيـرك طبع، والغـنى ممن سـواك عنا، والبـدل منك أعـور، والعوض لقاء، وكل الصيد فى جوف الفرا.

وإذا نظرت إلــى أمــيـــرى زادنى   ضـنا نـظـرى إلى الأمــــــــراء

ثم أخذ يقوى أمله فى إجابة طلبـه، ويضرب الأمثال فى ذلك، ويمدح ى جوار سيده بقوله:

"أعيذك ونفسى من أن أشيم خلبا وأستـمطر جهاما، وأكرم غير مكرم، وأشكو شكوى الجـريح إلى العقبـان والرخم، فمـا أبسست لك إلا لتـدر، وحركت لك الحـوار إلا لتحن، ونبـهتك إلا لأنام، وسريت لك إلا لأحـمد السرى لديك، وإنك إن سنيت عقد أمرى تيسر، ومتى أعذرت فى فك أسرى لم يتعذر، وعلمك محيط بأن المعروف ثمـرة النعمة، والشفاعة زكاء المروءة، وفضل الجاه بعود صدقه.

وإذا امــرؤ أهـدى إليك صنيــعـة   من جــاهــه فكأنهــا مــن مــاله

هذا أكثر ما فى هذه الـرسالة الجدية. وأعظم ما فيها تألـيفها الذى يرى من خـلاله تلك النفس الحـائرة المضطربة، التى تـهيج مـرة وتسكن أخـرى، وتجمـد أحيـانًا ثم ترجع وتلين، وكـأنما الكاتب فى نزاع مسـتمـر بين نفـسه

وأهــوائه، أو كــأنه هو ونفســه قرنان: يشــتد كل منهــما عنــدما يخــاف قوة صاحبه.

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ إذا وقف على كثب ونظر إلى حركــات نفســه وهو يكتب أو يفكر فى هذه الرســالة. يرى نفسه الأبــية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل، ويرى نفسه المتهكمة، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التى تستحق مــثل عقوبته، لا يريد أن يقول هذا ظلم، ولكن يريد أن يقول هذا حمق وخــرق فى الرأى. ويرى نفسه الكئيبة التى أخــمدتها الأكدار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتتملق. يرى الإنسان كل ذلك فى هذه الرسالة. ومن هنا جــمالها وإبداعــها. لا ما بهــا من الأسلوب البليغ أو العبارات المختارة لا غير.

أما رسالته الثانية التى كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة. فقد دل فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبــار، وعلى باع أوسع فى الهجاء. لأنه أقذع فى ذم ابن عبدوس إقداعًا، وتهكم به تهكمًا لا مثيل له، حتى أنه ليخيل إلى الإنســان أنه جمع كل مــا يمكن أن يقال فى الذم والتــهكم وأفرغــه على ابن عبدوس واستعمل أسلوبًا جميلا خلابًا يدل على تمكنه من التصرف فى الكلام ومعرفــة امتلاكه عقول القــراء، لأن هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقــتباس فيــها، الذى يستــغرق أربعة أخــماسها أو أكــثر، وعلى ما فــيها من الأمــثال المعروفة والأبيات المشهورة، ولا ما يشعــر بالاستهجان والابتذال. على أن بها شيــئًا كثيــرًا من تلك العيوب، فــقد ذكر أكــثر من خمســين اسمًا لمشــهورى الرجال، سردها سردًا، وكان يكفى عشــرها، وأكثر أيضًا من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغوًا. ولكنه ستر كــل ذلك ببراعته فى الصناعة. وليس أدل

على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة. فقد ابتدأها بسفاهة نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال:

"أما بعد أيها المصاب بعقله. المورط بجهله. البين سقطه. الفاحش غلطه العاثر فى ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره. الساقط سقوط الذباب على الشراب. المتهافت تهافت الفراش على الشهاب. قال العجب أكذب. ومعرفة المرء نفسه أصوب. وإنك راسلتنى مستهديًا من صلتى ما صفرت منه أيدى أمثالك. متصديًا من خلتى لما قرعت دونه أنوف أشكالك. مرسلا خليلتك مرتادة، مستعملا عشيقتك قوادة. كاذبًا نفسك أنك ستنزل عنها إلى. وتخلف بعدها على.

ولست بأول ذى همة دعته لما ليس بالنائل

ولاشك أنها قلتك إذا لم تضن بك. وملتك إذا لم تعز عليك. فإنها أعذرت فى السفارة لك. وما قصرت فى النيابة عنك. زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه. والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه. حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه. وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه. وأن قارون أصاب بعض ما كنزت. وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك . . . "

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء. ثم أقذع فى الذم وأفحش فى صفاته فقال:

"وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ملؤها حبيبها حسن فيها من تود. وكانت إنما حلتك بحلاك، ووسمتك بسيماك. ولم تعرك شهادة . . ولم تكن كاذبة فيما أثنت له عليك، فالمعيدى تسمع به خير من أن تراه.

هجين القذال، أرعن السبال. طويل العنق والعـلاوة. مفرط الحمق والغباوة. جافى الطبع. سىء الجابة والسمع. بغيض الهيـئة. سخيف الذهاب والجيئة. ظاهر الوسـواس. منتن الأنفاس. كثـير المعـايب. مشـهور المثـالب. كلامك تمتمة. وحديثك غمغـمة. وبيانك فهفهة. وضحكك قهـقهة. ومشيك هرولة، وغناك مسألة. ودينك زندقة. وعلمك مخرقة

مساو لو قسمن على الغوانى　　لما أمهـــرن إلا بالطـــلاق»

واستـمر على هذا النحو إلى آخـر الرسالة يضرب الأمـثال للاستـهزاء والتهكم. ولـقد كشف ابن زيدون فى هذه الـرسالة عن نفس حقـودة محـبة للانتقام وأنه شديد الحفيظة، ودل على غلظة فى طبعه، وخشونة فى أخلاقه. مع ذلك فهى رسالة تمتاز بأسلوبهـا. وتناسق عباراتها. ولعل ابن زيدون أخذ هذا الأسلوب عن الجاحظ فى بعض رسائله، كما فى رسالة التربيع والتدوير.

* * *

obeikandl.com

أحمد بن عبد ربه[١]

عاش ابن عبد ربه فى أيام نضارة دولة بنى أمية فى الأندلس، زمن عبد الرحمن الناصر، وكان أكرم الناس لديه ولدى ولى عهده الحكم، واشتهر ذكره بما كان له من العلم والفضل. تعلم فى قرطبة قاعدة العلوم إذ ذاك. ودرس جميع الفنون العربية، ولا سيما علوم الأدب، حتى أصبح إمامًا فيها، وكان محبًا للاطلاع فصار أهل زمانه، وأكثرهم معرفة بآداب العرب ولا سيما التاريخ والنوادر والملح. وكان فى أول أمره ككل الأدباء والظرفاء الذين يميلون إلى اللهو فكان كثير من شعره فى صباه شعرًا رقيقًا غزليًا[٢] وقد رجع

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب كان جده من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل ثانى خلفاء بنى أمية بالأندلس. ولد فى سنة ٢٤٦ هـ وتوفى سنة ٣٢٨ هـ ودفن بقرطبة بعد أن عاش ٨٢ سنة. ذكره ابن خلكان فى الجزء الأول. وياقوت الحموى فى كتابه معجم الأدباء فى الجزء الثانى، والضبى فى كتابه بغية الملتمس ص ١٣٧. وذكر فى عدة مواضع من نفح الطيب ولا سيما فى الجزء الثانى، وفى الجزء الأول من يتيمة الدهر طائفة من شعره.

(٢) شهد له المتفى بهذا. رووا فى ذلك ذكره صاحب نفح الطيب فى الجزء الثانى وياقوت فى كتابه معجم الأدباء جزء ثانى أنه اجتمع مع أبى الطيب فى مسجد عمرو بن العاص أحد الأدباء ففاوضه قليلا ثم قال أنشدنى المليح الأندلسى يعنى ابن عبد ربه فأنشده:

يا لؤلؤ يسبى العقول أنيقًا ... ورشا بتعذيب القلوب رفيقًا
ما أن رأيت ولا سمعت بمثله ... دارًا يعود من الحياء عقيقًا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه ... أبصرت وجهك فى سناه غريقًا
يا من تقطع خصره من رقة ... ما بال قلبك لا يكون رقيقًا

فلما أكمل إنشادها استعادها ثم صفق بيديه وقال: يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوًا.

عن لهوه فى شيخوخته وتاب عما فعله فى أيامه الماضية. وقالوا أنه عمل على أعاريض شعره الذى قاله فى صباه أشعاراً فى الزهد وسماها الممحصات.

وقال عنه صاحب اليتيمة: "أحد محاسن الأندلس علماً وأدباً ونبلا. وشعره فى غاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة" وأورد له طائفة من شعره.

والحق أن مقطوعاته الشعرية فى الغزل والوصف من أرق الشعر المعروف فى ذلك وأحسنه. وأجمل شعره فى هذا النوع، وكل هذا من قبيل الصناعة وجب الكلام الجميل لأنه كان من الذين يميلون إلى قول الشعر ونظم الكلام، لا ممن خلقوا شعراء، بل هو أديباً أكثر منه شاعراً. وإنما جاءه الشعر من كثرة حفظه واطلاعه وامتلائه بأقوال الشعراء. وكان بطبيعته ميالا إلى الرقة، فانحدر إلى قول الشعر الرقيق، وأغرب بعض الأغراب فيه ككثير ممن يسميهم الأدباء شعراء. فهو رقيق الذوق حسن الديباجة.

وكثير من كلامه أبيات قليلة تدل على أنه كان شغوفاً بقول الشعر ولكنه شغف فنى. حتى لقد يقول البيتين أو الثلاثة فيعرف كيف يختار الألفاظ والمعانى المرقصة، وكأنما يشرب الإنسان خمراً لا يقرأ شعراً. أو كأنما انفتح أمامك منظر جميل، أو لحظة الحياة اللذيذة. أو كأن الكأس وما فيه والحبيب وجماله كل شىء فى الحياة. كما قال:

اشرب على المنظر الأنيق ... وامزج بريق الحبيب ريقى
واحلل وشاح الكعاب رفقاً ... خوفاً على خصرها الرقيق
وقل لمن لام فى التصابى ... خل قليلا عن الطريق

وقد أجاد فى هذا النوع من الغزل، كقوله:

بزمـــام الـهـــوى أمـت إليـــه ... وبحكم الـعـقـــار أقـضى عليـه
بأبـى من زهـى علـى بوجـــــه ... كـــان يـدمى لما نـظرت إلـيـــه
كلمـــا علنى مـن الراح صـرفًــا ... علنى بالـرضـاب من شـفـتـيـه
ناول الكأس واســتـمــال يلحظ ... فـــســقـتنى عـيـناه قـبـل يديه

كـذلك كان رقـيقًـا فى شعـره ومـيالا إلى الرقـة فى كل شيء، وإلى الابتكار فى المـعـانى والأسـاليب. فــقـد قـالوا عنه، ورواه ابـن بسـام فى "الذخـيرة" وابـن خلدون "فى مقـدمـتـه": إنه أول من سبـق إلى اختـراع الموشحات.

ولقد كان يصف مواقف العشاق ومـحادثتهم ويصور ذلك بشكل ساحر خلاب وعبارات جذابة. كقوله:

ودعـــــتنى بزورة واعـــــتناق ... ثم نادت مـــتى تكون الـتــلاقى
وبدت لى فـأشـرق الصبح منهـا ... بين تـلك الجـيـــوب والأطواق
يا سـقيم الجـفون من غـير سـقم ... بين عـيـنيك مـصـرع العـــشـاق
إن يـوم الفــــــراق أفـظع يـوم ... ليـــتنى مـت قـــبل يوم الفـــراق

وله قصائد طويلة فى العقد الفريد.

وأفضل مـا جاء به ابن عبـد ربه، وعد من أجله أكـبر أدباء الأندلس، كتابه الشهـير "العقد الفريد" الذى هو من أمهـات كتب الأدب العربية، وهو كتاب فـذ بين هذه الكتب جرى فى تأليفه على أسلوب لـم يسبق إليه. وهو

تقسيمه إلى عقود وجواهر، خص كلا منها بكلام فى موضوع خاص واستوعب هذه الموضوعات بقدر ما سمحت له مباحثه، فجاء كتابًا وافيًا لمن يريد أن يطلع على ما قبل فى الأدب العربى: من أخبار وقصص ورسائل وكل أنواع النثر والشعر: من كلام الأعراب والمستعربين. ومن رسائل أدبية وفنية، وكلام فى السياسة والملك والوعظ والفكاهات والحكم والنوادر. ونقل شيئًا عن بعض الأمم الأخرى مما كان معروفًا فى كتب الجاحظ وغيرها. وأودعه كثيرًا من كلامه. وهو مع هذا كتاب سهل خفيف الروح جم الفائدة، أسهل تناولا من غيره وأدل فى جملته على أدب صاحبه ورقة ذوقه فى الاختيار. وفى هذا الكتاب من مسائل التاريخ ما ليس فى غيره، ويكفى الاطلاع عليه للوقوف على شىء عظيم من الأدب العربى وعقول العرب ونفسيتهم. ومعظم الكتاب، أو كله من مختار كلام الناس، وقد ذكر المؤلف ذلك فقال:

"وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر ولب اللباب. وإنما لى فيه الاختيار وحسن الاختصار. وفرش لدور كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعب من تأليفه ... وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة فى فنون الأخبار، ولا جامعة لجمل الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافيًا جامعًا لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار فى معانيها وتوافقها فى مذاهبها. وقرنت بها غرائب من شعرى ...

وقد أخذوا على المؤلف أنه لم يذكر شيئًا فى كتابه عن أحوال بلاده ولا اقتبس فيه من أهل بلده. وقالوا أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فلما حصل عليه وتأمله قال هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شىء من أخبار بلادهم وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه ورده، وعابه فى ذلك أبو على الحسن محمد التميمى القيروانى صاحب الرسالة التى كتبها إلى أبى المغيرة بن حزم.

* * *

obeikandl.com

ابن دراج القسطلى[1]

هو أبو عمر أحمد بن دراج القسطلى. آدب أهل زمانه، وأشهر من عرف فى عصره بطلاقة اللسان وبالغة الشعر. قال عنه الثعالبى فى يتيمة الدهر: "بلغنى أن القسطلى كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام".

ولد ابن دراج سنة ٣٤٧ هـ وتوفى سنة ٤٢١ هـ وأدرك عز الدولة الأموية، لأنه ولد فى آخر أيام عبد الرحمن الثالث وعاش فى عصر الحكم ابنه، ذلك العصر الذى بلغت فيه حضارة العرب منتهاها، وفى عصر المنصور بن أبى عامر، وكان كاتبه وشاعره وأكبر شعراء دولة بنى عامر كما يقولون، بل قالوا أنه كان آخر شعراء هذا العصر المجتهدين. واشتهر ذكره فى الشام والعراق[2].

كان ابن دراج يعيش بشعره، فكانت صناعته قول الشعر ومدح الملوك. وناهيك بمن تكون هذه صناعته، يفد على من يعرف ومن لا يعرف، ويمدح كل الناس ويقول غير ما يعتقد. ولعل تهافته على المدح وتسابقه فى هذا الميدان ووقوفه بين أيدى الملوك والأمراء هو الذى أكسبه هذه الشهرة. على أن عصره كان عصر الشعراء المداحين، لأنه مبدأ الاضطراب بخروج الأمر من يد

(١) راجع ابن خلكان جـ ١ والذخيرة جـ ١ وفهرس الجزء الثانى من نفح الطيب طبع أوروبا وبغية الملتمس ص ١٤٧.

(٢) ويقول فيه ابن بسام أنه كان فى وقته لسان الجزيرة شاعرًا وآخر حامل لواء شعرائها ومدحه كثيرًا وقال عنه ابن خلكان أنه من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين وكان يجيد ما ينظم ويقول: وقال أن له ديوانًا فى جزأين.

بنى أمية وتألب الناس على دولة بنى عامر، والاشتغال بالدسائس. ذكر مؤرخ الأندلس الشهير أبو حيان ابن دراج بقوله: "أبـو عمر القسطلى سابق الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين، كان ممن طوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء واضطرته على النجـعة فاستقرأ ملوكها أجمـعين . . . يهز كلا بمدحه، ويستعينه على نكبته، وليس منهم من يصغى له، ولا يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله وهو يخبطهم . . بمقوله، فيصمون عنه. إلى أن أناخ بساحـة منذر بن يحيى أمـير سرقـسطة فألقى عـصا سيـره عندما بوأه، ورحب به وأوسع قراه ولم يزل عنده وعند ابنه بعده.

أما شعره فـهو فى جملته شعر من يتردد عـلى موائد الأدب ليتذوق من كل لون طعمًـا، ويجمع هذه الطعوم ليـجعل له مائدة خـاصة به يدعو إليـها الآكلين وكأنما يأكلون من مـائدته. حتى أن بعض الباحـثين استدل بقـصيدته التى مـدح بها المنصور بـن أبى عامر علـى تقليد الشـعر القديم. ويـقول أنه عـارض بها قـصيـدة أخرى فى المدح علـى أنه أجاد إجـادة عظيمـة فى هذه القصيـدة التى دلت على براعته فى التقليد. ولعلـه أراد أ، يبين للمنصور أنه أفضل ممن مدحه ذلك الشاعر، وأن مادحه خير من مادح ذاك. والقصيدة فى غاية السبك وحسن البـيان، وهى من أجمل قصائده. تشبـه الشعر القديم بما فيـها من الروح البـدوية التى تدل على أخـلاق العرب من الشـهامـة وصدق العزيمـة، وعزة النفس والجلد والصـبر على تحمل الآلام، ومـحاطبـة النساء ووصف الوداع. حتى لقـد يظهر من عباراتـها أنها من كلام أهل البـدو لمتانة أسلوبها ونزعـتها العـربية الخالصـة، وكأنها صـادرة من عربى يجوب القـفار وتقطع الصحارى أعناق مطاياه. ويلفـحه الهجير فيحـرق وجهه. وتهب عليه

النكباء فيستنشقها وكأنه يستنشق الموت. ويتلظى حرارة الرمضاء بقدميه وكأنما يطأ حظائر الجحيم. يقطع المفاوز طولا وعرضًا. وكأنه فى بحر يزخر. مياهه الرمال وأمواجه السراب.

يكاد يلمح الإنسان من كلامه صورة متقنة الصنع لتلك الصحارى التى يسمع بذكرها، ويظن أنه أمام منظر من تلك المناظر البعيدة الرهيبة. فإذا امتلأت نفسه من هيبة هذه القفار وهول الأسفار وهبوب الرياح، سمع فى كلامه، ما هناك من زئير الأسود وأصوات الحيوانات المفترسة وكأنه يرى الشاعر يعانى الخلاص من تلك الأهوال ويحاول الفرار، من مخالب الزؤام. ولم ينس وهو يخوض غمار هذه الأخطار وصف الكواكب فى هذا الليل البهيم والقصيدة هى:

ألم تعلمى أن الثواء هو التوى ... وأن بيوت العاجزين قبور
تخوفنى طول السفار وأنه ... لتقبيل كف العامرى سفير
ذرينى أرد ماء المفاوز آجنا ... إلى حيث ماء المكرمات نمير
فإن خطيرات المهالك ضمن ... لراكبها أن الجزاء خطير

ومنها فى وصف وداعه لزوجه وابنه الصغير

ولما تدانت للوداع وقد هفا ... بصبرى منه أنه وزفير
تناشدنى عهد المودة والهوى ... وفى المهد مبغوم الندا صغير
عيينى بمرجوع الجواب ولفظه ... بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت ... له أذرع محفوفة ونحور

فكل مفدات الترائب مرضع وكل محياة المحاسن ظيز
عصيت شفيع النفس فيه وقادنى رواح لتدآب السرى وبكور
وطار جناح البين بى وهفت بها جوانح من ذعر الفراق تطير
لئن ودعت منى غيورًا فإننى على عزمتى فى شجوها لغيور
ولو شاهدننى والهواجر تلتظى على ور قراق السراب يمور
أسلط حرا الهاجرات إذا سطا على حر وجهى والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهى لوافح واستوطى الرمضاء وهى تفور
وللموت فى عين الجبان تلون وللذعر فى سمع الجرىء صفير
لبان لها أنى من البين جازع وأنى على مض الخطوب صبور
ولو بصرب بى والسرى جل وعزمتى وجرسى لجنان الفلاة سمير
واعتسف الموماة فى غسق الدجى وللأسد من غيل الضباب زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها كواكب فى خضر الحدائق حرر
ودارت نجوم القطب حتى كأنها كؤوس مهى والى بهن مدير
وقد خيلت طرق المجرة أنها على مفرق الليل البهيم قتير
وقد أيقنت إلى المنى طوع همتى وإنى بعطف العامرى جدير

هذا فى جملته أسلوب عربى ضيم، من أمثلة الشعر العربى الخالص من شوائب التكلف. ولكنه يدل على أن ابن دراج لم يكن شاعرًا فطريًا يقول الشعر عن شعور صحيح أو دافع نفسى، وإنما هو مقلد بارع، حتى فى المعانى التى لم تشعر بها نفسه، وفى وصف الأمكنة التى لم يرها إلا فى كلام

الشعراء. فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد.

ومما قاله فى قصيدة مدح يذكر فيها حضور صاعد اللغوى من بغداد إلى الأندلس قوله:

وأهدت لنا بغداد ديوان علمها ... هدية من والى وتحفة من حيا
فكانت كمن حيا الرياض بزهرة ... وأهدى إلى صنعاء من نسجها وشيا
ويبكى ملوك الأرض من كان مفخرًا ... إذا امتثلوا من بعض أفعاله شيا
وحسب رواة العلم أن يتدارسوا ... مآثره حفظًا وآثاره وعيا
إذا لمعت زرق الأسنة حوله ... كإضرام نيران الهموم حواليا
ولد لاذ أبطال الجلاد بعطفه ... كما لاذ أطفال الجلاد بعطفيا
وما قصرت عنه رماح عداته ... كما قصرت عنهم رياش جناحيا
فيا لك من ذكرى سناء ورفعة ... إذا وضعوا فى الترب أيمن شقيا
وناحت ليالى الدهر منى ميتا ... بآخر أيام دفنت بها حيا
وكان ضياعى حسرة وتندما ... إذا لم يفد شيئًا ولم يغنى شيا
وأصبحت فى دار الغنى عن ذوى الغنى ... وعورضت فاستقبلت أسعد يوميا
فيا عبرتى سحى لعلى مبلل ... بحريك ما انزفت من ماء خديا

إلى آخر ما قال:

وقد أجاد فى أساليب المدح إجادة لا يقدر عليها إلا من انقطع لها. فلقد تجده يمدح مدحًا يحرك الأطماع ويدفع الممدوح إلى الغرور، ويجعله

يعتقد فى نفسه ما ليس أهلا له. وهو يتظاهر له بالتواضع والحمد والشكر، ويجله فوق كل إنسان، حتى كأنه ليس فى خلق الله من يدانيه أو يجازيه فى صفات الكمال.

قال من كلام يمدح منذر بن يحيى:

فلئن تركت الليل فوقى داجيا ... فلقد لقيت الصبح بعدك زاهرا
وحللت أرضًا بدلت حصباؤها ... ذهبًا يرف لناظرى وجوهرا
ولتعلم الأملاك أنى بعدها ... ألفيت كل الصيد فى جوف الفرا
ورمى على رداءه من دونهم ... ملك تخير للعلا فتحيرا
ضربوا قبابهم على فعاذنى ... من كان بالقدح المعلى أجدرا
وكأنما تابعت تبع رافعًا ... أعلامه ملكًا يدين له الورى
وحططت رجلى بين نادى حاتم ... أيام يقرى موسرًا أو معسرا
ولقيت زيد الخيل تحت عجاجة ... يكسو غلائلها الجياد الضمرا
وأتيت بجدل وهو يرفع منبرا ... للدين والدنيا ويخفض منبرا
تلك البدور تتابعت وخلقها ... سعيًا فكنت الجوهر المتخيرا

كل هذا من الكلام السهل الجميل الذى تتسابق إلى الأسماع رنته وحسن سبكه. ولقد جعل ابن دراج كل أغراضه الشعرية المدح، ولكنه ذكر فيه كل خواطره وأفكاره، وكأنه اتخذه وسيلة للتعبير عن آرائه التى لا تخرج عن الشكوى والحقد على الأيام وبعض الآراء المعروفة، ولقد كان يتأثر بالحوادث، ونفسه توحى عليه بأخيلة مظلمة فيقول:

obeikandi.com

ومـن دوننـا آنســـــــات الديـار　　نهـاب الحمى مـوشحـات الطلول
مـغـانى الســرور لبسن الحـداد　　على لابســات ثيـــاب الذهول
خطيبـات خطـب النهى والمهـور　　مـهـــارى علهـا رحـال الـرحـيل
فـــمـن حـــرة حليت بـالجـلال　　وعـــذراء نـصت بنص الزمـــيل
ولا حلى إلا جـــمـــان الدمـــوع　　تسـيـل على كل خـــد أســيل
فـيبـدلن من طول خـفض النعـيم　　بشق الحــزون ووعث الســهـول
ومن قـمـر الليل تحت الحـجـال　　بهـــول الســرى تحت ليـل طويل

وقد جرى فى وصفه على الطريقة الخيـالية المعروفة عند شعراء العرب. كما وصف أسطول المنصور بن أبى عامر. فـقد كان يستطيع أن يتكلم عن عز الدولة، وأن ذلك من آثار تقدمها، ومن وسائل حمايتها، ومن المسائل الحيوية لصيانتها، أو يذكر شيئًا من الآراء الجديـة، أو الاجتماعية أو السياسية. ولكنه لم يقل شيـئًا من ذلك ولم يفكر فى هذا، وإنما كان يفكر فى مـدح الأمير لا غير. ولو أنه كان مدفوعًا بشعور صحيح وأراد أن يمدح عمل الأسطول وهو يعتبره من آلات الدفاع عن وطنه لكان له غير هذا الخيال. ولكنه قال:

تحـمل منه البـحـر بحـرًا من القنا　　يروع بهـــا أمـــواجــه ويهـــول
بكل مـــعـالات الشراع كـــأنهـا　　وقـد حملت أسـد الحـقائق غـيل
إذا سـابقت شـأو الرياح تخـيلت　　خـيـولا مدى فـرسـانهن خـيـول
سحائب تزيجـها الرياح فإن وفت　　أنافت بأجـــيـاد النـعـام فـــيـول
ظبـاء سـهـام مـا لهن مـفـاحص　　وزرق حـــمــــام مما لهن هـديل

سـوا كن فى أوطانهن كـأن سمـا بهـا الموج حيـث الراسيـات تزول

كـما رفع الآل الهـوادج بالضـحى غـداة اسـتـقلت بالخليط حـمـول

أراقم تفــرى ناقع السـم مـالهــا بما حـمـلت دون الغـداة مــقـيل

هذه نظرة تدل على أن ابن دراج وإن لم يكن من الشعراء المبتكرين، أو من أصحـاب الصفات الشـعرية الممتـازة، فهو بـارع فى صناعته مـتين، فى أسلوبه، مادح يجـيد الاختـيار فى اللفظ والمعنى. وله قـصائد كثـيرة وبعض رسائل نثرية، ذكرها صاحب الذخـيرة فى الجزء الأول. وكلها من باب الخيال ونقل معانى غيره فى نظمه ونثره. ومع ذنب يحسبه الأدباء من أكبر الشعراء.

***

المعتمد بن عباد[1]

نشأ المعتمد فى عز أبيه، وترعرع فى أبهة الملك، وورث كثيرًا من صفات والده. فقد كان أبوه نبل الطبع شريف النفس، شجاعًا مهابًا داهية فى

(١) هو أبو القاسم محمد المعتمد على الله بن المعتضد بالله بن عباد صاحب قرطبة وإشبيلية وأشهر ملوك الطوائف.

ولد المعتمد سنة ٣٤١ هـ بمدينة باجة وتوفى فى السجن بأغمات من بلاد البربر سنة ٤٨٨ هـ ومجمل خبره فى ذلك أنه تولى الأمر والحال فى اضطراب وشقاق، والدولة فى ضعف: فقد كان تابعًا لملك الإفرنج يدفع إليه إتاوة سنوية. حتى طبع ذلك الملك فى أخذ بلاد المعتمد وأبى قبول ضريبته. وأرسل إلى المعتمد رسولا، فضرب المعتمد الرسول وقتل من معه. فتأهب ملك الإفرنج للإغارة على قرطبة، فلما علم كبار الناس اجتمعوا إلى أحد القضاة هناك وتشاوروا فيما بينهم لينقذوا بلادهم من شر العدو، واتفقوا على أن يستنجدوا بملك مراكش يوسف بن تاشفين، وأخبروا المعتمد وبينوا له خطورة الحال فوافق على رأيهم وطلب من ذلك القاضى أن يذهب بنفسه لقضاء ذلك. فتوجه وقابل ابن تاشفين وأخبره بخبر المسلمين هناك، وأرسل جيشًا إلى الأندلس، وتقابل هذا الجيش بجيش - المعتمد بن عباد ثم تقابل جيش المسلمين بجيش الإفرنج، فانهزم الإفرنج وفر ملكهم هاربًا، وقوى أمر المسلمين. وقد أبلى المعتمد فى هذه الموقعة بلاء حسنًا، وقاوم مقاومة الأبطال، ولم يبال الموت حتى أنه أصيب بكثير من الجروح وهو ثابت ثبات الواثق بالظفر.

ولقد كان هذا الانتصار العظيم الذى سر به المعتمد بن عباد أعظم سرور فى حياته من أكبر الأسباب لشقائه: لأن يوسف بن تاشفين ذلك البربرى طمح فى بلاد الأندلس ولا سيما عندما اطلع على ما هناك من الأموال والذخائر والمبانى والبساتين وأصناف الأموال وأسباب الترف التى لم يرها فى بلاده. وزاده طمعًا فى ذلك تزيين حاشية تلك البلاد وما فيها حتى كان يسيل لعابه عند ذكرها. واشتد به الطمع والحقد على المعتمد لما رأى من قوته هو وضعف ذاك وانتهزت بطانته هذه الفرصة فأوغروا صدره على المعتمد حتى عزم=

السياسة اتسع الملك على يده، وصارت دولته أكبر دولة إذا ذاك، وكان مع هذا أديبًا فاضلا، كريم الأخلاق ثاقب الذهن حاضر الخاطر، شاعرًا رقيق الذوق حسن الاختيار طلى العبارة، جميل الصورة، بهيج الطلعة، جذابًا بهيئته وشكله، جوادًا كريمًا:

عاش المعتمد بن عباد فى هذه البيئة فاكتسب منها شيئًا كثيرًا، ومال بطبعه إلى الأدب والمجون. فكان كأبيه فى كل صفاته. ولكنه كان أشعر منه وارق ذوقًا وأخف ظلا، وأحب للأدب من أبيه، حتى قالوا أنه لم يجتمع الأدباء والشعراء عند أحد كما اجتمعوا عنده، وناهيك بأمير شاعر من أفضل الشعراء ديباجة، وأرقهم ذوقًا، وأحبهم إلى مجالس الأدب. ألا يكون ذلك من الأسباب التى تساعد على نمو الأدب ورقة الشعور والاهتمام بالأدباء[1].

وقد كان المعتمد يعيش عيشة ترف وثراء[2] ميالا لأن يصرف وقته فى

=على الانتقام منه فحاصره وهو بإشبيلية. ولما علم المعتمد بذلك أخذ يدافع عن نفسه وبلده وجالد مجالدة لا تعرف. وأظهر من البسالة والشجاعة ما اشتهر به. ولكن ماذا يعمل إنسان رقيق أمام هؤلاء الأجلاف؟ على أنه ألقى بنفسه على الموت وهو ثابت الجأش. والناس فى رعب وفزع يترامون فى الأنهار من شرفات الأسوار، إلى أن نزل القضاء بهذا البلد ودخلها البربر سالبين ناهبين آخذين كل شىء رأوه ووجدوه. وقبضوا على المعتمد وأهله بعد أن نالوا من أسرته وحاصروا ولديه المأمون والراضى وقتلوهما وأرسل المعتمد مقيدًا مع أهله إلى بلاد مراكش بعد أن شيعه أهل بلده ومحبوه بالبكاء والنحيب وأرسله ابن تاشفين إلى مدينة أغمات وبقى فيها إلى مات سنة ٤٨٨ هـ.

(١) راجع سؤاله عن كلمة مهب فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء ثانى صفحة ٤٧٣.

(٢) قالوا أنه أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب فكان وزنهما سبعمائة مثقال وأهداهما إلى فتاتين. وحضر أبو العرب الصقلى عند المعتمد وقد حمل إليه حمولة وافرة من قراريط الفضة فأمر له بكيس منها وكان بين يديه تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللآلئ فقال له أبو العرب معرضًا ما يحمل هذين الكيسين إلا جمل فتبسم المعتمد له به فارتجل شعرًا فى ذلك وقالوا أن هذا الجمل بيع بخمسمائة مثقال.

اللهو الأدبى ومجون الشعر ومجاراة الشعراء فى قولهم. وكان يعجبه كثيرًا أن يكون شاعرًا وأديبًا بين هؤلاء الأدباء والشعراء، ويجتهد فى أن يقول الشعر فكان حبه لقول الشعر وميله إلى ذلك من الأسباب التى جعلت شعره رقيقًا.

وكان صافى الذهن نقى الذوق، شريف الطبع عليه مسحة من الجلال، عذب الحديث إذا تكلم، حسن الاختيار فى نظم الألفاظ والمعانى، فكان شعره فى جملته رقيق الحاشية صادقًا فى معناه، خاليًا من التكلف، أكثره مأخوذ من حوادث حياته.

فهو صورة من حياته وصفحة من صحفه اليومية. كانت تملى عليه الحوادث فيقول، وتدفعه ميوله أو توخزه آلامه فينفتق لسانه بقول الشعر الجميل الخالى من كل تصنع، أو معنى ليس له أثر فى نفسه، أو خيال لم ينشأ من شعور صحيح. فكان شعره أيامًا من حياته يشمل أوقات سروره ولذاته وساعات محنته وبؤسه. وأجاد فى كل ذلك إجادة تدعو إلى الإعجاب برقة شعره ورقى خياله.

أما مجونه فلم يخرج فيه عن الوصف الجميل والأدب اللائق بمثله. يشعر الإنسان عند تلاوته بخفة روحه وحسن ذوقه، وبراعته فى سهولة الكلام والتعبير عما يرد، بدون تكلف وحسن فى الصناعة وافتنان فى التعبير. وهو كل جمال شعره وقد اكتسب أسلوبه من أساليب زمانه المعروفة عند أكثر الشعراء فى حسن الوصف ودقته.

فقد كان حلو الفكاهة فى جميع أوقاته تثمله الخمر أحيانًا فتزيد من رقة أدبه. ولقد كانت تنزل به عواطفه النفسية من عظمة جلاله فتحمله على مدح جواريه، وبديهته تملى عليه جميل القول. فقد جاءت إليه جارية تسقيه وكان كلفًا بها، إذ لمع البرق فارتاعت فقال:

يروعها البرق وفى كفها برق من القهوة لماع

كل ذلك كان له أثر عظيم فى شعره. وإذا لم يكن المعتمد من كبار الشعراء الذين كانت صناعتهم الشعر وكل ميولهم فى الحياة قول الشعر، ولا من المكثرين، فهو وجه من وجوه الأدباء، وصورة من صور الشعراء الظرفاء عشاق الشعر والأدب. ودليل على ما وصلت إليه حال الأدب فى تلك البلاد، وعلى تأثير الحضارة فى النفوس وتهذيبها الأخيلة والتصور، ورقة الشعور وجمال القول.

كما كتب إلى أبى محمد المصرى يدعوه إلى مجلسه:

أيها الصاحب الذى فارقت عيـ ـنى ونفسى منه السنا والسناء

نحن فى المجلس الذى يهب الرا حة والسمع والغنى والغناء

نتعاطى التى تسمى من اللـ ـذة والرقة الهوى والهواء

فأته تلف راحة ومحيا قد أعدا لك الحيا والحياء

وقال فى ساق وذكر ذلك صاحب قلائد العقيان بقوله:

إنه دخل عليه فى دار المزينة والزهر يحسد إشراق مجلسه، والدر يحكى اتساق تأنسه، وقد رددت الطير شدوها، وجددت طربها وشجوها، والغصون قد التحفت بسندسها، والأزهار تحيى بطيب تنفسها، والنسيم يلم بها فتضعه بين أجفانها، وتودعه أحاديث آذارها ونسيانها، وبين يديه فتى من فتيانه، يتثنى تثنى القضيب، ويحمل الكأس فى راحة أبهى من الكف الخضيب، وقد توشح وكأن الثريا وشاحة، وأنار فكأن الصبح من محياه كان اتضاحه، فكلما ناوله الكأس خامره سوره، وتخيل أن الشمس تهديه نوره، فقال المعتمد:

لله ساق مهفهف غنج … قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى أنا من لطيف حكمته … فى جامد الماء ذائب الذهب

وأما بؤسه وما ألم به فى آخر حياته فقد وصفه وقد نالت منه الآلام وأذابت مهجته، حتى لم يبق من نفسه بقية من الصبر، واستولى عليه الجزع، وكأنما ينظر إلى عزة الماضى، وملكه الزائل فيتمالكه اليأس، ويكاد يقضى على كل ما فى نفسه من شجاعة وبأس، وقد نحله الضعف وملكه البكاء، وذابت نفسه حسرة على ما هو عليه وما أصاب أهله وبنيه من الذل، حتى أصبحوا خدمًا لخدامهم، وقد كانت تذل لهم الجبابرة، وتخدمهم خاصة الناس.

يصف ابن عباد ذلك فى شعره، وكأنك تراه فى أشد ما يكون الرجل من البؤس واليأس، فلا يرجو الخلاص إلا إلى الموت. فقد بلغ من أمره أن أكرم بناته دعاها الحال إلى أن تطلب عزلا من الناس تسد بأجرته بعض مالها. فأدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت شرطة أبيها. وأنفق أن السيدة الكبرى أم بنيه اعتلت وكان الوزير أبو العلاء زهر بمراكش قد استدعاه ابن تاشفين لعلاجه، فطلب إليه المعتمد راغبًا فى علاج زوجته، فكتب إليه الوزير رسالة بإجابة طلبه، ودعا له فيها بطول البقاء. فقال المعتمد فى ذلك:

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى … أسير أن يطول له البقاء
أليس الموت أروح من حياة … يطول على الشقى بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب … فإن هواى من حتفى اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتى … عوارى قد أضر بها الجفاء

خوادم بنت من قد كن أعلى ... مراتبه إذا يبدو النداء
وطرد الناس بين يدى ممرى ... وكفهم إذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال ... لنظم الجيش أن رفع اللواء
ولكن الدعاء إذا دعاه ... ضمير خالص نفع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر ... نوى برا وصاحبك العلاء
سيسلى النفس عن ما فات علمى ... بأن الكل يدركه الفناء

ودخل عليه فى سجنه بناته يوم عيد فى أطمار باليه وحالة بؤس، وكن يغزلن للناس بالأجرة فى أغمات. فلما رآهن المعتمد فى أطمار رثه شعر كأنما تمزقت أحشاؤه وانصدع قلبه. فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا ... فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكًا وكافورا
أفطرت فى العيد لا عادت إساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهيًا ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وهكذا عرف كيف يصدع القلوب بكلامه، وكيف يفتح قلبه ليرى مكنوناته وأبان لنا كيف أن الآلام تدفع بالقلوب إلى الكلام وتجسم المعانى: "دخل عليه وهو فى تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقية

obeikandi.com

عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساور السود، وهو لا يطيق أعمال قدم، ولا يريق دمعًا، إلا ممزوجًا بدم، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير، وفى وسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية، فلما رآه بكى وقال:

قيدى أما تعلمنى مسامًا أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأعظما
يبصرنى فيك أبو هاشم فينثنى والقلب قد هشما
ارحم طفيلا طائشًا لبه لم يخش أن يأتيك مترحما
وارحم أخيات له مثله جرعتهن السم والعلقما

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول فى نفسه من المعانى، ويصف آلامه وصفًا قريبًا من الحقيقة؟ واستعان على ذلك مما رآه من البؤس وآثاره الظاهرة. فذكر حالته وما هى عليه، وذكر أولاده وما يعانونه، ولم يلتجئ إلى الخيال ولا إلى الأحلام. ولكن شعره جميل لأن الحقائق إذا ألبسها الشعراء ديباجة الشعر أصبحت شعرًا جميلا. وليس الشعر الجميل إلا حقائق شعرية.

ولقد كانت تملك ابن عباد عزة نفسه ورفعه شأنه، فيستعذب هذه الآلام ويفضل الاستئثار بها على الخضوع لعدوه، وتملكه الشجاعة وكرم المحتد فيستصغر كل شىء يلاقيه، لأنه إنما خرج إلى القتال بهذه النفس التى يحملها بدون أن يتحصن بشىء سوى قوة بأسه، علام بأنه سيجود بها يومًا ما فى موقف يرى الموت فيه خيرًا من الحياة. نظم ذلك كله بعبارة جميلة مؤثرة. فقال عندما أخذ أسيرًا.

لما تمــاسكــت الدمـــــــوع وتنـهنه الـقلب الـصـــديع

قــالوا الخـضـوع سـيـاسـة فليـبـد منـك لهم خـضـوع

وألأذ من طـعـم الخـــــضـ ـع على فـمى الـسم النقـيع

أن تســــتلـب عنى الـدنا ملكـى وتسلمنى الجـــمـــوع

فـــانقلب بـين ضلوعـــه لم تـسلـم القلـب الضـلوع

لم أســـتلب شـرف الطبـا ع أيسلب الـشـرف الرفـــيع

قــــد رمت يـوم نزالـهم ألا تحـــــــصننى الـدروع

وبرزت ليس سـوى القمـيـ ـص عن الحـشا شىء دفـوع

وبذلت نفـــسى كى تســيـ ـل إذا يســيل بهـا النـجـيع

أجلـى تأخــــــر لم يـكن بهـــواى ذلـى والخــشـــوع

شــم الأولـى أنـا مـنـهـم والأصل تتـبـعـه الـفـروع

وله فى الحنين إلى شلب وقـت إن كان يرتع فى بحـبـوحة العـيش مع صديقه ووزيره ابن عمار كلام سهل رقيق، صادر عن مقروح، وقد فارقه ابن عمار فأرسل إليه يقول:

ألا حى أوطـانى بـشلـب أبا بـكر وسلهن هل عهد الوصـال كما أدرى

وسلم على قصر الشراجيب عن فتى له أبداً شـوق إلى ذلـك القـصـر

منـازل آســـــــاد وبيـض نواعـم فناهيك من غيل وناهيك من خدر

وكم ليلة قـد بـت أنعم جنحـهـا بمخصـبة الأرداف مجد به الخـصـر

وبيض وسمر فاعلات بمهجتى | فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر لهواً قطعته | بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم | نضير كما انشق الكمام عن الزهر

وما قاله وهو يبكى على نفسه:

قد كان كالثعبان رمحك فى الورى | فغدا عليك القيد كالثعبان
قلبى إلى الرحمن يشكو بثه | ما خاب من يشكو إلى الرحمن
يا سائلا عن شأنه ومكانه | ما كان أغنى شأنه عن شأنى
هاتيك قينته وذلك قصره | من بعد أى مقاصر وقيان
من بعد كل عزيزة رومية | تحيكى الحمائم فى ذرى الأغصان

كذلك كانت حسرته على أيامه الماضية، وحالته الحاضرة منبعًا من منابع شعره، هو يتسلى عما ما يتذوق من الآلام. وليس فى البؤس معين غير الشكوى ولا للمنكوب ارتياح لغير أنينه ونظره إلى أيامه الماضية، وإلى تلك اللحظات التى كان ينعم فيها، فترتاح نفسه إلى ذكرها، فيشعر كأنه لا يزال فى نعيمها ولذاتها. فلقد تكون ذكرى السعادة سعادة أخرى فى أوقات البؤس، يتسلى بها البائس فى محنته، فيرى أنه كان وفير الحظ فيها، وأن الدهر يومان، فإذا كان يوم السعادة قد انقضى فإنه لا يزال يذكره. وهكذا تتناوبه الأفكار فيستسلم للقضاء وتخف آلامه وهو يتغنى بحوادث الأيام.

هذه حال ابن عباد فى شعره يبكى فيه ويندب حظه. كما فى قوله:

غريب بأرض المغربين أسير | سيبكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا | وينهل دمع بينهن غزير

مـضى زمن والملك مـسـتـأنس به ... وأصـــبح منه الـيـــوم وهو نفـــور
برأى من الـدهر المضلل فــاســـد ... مـتى صلحت لـلـصـالحـين دهور
أيا ليـت شـعـــرى هل أبيتن لـيلة ... أمــامــى وخلفى روضـة وغــــدير
بمنبـتـــة الزيتـون مـوروثــة العـلا ... تغـنى قــيـــــان أو ترن طيـــــور
بزاهرها السامى الذرى جـاده الحيا ... تشـيـــــر الثريا نــحـونا ونشـــيــر
ويلحظنا الـزاهى وسعـد سـعـوده ... غـيــورين والصـب المحب غـيــور

ولقد كـان كل خاطر يمـر به وكل منظر يراه يذكره شـيـئًـا من آلامه أو حنينه إلى أهله، فينفق لسانه بقول الشعر الذى يمزق القلوب ويذيبها حسرة.

ولما قـتل المرابطون ابنه المأمـون فى قصـر قرطبـة وألقـوا بجسـده على الأرض، ومالوا إلى رندة حيث ابنه الثانى الراضى وقضـوا عليه، قال المعتمد برثيهما، وقد رأى قمرية تنوح، وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغمًا.

بكت إن رأت الفين ضـمـهـمـا وكر ... مساء وقـد أخنى على الفها الدهر
وناحت فباحت واسـتراحت بسرها ... ومـا نطقت حـرفًـا يبـوح به سـر
فمالى لا أبكى؟ أم الـقلب صخرة ... وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحدًا لم يشـجها غيـر فقده ... وأبكى لآلاف عـــد يدهم كـــثـر
بنى صــغــيـــر أو خليل مـــوافق ... يمـزق ذا فــقـــر ويغـرق ذا بحـر
ونجـمـــان زين للزمـان احتـواهمـا ... بقـرطبـة النـكداء أو رندة القـبـر
عــذرت إذ أن ضن جـفـنى بقطرة ... وإن لؤمت نفسى فصاحـبها الصبر
نقل للنجوم الـزهر تبكيهمـا معى ... لمثلـهـا فـلتـــحزن الأنجم الزهر

هذا بعض ما فى نفس المعتمد بن عـباد، وهذا بعض شعره المنبعث من قلبه المقروح. فكان شـاعراً وجدانيًا، ولكن وجدانه امتـزج بالحقائق وحوادث الحياة. فكان شعـره جميلا له علقه بالقلوب، لأن الوجدان والحقـيقة إذا تآلفا فى الشعر وامـتزجا فى ساحة الخـيال، أظهرا الحقيقـة شعراً جميـلا، والشعر حقيقة مرئية فى ثوب خيالى جميل.

* * *

obeikandi.com

الوزير ابن عمار(١)

كان ابن عمار فى أول أمره فقيرًا خامل الذكر، فلم يرد أن يعيش عيشة العامة كـغيره، فقصـد إلى تلك السوق الرائجة، سوق الأدب، وربح فـيها،

(١) هو أبو بكر بن عمار من أسرة يقولون عربية الأصل. وقد عاش إلى سنة ٤٧٩ حيث قتله المعتمد نب عباد بيده. ويظن أنه عمر ٥٠ عامًا.

تأدب على بعض علمـاء قرطبة ككل الأدباء. لأن رواج سـوق الأدب فى تلك الأيام وسهولة مواردها كانت تحمل أمـثال ابن عمار على ورود ذلك المنهل. وقد أراد أن يعيش على متون القوافى ومـصاريع القريض. فحمله ذلك على أن يجيد الشعـر، وكان بطبعه ميالا إلى ذلك فبلغ مبلغ غيره من مشهورى الشعراء.

وقد كانت حياته حياة حركة واضطراب: فـقد كان فى أول أمره يسأل بشعره ليعيش، ويفد على الكبير والصغير ويمدح الأمير والصعلوك طالبًا عطاياهم.

قالـوا عنه . . أنه لم يزل يجول فى الأندلس مـسـترفدًا لا يخص بمدحـه الملوك دون غـيرهم، بل لا يبـالى ممن أخـذ ولا من مدح من ملـك أو سوقـة، وأنه ورد فى بعض سفـراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفـها، فكتب بشعـر إلى رجل من وجوه أهل السوق: فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيرًا ووجه إليه، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز. ثم اتفق أن علت حال ابن عـمار وساعده الجد ونهض البخت، وانتـهى أمره إلى أن ولاه المعتـمد على الله مـدينة شلب وأعمالهـا، فدخل فى موكب ضخم وجملة عبيد وحشم، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين دخلها أيام أبيه المعتضد بالله. فكان أول شىء سأل عنه صاحبه. صاحب المخلاة. فقال ما صنع فلان أهو حى: قالوا نعم، فأرسل إليه بمخلاته نفـسها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله قل ملأتها برًا لملأناها تبرًا.

وما زال ابن عـمار على هذه الحال فى كسب الأمـوال، يدفعه الطمع إلى السـير فى طريق الوصول إلى مراكز الـعظماء فشحذ من لسانه لأنه هو السـلاح الوحيد لديه. حتى علا ذكـره بين الشعراء، واشتـهر فى عالم الأدب، ومـدح المعتضـد بن عباد بقصـيدة=

وكان أديبًا يقول الشعر فأخذ يسأل بشعره، وكان من الأذكياء كثير المجون

=أعجب بها إعجابًا وجعله من أجل ذلك فى جملة شعرائه. ومنذ ذلك الوقت اندمج فى حاشية الأمراء، وخلع عن نفسه لباس البؤس. ثم اتصل بالمعتضد بالله بن المعتضد، وكان شابًا أديبًا يحب الشعر ويميل إليه فأحبه المعتمد لاتفاقه معه فى الميول والأهواء وفنون الأدب والشعر والملاهى وأنواع السرور. ولما تولى المعتمد ولاية شلب جعل ابن عمار وزيرًا له هناك وترك له الحكم والأمر والنهى، وهناك عاش مع المعتمد عيشة الأصدقاء وعيشة اللهو والطرب والمجون؛ وقد كان مجلس الأمير هناك مجتمع الأدباء والشعراء الذين كانوا يملأون الجو لكثرتهم؛ ولا يكاد يخلوا مكان منهم وكانت مجلس الأدباء هناك كل شيء فى الحياة. فاغمر ابن عمار والمعتضد بن عباد فى السرور واللهو انغمارًا. وصاروا كأنهما شخص واحد، حتى غلب ابن عمار المعتمد على أمره؛ وملك منه كل شيء، وساءت السمعة بينهما، فلما علم المعتضد بذلك فرق بينهما، ونفى ابن عمار فى أقاصى بلاد الأندلس، وما زال فى منفاه إلى أن مات المعتضد وتولى الأمر بعد أبيه المعتمد فدعا إليه ابن عمار واختص به. وامتزج به امتزاجًا لا يكون بين رجل وأقرب الناس إليه، حتى لقد كانا ينامان أحيانًا على وسادة واحدة. ولكن ابن عمار على الرغم من ذلك كان سيء الظن غير مخلص فى وده. فكان يترقب من المعتضد الفتك به، رغم إخلاصه له. وقد ولاه المعتمد ولاية شلب ثم لم يقدر على بعده فدعاه إليه واستوزره، وكان معه كما كان جعفر البرمكى مع الرشيد وسلم له كل شيء فى السياسة وأمر بالدولة. حتى أنه أصبح من قواد الجيش وانتصر على الأعداء فى وقائع معروفة، وكان له حيل فى الخداع ومهارة فى التغلب على غيره. ولما رأى علو أمره خطر له أن يستبد بالملك وأن يكون ملكًا، فأراد أن يأخذ بلنسية ويملكها بعد أن فتحها ويخلع طاعة المعتمد، ونسى كل ما كان بينهما؛ ولكن لم يتمكن من ذلك. وبلغ المعتمد أمره فهرب ولجأ إلى سرقسطة. فخافه هناك بنو هود. فأخرجوه. فالتجأ إلى حصن ثم قبض عليه صاحب هذا الحصن وسجنه ثم بعث المعتمد من تسلمه ودخل ابن عمار قرطبة أشنع دخول على بغل بين عدلى تبن وخرج الناس جميعًا لرؤيته على هذا الحال، بعد أن كان يهرع إليه الكبير والصغير لتقبيل يده. ولما مثل بين يدى المعتمد أخذ يعد أياديه عليه وابن عمار مطرق رأسه خجلا. ثم أمر به فدخل إشبيلية على الحال التى دخل بها قرطبة. وسجن فى غرفة فى قصر المعتمد. ومنذ هذا الحين كتب قصائده الشهيرة فى الاستعطاف حتى لان منها المعتمد ولكنه رجع عن عفوه وقتله بيده فى السجن سنة ٤٧٩ هـ.

كجميع الأدباء فى ذلك العصر فانفتح له باب آخر فى الشعر والخيال، وقال فى ذلك كما قال غيره، حتى أخذوا عليه الإمعان فى المجون، والإدمان فى الشرب، فقال يدفع عن نفسه ذلك ويذكر مآثرها.

نقمقم على الراح أدمن شربها وقلتم فتى راح وليس فتى مجد
ومن ذا الذى قاد الجياد إلى الوغى سواى ومن أعطى كثيراً ولم يكد
فديتكم لم تفهموا السر إنما قليتكم جهدى فأبعدتكم جهدى

مع ذلك فقد برع فى المجون، وكان شعره فيه أصدق منه فى غير، وأجمل ديباجة وأسلوبًا لأنه صادر عن شعور صادق. وله فى ذلك خيالات ومعان جميلة.

وقد كلف بالغناء ومجالسه، وكلف الناس بحضوره لأنه كان حلو الفكاهة عذب الحديث، يهرع الأدباء إلى مجالسه ويسرون بحضوره. فقد رووا أن بعض الكتاب اصطبح يومًا والجو مسكى العوارف، لازوردى المطارف، والروض أنيقه لباته، رقيقة هباته، والنور مبتل، والنسيم معتقل، ومعه قومه، وقد راقبهم يومه، وصلاته تصافح معتفيه، ومبراته تشافه موافيه، والراح تشعشع، وماء الأمان ينشع، فكتب إلى ابن عمار وهو ضيفه:

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت فى ودى مسراً ومعلنًا
فلو تسأل الأيام من هو مفرد بود ابن عمار لقلت لها أنا
فإن حالت الأيام بينى وبينه فكيف يطيب العيش أو يحسن الغنا

فلما وصلت الرقعة إليه تأخر عن الوصول، فقال أحد الحاضرين: إنى لأعجب من ابن عمار، كيف قعد عن هذا المضمار، مع ميله إلى السماع؟ فلما كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو:

هصرت لى الآمال طيبة الجنى — وسوغتنى الأحوال مقبلة الدنا
وألبستنى النعمى أغض من الندى — واجمل من وشى الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتنى بحضورها — فبت سميرًا للسناء وللسنا
اعلل نفسى بالمكارم والعلى — وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل ذكرك كلما — تعاورت الأسماء غيرك والكنى
لأوسعتنى قولا وطولا كلاهما — يطوف أعناقًا ويخرس ألسنا
وشرفتنى من قطعة الروض بالتى — تناثرت فيها الطبع وردًا وسوسنا

هذا كلام وجدانى جميل، يسوغ للنفس تذوقه، لأنه طلى العبارة، عذب سهل فى لفظه ومعناه. مدح ولكنه ليس من المدح الجاف المقصور على ذكر الفضائل وجميل الأوصاف التى ربما لم يكن للمدوح حظ فيها، بل هو مدح ممزوج بوصف جمال أوقات السرور والسعادة ,آثار النعيم فى النفوس وأثر النعمة على المنعم عليه. أو هو شكر يراد به المدح، أو هو نوع من الافتنان فى المدح وأساليبه.

وكانت له خفة روح تظهر فى كلامه، وكأنه لا يبالى بما يقول، ولا سيما إذا ذكرت الراح. فقد كان فى حضرة الرشيد بن المعتمد فلما دارت الكأس وتمكن الأنس، وغنيت أصوات، ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب. فارتجل يخاطب الرشيد.

ما ضر أن قيل إسحق وموصله — ها أنت أنت وذى حمص واسحق
أنت الرشيد فدع ما قد سمعت به — وإن تشابه أخلاق وأعراق
لله درك داركها مشعشعة — واحضر بساقيك ما قامت بن ساق

هكذا كان يفعل السرور فى رأس ابن عمار، فكان لآثره فى نفسه وشعره شيء كثير، وكان شعره فى اللهو والغزل من أحسن ما قيل فى نوعه، وإن كانت معانيه ككل المعانى، إلا أن له بهاء فى أسلوبه ككل الشعراء الفنيين. ولقد يقول المعنى فيخيل إليك أنه شيء جديد. كما قال يتغزل:

قالوا أضر بك الهوى فأحببتهم يا حبذاه وحبذا إضراره
قلبى هو اختار السقام لجسمه زيا فخلوه وما يختاره
عير تمونى بالنحول وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
من قد فلبى إذ تثنى قده وأقام عذررى إذ أطل عذاره
أم من طوى الصبح المنير نقابه وأحاط بالليل البهيم خماره

أما مدحه، فله أسلوب خاص فى تصور المعانى وترتيبها: يعرض صوراً مختلفة من الأخيلة التى كانت معروفة فى الأندلس بعبارة سهلة رشيقة، كما فى قصيدته التى مدح بها المعتضد، وهى تدل على مقدار ملكة الشعر وقوتها فى نفسه، وإنه شاعر بفطرته. يشعر بجمال القول، ويعرف كيف يصل إلى اقتناص المعانى الجميلة، ويضعها فى أسلوب جميل، وخيال جميل، ورقة فى الذوق، وكأنك تقرأ كلاماً منثوراً لا شعراً منظوماً. أو كأنك تسمع نغمات الأوتار، أو رنات القوافى أو حفيف الأشجار والنسيم يمسحها ويملقها. أو أنك فى روض تفتحت فيه الأزهار، ومالك عليك ظلال الأشجار، أو كأنك ترى كتاباً مفتوحاً سطرت فيه حياة المعتضد أو مرآة تنعكس فيما أعماله، أو مصوراً يرسم لك بالقلم والبيان لا بالريشة والألوان. كما قال:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافوره   لما استرد الليل منا العنبرا

والروض كالحسنا كساه زهره   وشيا وقلده نداه جوهرا

أو كالغلام زهى بورد رياضه   خجلا وتاه بأسهن معذرا

روض كأن النهر فيه معصم   صاف أطل على رداء أخضرا

وتهزه الصبا فتخاله   سيف ابن عباد يبدد عسكرا

عباد المخضر نائل كفه   والجو قد لبس الرداء الأغبرا

علق الزمان الأخطر المهدى لنا   من ماله العلق النفيس الأخطرا

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد   ونحاه لا يردون حتى يصدرا

أندى على الأكباد من قطر الندى   وألذ فى الأجفان من سنه الكرى

يختار إذ يهب الخريدة كاعبا   والطرف أجود والحسام مجوهرا

قداح زند المجد لا ينفك عن   نار الوغى إلا إلى نار القرى

لا خلق ترى أفرى من شفار حسامه   إن كنت شبهت المواكب أسطرا

أيقنت أنى من ذراه بجنة   لما سقانى من نداه الكوثرا

وعلمت حقًا أن ربعى مخصب   لما سألت به الغمام الممطرا

من لا توازنه الجبال إذا احتبى   من لا تسابقه الرياح إذا جرى

ماض وصدر الرمح يكهم والظبا   تنبوا وأيدى الخيل تعثر فى البرى

قاد الكتائب كالكواكب فوقهم   . . . .

من كل أبيض قد تقلد أبيضًا   عضبا وأسمر قد تأبط أسمرا

obeikandi.com

ملك يـروقك خلقــه أو خـلقــه   كالروض يحـسن منظرا أو مخـبرا
أقسـمت باسم الفضل حتى شمـته   رأيتــه فــى برديتــه مـــصـــورا
وجـهلت معنـى الجود حـتى زرته   فـقـرأته فى راحـــتيـه مـفـسـرا
فـــاح الثـــرى مـــتـــعطرًا بثنائه   حـتى حـــسبنا كل ترب عـنـبـرا
وتتـــوجت بالزهر صلع هضـــابه   حـتى ظننا كـل هضب قـيـصـرا
هصرت يدى غصن الندى من كفه   وجنت بـه روض السـرور مـنورا
حسبى على الصنع الذى أولاه أن   أسـعى بجـد أو أمـوت فـأعـذرا
يا أيهـــا الملـك الذى حـــاز المنى   وحـبـاه منه بمثل حـمـدى أنورا
السيــف أفـصح من زياد خـطبـة   فى الحرب إن كـانت يمينك مـنبرا
مـا زلت تغنى من عنى لك راجيًـا   نيــلا وتفنى من عـــتـا وتجـــبـرا
حتى خللت مـن الرياسة محـجرا   رحـبًا وضـمت منك طرفا أحـورا
شـفيت بسيـفـك أمة لم تعـتقـد   إلا اليـــهـــود وإن تسـمـت بربرا
أثمرت رمحك مـن رءوس كماتهم   لما رأيت الغـصن يعـشق مـثـمـرا
وصبغت دوعك من دمـاء ملوكهم   لما علمت الحـسـن يلبس أحـمـرا
بمقـتـهـا وشـيـا بذكـرك مـذهبًـا   وفـتقـتـها مـسكًا بحـمدك أذفـرا
من ذا ينافـــحنى وذكـــرك صندل   أوردته من نار فـكرى مـجـــمـرا
لئن وجدت نسـيم حمـدى عاطرا   فلقـد وجـدت نسـيم برك أعطرا
وإليكهـا كـالـروض زارته الصبـا   وحنا عـليــه الـطل حـــتى نورا

وكان ابن عمار يتخذ الشعر للتعبير عن كل شىء، فلم تكن تمر به حادثة من الحوادث إلا ذكرها فى شعره. فكان إذا أراد أن يكتب للمعتمد كتب له شعرًا، وإذا أراد أن يشكو، شكا فى شعره، وإذا أراد أن يذكر خبرًا ذكره فى شعره. وكأنما كان شعره صحيفة من صحفه اليومية.

ويخيل إلى من يقرأ كلامه أن المعانى كانت تنهال عليه انهيالا، أو أن الشعر صقل لسانه وتمكن منه، حتى أصبح لا يقول إلا شعرًا، أو لا يقدر على التعبير إلا بنظم المعانى، أو أن الشعر عنده كالنثر فى سهولة التعبير. وأكثره خال من الخيالات الشعرية، ولكنه يحسب من صميم الشعر لأن به جمال الشعر: وهو امتلاك النفوس بهذه العبارات السهلة، وإعجاب الإنسان بزلاقة لسانه وتناسق ديباجته. إذ ليس كل شعر خيالا، وليست بهجة الشعر وصناعته محصورة فى الخيال: من تشبيه حسن أو كناية عجيبة أو مجاز غريب. فقد يكون الشعر معرفة التعبير عما فى النفس وكشف ما بها. وحسب الشاعر أن يصل بعبارته إلى امتلاك الأسماع وإعجاب النفوس بقوله. وليس الشعر غير ذلك. كقوله:

أأسلك قصدًا أم أعوج عن الركب ... فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى ... فأجعله حظى أم الحظ فى القرب
إذا انقدت فى أمرى مشيت مع الهوى ... وإن أتعقبه نكصت على عقبى
على أننى أدرى بأنك مؤثر ... على كل حال ما يزحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك فى دمى ... وأرجوك للحب الذى لك قلبى
أيظلم فى وجهى لذا قمر الدجى ... وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب

obeikandl.com

حنانيك فيـمن أنت شاهد نصـحه ... وليس له غير انتصاحك من حسب

ومـا جئت شـيئًـا فيـه بنى لطالب ... يضاف به رأى إلى العجز والعجب

سـوى أننـى أسلمـتنـى لمامـة ... فلات بها حدى وكسرت من قربى

وما أغـرب الأيام فيـما قـضت به ... ترينى بعـدى عنك آنس من قـربى

أمـا أنـه لولا عـوارفك الـتى ... جرت جريان الماء فى الغصن الرطب

لما سمت نفسى ما أسوم من الأذى ... ولا قلت إن الذنب فيـما جرى ذنبى

سأسـتمنح الرحمى لديك ضـراعة ... وأسأل سـيقا من تجاوزت العذب

وكان لآلامه أثر عظيم فى شعره، فكانت قصـائده فى استعطاف المعتمد وسيلة من وسائل التعبيـر عن كل آرائه وخطرات نفسه. وليس أرق فى كلامه من استعطافه، ولا أشد أثرًا فى النفس من كلامه حين تضيق فى وجهه الدنيا على رحبها. فمن ذلك قوله للمعتمد:

سجاياك إن عـافيت أندى وأسمح ... وعذرك إن عـاقبت أجلى وأوضح

وإن كـان بين الخـطتـين مـزية ... فـأنت إلى الأدنى من اللـه أجنح

حنانيك فى أخـذى برأيك لا تطع ... عـداتى وإن أثنوا على وأفـصحـوا

ومـاذا عـسى الأعـداء أن يتـزيدوا ... سـوى أن ذنبى واضح مـتصـحح

نعم لى ذنـب غـيـر أن لحـمـه ... صـفات يزل الـذنب عنا فيـسفح

وإن رجـائى إن عنـدك غـيـر مـا ... يخوض عـدوى اليوم فيـه ويمرح

ولم لا وقـد أسلفت ودا وخـدمـة ... يكر إن فى ليـل الخطايا فـيـصبح

وهبنى وقد أعـقبت أعمال مـفسد ... أمـا تفـسد الأعـمـال ثمت تصلح

أقلنى بما بينى وبـينك من رضـا　　له نحــو روح الله باب مــفــتح

وعف على آثـار جـرم جنبـتـه　　بهـبة رحـمى منك تمحو وتصـفح

ولا تلتـفت رأى الوشـاة وقـولهم　　فكـل إناء بالذى فـــيــه يـرشح

ومـا ذاك إلا مــا علمت فــإننى　　إذا ثبت لا أنفـك آسـو وأجــرح

وقـالوا سـيـجـزيـه فـلان بفـعله　　فـقلت وقد يعـفـو فلان ويصـفح

ألا إن بطشـــا للمـــؤيد يـتــقى　　ولكن حـلمـــا لــلمــؤيـد أرجح

وبين ضـلوعى من هواه تميــمــة　　سـتنـفع لو أن الحـمـام مــجلح

سـلام عليـه كـيف درا به الهـوى　　إلى فــيـــدنو أو على فـــينزح

ويهنيــه إن مت الـسلو فـــإننى　　أمـوت ولى شـوق إلـيـه مـبـرح

وقـال يصف سـجنه لصـديق له وكـأنما هى أنـة من أنينه، ولوعـة من لوعاته، وهى من الشعر المطبوع:

أدرك أخـــاك ولـو بقـــافــيـــة　　كـــــالظـل يوقـظ نائم الزهـر

فلقـــد تقـــاذفت الركـــاب به　　فى غـــيـــر مـرمـاة ولا بحــر

طفــحت صــحـــابته بــلا سنة　　وتســاقـطوا سكرًا بـلا خـــمــر

بمعــــــارج أدت إلى جـــــرد　　حـــــــتى مـن الأنواء والـقطـر

عــال كـــأذن الجن إذا مــردت　　جــعلتـه مــرقــاة إلى النسـر

وحش تـنـاكـــرت الوجـــوه به　　حـتى اسـتـربت بصفـحـة البـدر

قــصـر تمهــد بين خـــافـقــتى　　نســرين من فـلك ومن وكــر

مـتــحـيــر سـال الوقــار على　　عطفــيــه من كــبـر ومن كـــبـر

ملكت عنان الريح راحته | فجيادها من تحتها تجرى
مأوى العزيز وقد نصحت فإن | يهمل فقد أبليت فى العذر
وصلت خدمة قاطع سببى | وأطعت أمر مضيع أمرى
دع ذا وصلنا غير مؤتمر | مستأثرًا بالحمد والشكر

وله مدائح كثيرة فى المعتضد وابنه كلها من جميل القول.

هذا شىء عن ابن عمار وهذه صورة من حياته وميوله النفسية، يمكن بها معرفة ما فى شعره من الرقة والمعانى الوجدانية، وما له من السهولة فى الأسلوب ولا سيما خلو كلامه من المعانى الجدية أو الفلسفية أو الاجتماعية، فقد قصر كلامه على الوجدانيات فى شكواه وبث آلامه، فليس هو من الشعراء المفكرين، ولا ممن كان للتربية العلمية أثر فى نفوسهم، وكأنه لم يطلع على شىء سوى أوزان الشعر وعبارات البلغاء. حتى امتلأت نفسه من ذلك، ومال إلى قول الشعر. فأصبح من أكبر الشعراء الوجدانيين.

***

عبد الجليل بن وهبون[1]

عاش عبد الجليل بن وهبون فى حاشية المعتمد بن عباد، ومر بتلك الأحوال التى مر بها ابن عمار وغيره. من مجون ولهو وطرب، فكان له نصيب فى ذلك. وقالوا عنه ما قالوا فى غيره من حب اللهو والميل إلى الغلمان. وذكروا له شعرًا كثيرًا فى ذلك. وكأن كل نفسه كانت منصرفة

(١) لم نقف على تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته. ولكن عرف عصره الذى عاش فيه ووفاته الذين عاشرهم.

عاش ابن وهبون فى عصر المعتمد بن عباد وكان من المقدمين فى حضرته، وصديقًا للوزير ابن عمار. فهو إذًا من أهل القرن الخامس الهجرى ويقولون أنه توفى فى أوائل القرن السادس قبل سنة ٥٣٣. هاجر من بلاده كورة تدمير واستقر بإشبيلية حيث عزة الملك والمال كانت فى أوجها، وسوق الأدب والعلم رائجة. وكان من أصحاب الرحلات والنقلة، يفد على الملوك والأمراء مع غيره فى نفسه. فقد اجتاز مرة بالمرية وقد ملكها المعتصم بن صمادح فاهتز له وعرض عليه مالا وافرًا فلم يقبل وكان اليوم عيدًا فقال:

دنا العيد لو تدنو به كعبة المنى ... وركن المعالى من ذوائبه يعرب
فيا أسفا للشعر ترمى جماره ... ويا بعد ما بينى وبين المحصب

وقد صاحبه ابن عمار وأخلص له ورفع قدره وأكرمه. وسبب ذلك أن ابن وهبون لما قدم إشبيلية قصد الأستاذ الأعلم مؤدب ابن عباد. وكان فى نفس ابن وهبون أن يكون له بهذا الاتصال شىء من الرقة، وعلق آمالا كثيرة على ذلك، وحدث أن مدح المعتمد بقصيدة من أحد كبار الشعراء الذين كان يستثقل ظلهم الأستاذ الأعلم، وقالوا أنه عرض فى هذه القصيدة به، فعرضها على ابن وهبون أمر الرد عليها. فقال فى ذلك قصيدة سمعها فجن بها وطار بذكره، وأعجب به، ولما علم المعتمد به أنزله منزلة عظيمة وقصره على هواه فلم يرحل إلى ملك سواه، وبقى فى حضرة المعتمد. ولما بدت الفتنة هناك خرج هاربًا ثم تلاقى بعصبة وجيش من جيوش الأعداء فاستشهد على أيديهم.

لهذا، وليس بعجيب أن ينغمس ابن وهبون فى هذه البيئة لأنه عاش فيها، ولأن كل الناس كانوا على تلك الحال. ولكنه مزج بين الجد والهزل فى شعره. فتراه تارة خليعًا ماجنًا، حلو الكلام عذب العبارة، منغمسًا فى ملاذه ومسراته انغماس الرجل الذى تسيره أهواؤه، وكأنه لا ينظر إلى الدنيا، وما فيها غير نظر الماجنين، فإذا أتعبتك خفة روحه، وأفعمت نفسك سرورًا من خلاعته ومجونه، ونظرت نظرة أخرى إلى شعره، رأيت ينابيع الحكمة تنفجر من غضونه، وظننت أنك تقرأ فى كتاب حكمة وفلسفة، لا فى ديوان شعر وخيال، أو كأنما تقرأ كلام شاعر حكيم، بلسان عربى مبين، أو أنه نفحة من نفحات المعرى، أو حكمة من حكم المتنبى.

لم يترب ابن وهبون(١) تربية خاصة، ولم يعش عيشة غير عيشة من كان معهم. ولكن آراءه ليست كآراء غيره ممن عاشوا معه، بل ذلك شىء غير معروف عند أكثر شعراء الأندلس. فقد عهدنا الأندلسيين برعوا فى نوع

---

(١) فمما رووا عنه أن ركب بإشبيلية زورقًا فى ليلة مظلمة مع جماعة كان بينهم غلام جميل بيده شمعتان. فقال بن وهبون فى ذلك:

أعجب بمنظر ليلة ليلاء ... تحيا بها اللذات فوق الماء
فى زورق يزهى بغرة أغيد ... يختال مثل البانة العيناء
قرنت يداه الشمعتين بوجهه ... كالبدر بين النسر والجوزاء
والتاح تحت الماء ضوء جبينه ... كالبرق يخفق فى غمام سماء

وقال فى فتى وقد تأبطه وزير جميل:

يا هلال استتر بوجهك عنى ... إن ملوك قابض بشمالى
هبك تحكى سناه خيرًا بخير ... قم بجئنى لقده بمثال

وقال متغزلا وقد أبدع إبداع المغرمين الفنيين:

زعموا الغزال حكاه قلت لهم نعم ... فى صدره من عاشقيه وهجره
وكذا يقولون المدام كريقه ... يارب ما علموا مذاقه ثغره

جميل من الخيال ورقة الأسلوب وجزالة اللفظ، والأوصاف التى دعتهم إليها آثار تلك المدنية الحديثة ولم يعهدها شعراء العرب. أم ابن وهبون فقد برع فى نوع آخر وهو الشعر الفلسفى على أنه لم يقصر فى ذلك النوع ولم يتأخر عن السبق فى هذا الميدان ميدان الخيال. حتى رموه بالمجون أكثر من غيره، وقالوا أن ذلك من شأنه. ولكنه رغم ذلك من الشعراء المفكرين. وفى الحق إن ذلك لم يكن ناشئًا من تربية فكرية أو اظلاه واسع على علوم الدين والفلسفة، ولكنه كان ذكيًا مفكرًا، وشاعرًا صافى القريحة، قادرًا على نظم المعانى نظمًا شعريًا. ولابد أن يكون قرأ كثيرًا من شعر المتنبى وأبى العلاء فأخذ يعارضهم فى أساليبهم، أو يجاريهم فيا كانوا ينظمون من المعانى والموضوعات، مع بلاغة عبارته. كما قال:

نفسى وجسمى إن وضعتهما معًا … آل يذوب وصخرة خلقاء

لو تعلم الأجيال كيف مآلها … عامى لما امتسكت لها أرجاء

أنا لنعلم ما يراد بنا فلم … تعيا القلوب وتغلب الأهواء

طيف المنايا فى أساليب المنى … على طريق الصحة إلا دواء

تتعاقب الأضداد مما قد ترى … جلبت عليك الحكمة الشنعاء

ماذا على ابن الموت من أبصاره … ولقائه هل عقت الأبناء

أيغرنى أن يستطيل بى المدى … وأنا بحيث تواطت الغبراء

لم ينكر الإنسان ما هو ثابت … فى طبعه لو صحت الآراء

ونظير موت المرء بعد حياته … أن تستوى من حسنه الأعضاء

هذه فلسفة منظومة. وإذا كان هذا يحسب من الشعر الجميل فذلك

obeikandi.com

لمعانيـه وما فيـه من الآراء التى تجذب النفوس إليـها، كمـا يجذبها الخـيال، والبلاغة الساحرة، فهو من هذه الجهة شعر جميل أيضًا.

ولكن الأدباء لم يفـهموا هذا النـوع من الشعر، بل لا يقـولون إنه من باب الشـعر. وقد ظنـوا أن الشاعر الـذى يحوم حول هـذه المعانى إنما دفـعه العجز إلى ورودها، ورماه إليها ضيق التصور وجفاف الفكر[1].

قال ابن وهبون هـذه القصيدة فى رثاء أبى الحجـاج الأعلم، وأتمها فى مدحه. ورثاؤه يشبـه فى جملته رثاء أبى العلاء من حيث مـعانيه. وقد يكون قرأ شـعر أبـى العلاء أو المتنبى. ولكن مـهمـا كانت الحـال فليس إدراك ابن وهبون كإدراك غيره من الشعراء. وإن كان جاراهم فى أساليبهم الشعرية، فإن له ميـزة ظاهرة فى المدح نفسـه الذى هو شكل معروف وطابع اتـفق عليه فى الأدب والخيال، من تعداد الفـضائل والأوصاف الكريمة كما قـال من قصيدة فى مدح ابن عمار قال:

قـتلت بنى الأيام خـبـرًا فـبـاطنى   مـشـيب وما يبـدو على شـبـاب
ولما رأيت الزور فى الناس فـاشيًـا   تخـيل لى أن الشـبـاب خـضـاب

(١) قال صاحب الذخيرة فى ذلك:

وهذا معنى فلسـفى قلما عرج عليه عـربى، إنما فزع إليه المحدثون من الشـعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب، وعدموا رونق كـلام الأعراب، فأسر إلى هذا الهذيان إسراع الجبان إلى تنقص أقرانه. واسـتجادة سيفه وسنانه. وقد قـال بعض أهل النقد أنه عجيب فى الشعر والنثر أن يـأتى الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الحكماء أو بألفـاظ الفلاسفة القدمـاء. وإنى لأعجب من أبى الطيب على نفـسه، وذكاء قـبسه، فـإنه أطال قرع هذا الباب والتمرس بهـذه الأسباب، وكذلك المعرى كثر به انتزاعه وطال إلـيه إيضاعه، حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه وحسبك من شر سماعه.

وآليت لولا مـلك لخم مـحـــمـد لما كـان ملك فـى الأنام لبـاب[1]

ولولا ابن عـمار وفـاضل سـعيـه لأصح ربع المجـد وهو خـــراب

وما كان يؤتى الأمن من حيث يلتقى ولا كـــان يدرى للحـــوادث باب

ولا أحرقت أرض العـدو صواعق ولا أمطرت أرض العـفاة سـحاب

ومـــا كـــان هـرون أصح وزارة لموسى وهل دون السحـاب حجاب

نهـــوض ولو أن الأسـنة مـــركب ورود ولو أن الخـــمـــام شـــراب

مضى مثل ما يمـضى القضاء وهزه همـام يهـز الجـيش وهو هضـاب

كمـا اقتـرنت بالبدر شمـس منيرة له عن سنـاها فى الخطوب مـــآب

أنافت به فـوق السـما كـين همـة أناف عليـــهـا عـنصـر ونصـــاب

فلفـظتـــه يوم المبـــاهـاة خطبـة ولحظتـــه يوم الـلقـــا ضـــراب

له سنه فى الجـد والهـزل مـثلمـا تدار كـــؤوس أو تدق حـــراب

وقد نزع أيضًا فى بعض شعره نزعة أبى العلاء والمتنبى فى الفخر بنفسه ومـدحهـا، لأن تلك كانـت الطريقة الجـديدة أو بدعـة الشعـر فى ذم الناس والفخر بالنفس كقول المتنبى.

الخـيل والليل والـبـيـداء تعـرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقول المعرى:

ولما رأيت الجـهل فى الناس فاشـيًا تجـاهـلت حـتى ظن أنى جـــاهل

---

(١) كذا فى الأصل.

فقد قال ابن وهبون:

أتخفى على الأيام غر مناقبى ... وقد بذ شأوى شأو كل نقاب
ويركبنى رسم الخمول وقد غدت ... خصال العلى والمجد طوع ركابى
سأرمى بهماتى قصارى مراتبى ... وإن كان أدناها يطيل طلابى
لتعلم أطراف الأسنة أننى ... كفيل بها عند الصدى بشراب
وتشهد أطراف اليراعات أننى ... بهن مصيب فصل كل خطاب
وليس نديمى غير أبيض صارم ... وليس سميرى غير شخص كتاب
مضمخة لا بالخلوق أناملى ... مزعفرة لا بالعبير حرابى
ولكن بنفح يخجل الروض زاهرًا ... ولكن بدعس فى كلى ورقاب

وربما كانت تملأ نفسه حكم المتنبى وأسلوبه فينسج على منواله، حتى لقد يخيل إليك أنك تقرأ أشعر المتنبى وقوافيه. ولعل ذلك كان من ضروب التقليد والمحاكاة أكثر منه من باب التفكير والابتكار. ولكنه يدل على ميل ابن وهبون إلى التفكير وحب الكلام فى المعانى الجدية، والبحث فى بعض أحوال الناس ووصف بعض الأخلاق ونقدها، وإظهار عدم رضاه عما يرى ويسمع فى الحياة وهو يتخذ الشعر وسيلة من وسائل التعبير وجمال القول. كما قال:

أطلت فى الدهر تصعيدى وتصويبى ... ودهر ذى اللب مضمار التجاريب
ورب أخر لا يهدى إلى فمه ... أصاب غرة مأمول ومرغوب
وآفتى أدب باد فضيلته ... من حيث يشفع لى قد صار يغرى بى
كفى من الحظ أنى لا أنافس فى ... حظ ومخبرتى تكفى وتجريبى

وقـد أرى صـوراً فى الناس مـائلة ... أشـيـمـهـا بين تحـقـيق وتكذيب

لما مـلأت يدى منـهم لأخـبـرهم ... نفـضت كفى بأشـباه اليـعاسـيب

بيض وجـوههم سـود ضمـائرهم ... فما حـصلت على عرب ولا نوب

الصـدق أولى بمن يبدى ضـغينتـه ... لا تجعل الصدق من نعت الأصاحيب

مع هذا فكان ابن وهبون يجارى الشعراء فى صناعتهم من مدح صناعى وكلام صادر من غير شعور. وذلك لتمكن ملكة الشعر منه واحتياجه إلى هذه المجاراة. ولـكن ذلك لم يكن يخلو من نظراته ومـلاحظاته، مما يدل على أنه كان كثيـر التفكير. ولقد يمزج بعض آرائه النقدية بعـباراته الشعرية مع شىء من التهكم، فتجد كل ذلك جميلا، كما قال وقد وقفت مرتبه عند العامل.

ألسـتم مـعـشـر الأمـلاك طائفـة ... تقـضى بتخليـدها هذى الأناشيـد

فـإن نقـصـتم أنـاسًـا من نوالكم ... فـحق منكم لأهل الشـعـر تزييـد

لكم خـلقنا ولم نخـلق لأنفـسنا ... فـإنمـا نحن تحـمـيـد وتمجـيـد

يا صاحب المجـد إن المجد سـائمة ... تضل إذا لم يكن بالشـعـر تقـييـد

خـذنى بما شـئت نم غراء شـاردة ... يصـغى الأصم إليهـا وهو مفـئود

واعـذر بتقـصيـرها من لا يزال له ... فى سـاقـه الرزق ارقال وتوخـيـد

لا يدرك القــوت مما أنت واهبــه ... حـتى يطول من الـعـمـال تنكيـد

وليس لـلـشـعـر إلا خــاطر يقظ ... يهــزه مـنك ترفــيــد وتـأييــد

ومــــا المدائح إلا بـالملـوك وهل ... يبدى سنا العـقد إلا النحر والجيـد

وكما قال:

قل للرشيد وقد هبت نوافحه ... أسرقت يا ديمة المعروف فاقتصد
أشكو لديك الندى من حيث أحماه ... لو فاض فيضًا على البحرين لم يزد
يا قاتل الشكر بالإحسان يغمره ... مهلا أما لقتيل الجود من أود
عجبت من كرم فى راحتيك بدا ... إسرافه كيف لا يعزى إلى الفند
آثرت عندك من جاه من نشب ... حتى وجدت الغنى فى همتى ويدى
يا واحدًا تقتضى آلاؤه جملا ... برحت بى وبنظم الشعر فائتد
للناس بعدك فى العليا منازلهم ... والواحد الفرد يحوى مبدأ العدد

وبرع فى الوصف وفى كل ما قال فيه، فقد وصف قصرًا بقصيدة طويلة جيدة المعنى، ولم تخل من بعض الآراء لأنه لم يكن يسرد الكلام سردًا بدون فكر. قال فى هذه القصيدة:

وللزاهى الكمال سنا وحسنا ... كما وسع الجلالة والكمالا
يحاط بشكله عرضًا وطولا ... ولكن لا يحاط به جمالا
تواصلت المحاسن فيه شتى ... فوفد اللحظ ينتقل انتقالا
وقدر مثل ركز الطود ثبت ... ومختال من الحسن اختيالا
تدافع من جوانبه ائتلافا ... يكاد المستبين يقول مالا
فلو أدنوا حرام السحر منه ... لأضحى يعبد السحر الحلالا
سماء ترتمى بعباب تبر ... كأن بها أكاما أو تلالا

obeikandl.com

فـقــد كــاد اللـبـيب يهــاب منه ويحــسب أن بحـر الجــو ســالا
فـمــا أبقى شـهـابا لـم يصـوب ولا شـــمـــسًــا تنيــر ولا هلالا

ومنها فى الحكم:

تزاحـمت الهمـوم خلال صـدرى فـمــا تركت لأنفـاسى مــجـالا
ومـا خـلت الزمـان يكون ثـقـلا ولا نفـــحــاتــه تأتـى وبالا
كــأنى كلمــا اسـتـنشـقت منه أرد به إلــى كــبـــدى نصـــالا
وكــــيـف يصـح ذو قلـب أبى إذا كـــــان الإبـاء لـه نكـالا

هذا هو عبد الجليل بن وهبون. وهو وإن لم يكن من الشعراء المعروفين بكثرة الكلام، فـإن شعره صورة من صـور الأدب فى الأندلس القليلة المثال. بل هو من الشعـراء الذى كانوا يحاولون الانتقـال بالشعر من الخيـال الصرف إلى المعانـى العامة. أو إلى نوع مـن فلسفة التـفكير التى تدل عـلى أن حسن الديباجة وجمـال الأسلوب يجعلان الفلسفة شعرًا، والتـفكير العميق فى باب الخيال الجميل.

* * *

ابن حمديس الصقلى[1]

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية. ولم يكد يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده فى يد النرمانديين، الذين لم يكد تطأ أقدامهم تلك الجزيرة حتى نكلوا بأهلها كل تنكيل، وأذاقوهم العذاب الأليم، وحمولهم على ترك دينهم، وفتكوا بأعراضهم، وأذلوهم وأهانوهم فى شرفهم. فشاهد ابن حمديس، ورأى بعينه كيف تسلب الأوطان من أهلها، وكيف يجرؤ القوى على سلب حقوق الضعيف، وينقض عليه كما ينقض اللص ذو القوة والطول، على الضعيف السليب من كل قوة وحول.

لذلك آثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده. وكان لهذا أثر عظيم فى نفسه وخياله الشعرى وأخلاقه حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة، وصدره من الصدور المنقبضة، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث.

فهاجر إلى أسبانيا ونزل بإشبيلية، وعاش فى حاشية المعتمد بن عباد وصار فى جملة شعرائه، وتبعه فى منفاه. ولم يكن ابن حمديس معروفًا اعند قدومه إلى إشبيلية. فقد قال:

"أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلى، ولا يعبأ بى، حتى قنطت لخيبتى مع فرط تعبى، وهممت بالنكوص على عقبى.

(١) ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلى سنة ٤٤٧هـ فى جزيرة صقلية وفى سنة ٤٧١ هـ هاجر إلى أسبانيا وعاش فى إشبيلية وتوفى سنة ٥٢٧ بجزيرة ميورقة.

فأنى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى إذ بغلام معه شمعة ومركوب، فقال لى أجب السلطان. فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة فنك[1]، وقال لى افتح الطاق التى تليك ففتحتها، وإذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى، فحين تأملتها. قال لى أجز.

انظرهما فى الظلام قد نجما. فقلت: كما رنا فى الدجنة الأسد.

فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها. فقلت: فعل امرئ فى جفونه رمد

فقال: فابتزه الدهر نور واحدة. فقلت: وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية وألزمنى خدمته"[2].

أما نفسه فنفس رجل ربته الحوادث ونالت منه الأيام. وأذاقته مرها قبل حلوها. فثقلت عليه الحياة. ولوت من ظهره بعد أن أخرجته من وطنه وليس له إلا لسانه وخياله. وقد كان لبلاده أثر طيب فى نفسه ومنزلة رفيعة وحب جم. فلما اضطر إلى الهجرة والنزول فى غير أهله تعست نفسه، وأظلمت فى وجهه الدنيا وكثر حنينه إلى بلده، وصار ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه إلى وصف الملذات أو التظاهر بالمسرات. ولقد يلمح الإنسان هذا فى كل شعره حتى فى الغزل والخمريات والمدح والوصف.

وأما عقله فكان ميالا إلى إدراك الأشياء والمعانى إدراك من يحاول فهم ما يرى ويفكر. فقد كان يرغب دائمًا فى تشبيه المحسوسات بالمعقولات،

---

(١) دابة فروتها أطيب أنواع الفراء.

(٢) نفح الطيب جزء ٢ صفحة ٤١٦.

والمعقولات بالمحسوسات. وهذه طريقة من طرق المحاولة فى الإدراك. وأكثر اهتمامه فى تشبيهاته موجه إلى وصف المرئيات وإدراكها. ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من معنى إلى آخر، ومحاولة الخروج من طريق واحد إلى طرق متشعبة. أما قوته الشعرية التى بها تكوين هذه الأشياء وضعها فى أسلوب خيالى جميل فتابعه لنفسه وعقله، وأكثر اعتماده فى ذلك على ما يكتسبه من التأثر بظواهر الأشياء وما فيها من التشابه بالجمال.

ذلك أسلوبه فى شعره أو أن هذه هى صفات شعره: يشكو الزمان ونصيب الحر منه وكثرة نوبه، ويأتى فى خلال ذلك بعبارات شعرة جميلة تدعو القارئ إلى الشعور بما يشعر به هو.

وعلى الرغم من صبغته الجدية فى شعره، فإن كثرة كلامه فى الخمر ومجالسه والعشق وآثاره، تدل على أنه كان يميل إلى شىء من المجون، ولكنه كان أقل من غيره فى ذلك فإن الإنسان لا يكاد يرى للتهتك أثرًا فى كلامه. ولولا أنه عاش فى هذا العصر وفى حاشية المعتمد بن عباد، لقلنا أنه كان بعيدًا عن اللهو والمجون، ولحملنا شعره الذى جاء فى هذا على نوع من الصناعة والخيال، إذ أننا نجده فى كثير من شعره يميل إلى الكلام فى المواعظ والعبر، أو إلى بعض الآراء التى تدل على أنه كثيرًا ما كان يدفعه الفكر إلى خوض المعنى النفسية أو الخواطر الفلسفية، ويمزج هذه الأفكار ويصوغها فى أنواع شعره. ويظهر من شعره أنه أنضج من غيره وأكثر تأثرًا بالمعانى الاجتماعية من سواه. ولهذا أيضًا نراه شاعرًا مفكرًا من أصحاب الملاحظات والنظر فى الحياة والاجتماع أكثر منه شاعرًا وصافًا كما هو معروف عنه. ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية وحالته الفكرية.

وقد أبدع فى هذا الشعر الجدى المملوء بالعبر والحكم. كما دل على أنه مفكرًا أكثر منه خياليًا لاشتمال شعره على جولات فكرية مملوءة بأحواله النفسية، والآلام التى يشعر بها، وكثيرًا ما تظهر هذه الآلام آلامًا لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة، كما نظهر آلام العاشق الشاعر آلامًا لكل العاشقين. لذلك كان ابن حمديس شاعرًا نفسيًا ناقمًا على الحياة وما فيها. كما قال:

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب   أو قال حسبى من إخمال ذى حسب
لا يلحظ الحر إلا مثلما وقعت   على أخى سيئات عين ذى غضب
وكيف يصفو لنا دهر مشاربه   يخوضها كل حين جحفل النوب
إن الزمان بما قاسيت شيبى   ولم أشيبه. هذا والزمان أبى
ولو خلا الدهر ذو الأنباء من عجب   أكثرت منه ومن أنبائه عجبى
قرأت وحدى على دهرى غرائبه   فما أعاشر قومًا غير مغترب
أحلت عزمى على همى فقطعه   كأن عزمى على صمصامتى الذرب
ما قر بى السير فى سهل ولا جبل   إلا كما قر جارى الماء فى صبب
ولم أضق فى السرى ذرعًا بمعضلة   قد زاحمتنى حتى ضاق مضطربى
وترتقى حر أنفاسى فابعثه   بردًا وإن كان مستبقى من اللهب
وأحر بالحر أن تلقاه ذا جلد   وإن تبطن داء قابل الوصب

ولقد تنقبض نفسه فتحرك حركة البائس الذى ينظر إلى الأيام نظر الحاقد، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب، وكأنه واقف على أبواب

obeikandi.com

الموت يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله ذلك وهو فى حالة كآبة نفسه متأثرة بهذه الخواطر. كما قال:

وعظت بلمتك الشائبة   وفقد شيبك الذاهبة
وسبعين عامًا ترى شمسها   بعينك طالعة غاربة
فويحك عل عبرت ساعة   ونفسك عن زلة راغبة
فرغت لصنعك مالا يقيك   كأنك عاملة ناصبة
وغرتك دنياك إذ فوضت   إليك أمانيها الكاذبة
أصاحبه خلتها؟ أنها   بإحداثها بئست الصاحبة
أما سلبت منك برد الشباب   فهل يسترد من السالبة
وإن دقائق ساعاتها   لعمرك آكلة شاربة
وإن المنية من نحوها   عليك بإظفارها واثبة
ألم ترها بحصاة الردى   لكل حميم لها حاصبة
كأن لنفسك مغنيطسا   غدت للذنوب به جاذبة
فيا حاضرًا أبدًا ذنبه   وتوبته أبدًا غائبة
أذب منك قلبًا تجارى به   سواكب عبرتك الساكبة
على كل ذنب مضى فى الصبا   وأتعب إثباته كاتبه
عسى الله يدر أعنك العقاب   وإلا فقد ذمت العاقبة

وقد يكون ابن حمديس من أكبر شعراء العرب وأفضلهم، لأن لشعره صبغة خاصة ليست معروفة كثيرًا فى الشعر العربى: تلك الصبغة هى محاولة

الخروج من الوجدانيات التى هى أكبر الشعر العربى، إلى الكلام عما يجول بالنفوس، لا من جهة الخيال وما به من الجمال لا غير، بل من جهة التفكير أيضًا وما يمر بنفس الإنسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها، وما يعتريه من حيرة وشك ويقين، وكراهة للوجود أحيانًا، وميل إلى البقاء تارة. ذلك بعرض صور الحوادث المؤلمة التى تزهد فى الدنيا وتنفر الإنسان من رؤيتها وتلك بوصف أوقات الأنس ولحظات السرور، من حسن الذكرى ووصف مجالس اللهو والطرب والخمر ولذتها، والجمال وأثره فى النفس وغير ذلك من أصفى وجوه الحياة وأجمل صورها.

فهو فى كل أنواع شعره جاد لا مازح. ولذلك تجد أثر فكره وحركة عقله فى كل كلامه، وتشع بنفسه المفكرة إذا قرأت شعره، كما تشعر بتلك الحيرة التى هى أصل كل تفكير، وكما تشعر بسعة خياله الشعرى. وإذا اجتمعت قوة الفكر وسعة الخيال لإنسان كان من أكبر الشعراء، فإذا كانت حاسته النفسية التى هى رقة شعوره قوية أيضًا كان فى مقدمة الشعراء. كل ذلك فى شعر ابن حمديس. فهو شاعر نفسى فى مقدمة شعراء العرب المفكرين. بين فى شعره ما تنطوى عليه نفسه، ولكن لا بصفته الشخصية الفردية، بل بصفته إنسانًا أمثاله كثيرون. وإذ كان كثير التفكير فى ظلمات الحياة ووجوهها العابسة وميالا إلى التأمل فى ذلك أكثر من التفكير والنظر فى وجوهها النضرة الباسمة غلبت على شعره صبغة التشاؤم. أكان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة؛ قد يكون هذا. وربما كانت رقة شعوره تقود عقله وتملك منه إدراكه، وكان اغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء إليه ووقوعه فى غير قبضة أهله من الأسباب التى أثرت فى نفسه واستولت على

عواطفه. فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينحى باللوم على نفسه وينهرها. ولكنه لم يكن فى ذلك فيلسوفًا، بل كان يميل إلى أمثال أفكار المتصوفة فى لوم أنفس والنيل منها. ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحيانًا، عاطفة للندم أو توبيخ النفس، فيرى نفسه ذليلا حقيرًا، وكأنه يبكى على ذنوبه وهو حزين كئيب. ولكن ما أجمل حزنه الشعرى وأرقة فى هذا الأنين. حيث يقول:

يا ذنوبى ثقلت والله ظهرى   بان عذرى فكيف يقبل عذرى

كلما تبت ساعة عدت أخرى   لضروب من سوء فعلى وهجرى

ثقلت خطوتى وفودى تفرى   غيهب الليل فيه من نور فجرى

رب موت السكون فى حركاتى   وخبا فى رماده حمر جمرى

وأنا حيث سرت آكل رزقى   غير أن الزمان يأكل عمرى

كلما مر منه وقت بربح   من حياتى وجدت فى الربح خسرى

يا رفيقا بعبده ومحيطًا   علمه باختلاف سرى جهرى

هل بقلى إلى الصلاح فسادى   منه وأجبر برأفة منك كسرى

وأجرنى بما جناه لسانى   وتناجت به وساوس فكرى

أو كقوله وهو يفكر فى نفسه وحياته وكأنه متصوف، ولكنه مع ذلك شاعر جميل القول:

كملت لى الخمسون والخمس   ووقعت فى مرض له نكس

ووجدت بالأضداد من جسدى   غصنًا يلين وقامة تقسو

وتنافرت عنى الحسان كما   لحظ الهصور جآذر خنس

obeikandl.com

وأبيض من فودى من شعرى ... وحف كأن سواده النفس

والعمر يذبل فى منابته ... غرس ويلبس نضرة غرس

إلى أن قال:

وأقل ما يبقى الجدار إذا ... ما انهد تحت بنائه الأس

يارب إن النار عاتبة ... ولكل سامعه لها حس

لا تجعلن جسدى لها حصبا ... فيه تحرق منى النفس

وارفق بعبد لحظة جزع ... يوم الحساب ونطقه همس

وكقوله فى الشكوى:

أسمنى الدهر للرزايا ... وغير الحادثات قفشى

وكنت أمشى ولست أعيا ... فصرت أعيا ولست أمشى

كأننى إذ كبرت نسر ... يطعمه فرخه بعش

ومن دعاباته فى ذلك:

نومى على ظهر الفراش منغص ... والليل فيه زيادة لا تنقص

من عاديات كالذئاب تذاءبت ... وسرت على عجل فما تتربص

جعلت دمى خمرًا تداوم شربها ... مسترخصات منه مالا يرخص

فترى البعوض مغنيًا بربابة ... والبق تشرب والبراغيث ترقص

وكانت تثور نفسه ثورانًا وتغلى غليان المرجل فتنطق بالشعر وكأنه زاهد فى صومعة. أو ناسك فى دير أو تقى من كبار التقاة. فيقول:

obeikandl.com

بيــتك فيــه مصــرعك وفى الضـريح مضجعك
غـــرتك دنيـــاك الـتى لهــا شــراب يخـدعك
هـمت بـحب فـــارك وقلـمــا تمتـــعك
يضـــرك الحـــرص بهـــا والزهد فـيـهـا ينـفـعك
لا تـأمـنن منـيـــــة إن عــصـاها تـقـرعك
مـغـــربك القـبـــر الذى يـكـون منه مطـلـعك
إن فــــرقـــتك تـربة فـالله سـوف يـجـمعك
وللـحـســـاب مــوقف أهــوالــه تــروعـــك
كم جـر مـا أشـقـقت من لمسك منه إصـــبـــعك
فـكـيـف بـالـنـار الـتـى من كـل وجــه تلـذعك
يـراك ذو العــــرش إذا ناديتـــه ويســمـــعك
فـــــثق بـه ولا يكـن لغــــيــره تـضـــرعك

وقد تجـول نفسه جولات فـى ذكر أيامه الماضيـة، فيذكـر كل ما يخطر بباله، ويسـطر الماضى كما يسطـر الكاتب مذكراه فى كـتاب، أو كـما يرسم المصور صورة من ماضيه على اخـتلاف أحواله. وهو يخرج من معنى ليدخل فى معنى آخـر بين جد وهزل، ولكن كل ذلك بصـبغة الـرجل الجاد المفكر، وكأنما تمر أمام القارئ سلسلة حوادث، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها. قال فى إحدى هذه القصائد:

قـضت فى الصبـا النفس أوطارها وأبلـغــهـــا الشـــيب إنـذارها

نعم وأجيلت قداح الهوى   عليها فقسمن أعشارها
وما غرس الدهر فى تربة   غراسًا ولم يجن أثمارها
فأفنيت فى الحرب آلاتها   وأعددت للسلم أوزارها
كميتا لها مرح بالفتى   إذا حث باللهو أدوارها
تناولها الكوب من دنها   فتحسبه كان مضمارها
وساقية زررت كفها   على عنق الظبى أزرارها
تدير بياقوتة درة   فتغمس فى مائها نارها
وفتيان صدق كزهر النجوم   كرام النجائر أحرارها
يديرون راحا تفيض الكؤوس   على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ فى وصف دير وصاحبة هذا الدير ما عندها من خمر، وأبدع فى وصف الخمر بابتكارات عجيبة، وخيالات غريبة. ووصف ملهى من الملاهى وفيه القيان ترقص وتغنى وهو يقص ذلك ويحكيه حكاية، وكأنك جالس فى ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء، ولقد تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة أسلوبه. قال:

وراهبة أغلقت ديرها   فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة   تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمى   فاجرت من الدن دينارها
تفرس فى شمها طيبها   مجيد الفراسة فاختارها
فتى دارس الخمر حى درى   عصير الخمور وأعصارها

obeikandi.com

يعد لما شئت من قهوة ... سنيها ويعرف خمارها
وعدنا إلى هالة اطلعت ... على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم ... تثور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الأسى ... قيان تحرك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها ... وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها ... حساب يد نقرت طارها
وقضب من الشمع مصفرة ... تريك من النار نوارها
كأن لها عمدًا صففت ... وقد وزن العدل أقطارها

إلى أن قال:

ذكرت صقلية والأسى ... يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابى خلت ... وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة ... فأنى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا ... ء حسبت دموعى أنهارها

وشكى فى قصيدة طويلة آلامه فذكرت صبره على ذلك، وذكر غربته، وهجر وطنه، وإن ذلك كان من أكبر محنه. ثم ذكر شكاته من الناس وهو يضرب الأمثال فى أثناء ذلك، وفيما لاقى من الأهوال بانفراده فى عزلته حتى عن خيال كان يزوره. ثم أخذ يتسلى بمدح نفسه ويتغنى بفضلها الجم وذكر لياليه الماضية، وعرج على ذكر وطنه ونكبة بلاده باستيلاء الأعداء عليها وأخذ يصف أهل بلده، وما كان لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب

بأفضل وأجمل ما يصف شاعر قومًا يعتز بهم، ويشرف بالائتمان إليهم. وختم كلامه بالحنين إلى وطنه، والبكاء على أهله. فقال:

تدرعت صبرى جنة للنوائب ... فإن لم تسالم يا زمان فحارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم ... ورضت شموسًا لا يذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة ... إذا لم أنقب فى بلاد الأغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة ... وأنفقت كنز العمر فى غير واجب
يبيت رياش العضب فى ثنى ساعدى ... معارضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى إلا مثلما ... مضاربة يوم الوغى فى الضرائب
فكنت وفدى فى الصبا مثل قده ... عهدت إليه أن منه مكاسبى
فإن تك لى فى المشر فى مآرب ... فكم فى عصى موسى له من مآرب

ثم أخذ يتكلم عما فى نفسه من ذكرى الحوادث الماضية، وخيانة الناس والأيام، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس جميعًا ليثبت بها معانيه ويجسمها للقراء. ولم يخرج فى مجموع أسلوبه عن الأسلوب العربى المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض فى بعض العبارات، وذكر الركب والرحل والنوى وركوبه القلاص وهزالها. كقوله:

أتحسبنى أنسى وما زلت ذاكرًا ... خيانة دهرى أو خيانة صاحبى
تغذى بأخلاقى صغيرًا ولم تكن ... ضرائبه الأخلاف ضرائبى
ويارب نبت تعتريه مرارة ... وقد كان يسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجريبى أمورًا جهلتها ... وقد تجهل الأشياء قبل التجارب

ومن ظن أواه الخضارم عذبة | قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى فى رحل كل نجيبة | تواصل أسبابى بقطع السباسب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم | تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وعجيب تلك العادة التى ابتلى بها الشعراء فى مدح أنفسهم مدحًا يخجل منه القارئ. فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شىء؟ هل هذا من الأساليب الشعرية؟ لعله من وسائل التسلية، على ما فيه من المبالغة والتغنى بمدح النفس. ولكن مهما يكن من شىء فى هذا فإنها بدعة عجيبة فى الشعر العربى وأسلوب غريب.

وبينما الشاعر يكيل لنفسه كيلا، ولا يقنع بشىء منه تراه فاجأك بذكر الخمر ووصفها ومدحها. وإنك لتكاد تثمل من ذلك، وإذا هو ينتقل إلى الكلام فى وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله. فيقول:

ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب | جلا من طلوعى بين زهر الكواكب
متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقى | تصخ فى مقالى لارتجال الغرائب
وكم لى به من صنو ود محافظ | لذى العيب من أعدائه غير عائب
أخى ثقة لا دسة الراح والصبا | له من يدى الأيام غير سوالب
معتقة دع ذكر أحقاب عمرها | فقد ملئت منها أنامل حاسب
إذا خاض منها الماء فى مضمر الحشا | بدا الدر منها بين طاف وراسب
ولو أن أرضى حرة لأتيتها | بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن أرضى كيف لى بفكاكها | من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب

obeikandi.com

إلا فى ضـــمـــان اللــه دار بنوطس ودرت عليها معـصرات الهواضب
أمـثلهـا فى خـاطرى كل سـاعـة وأمرى لهـا قطر الدموع الـسواكب
أحن حنين النـيب للمـوطن الذى مـغـانى غـوانيــه إليـه جـواذبى
ومن يك أبـقى قلبـه رسـم منزل تمنـى له بـالجـــــسم أوبـة آئب

هاذ خلط فى تركيب القصيدة، ولكنه خلط مـعهود عند شعراء العرب، فالقصيدة من هذه الوجهة من الشعر العربى الجميل. على أن هذا شاعر عرف كيف يتكلم عـن شعور، وكيف يـطيع نفسه حـين تدفعه إلى الكلام ليـصور خفاياها ويبين مكنونتها.

وله فى الوصف براعـة معروفـة، واستحـضار عجـيب لصور الأشـياء والتشبـهات، ودقة فى جمع الأشيـاء وتنسيقها، كـأنما تراه يجمعها وينسـقها بيده، أو كأنه يغوص عـلى المعنى الخفى فيأتى به ويضعه فى مـوضعه. ولقد يتكلف أحـيانًا جمع هذه المعـانى، حتى كـأن كل كلمة اختطفت مـن مكانها لتوضع فى مكان آخر. ولكنك تراها كالعـقد يؤخذ من عنق الحسناء إلى عنق الغانية، فلا يفقـد قيمته ولا نضارته وكأنك وأنت تقرأ كـلامه ترى بعينك ما يصف وتحس ما يقول[1]: لأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب. لا يكاد يشعر

---

(١) كما فى قوله يصف شمعة

قنـاة من الشـــمع مـركـــوزة لهـــا حـــرية طبـــعـة مـن لهب
تحـــرق بالنـار أحـــشـــاهـا فــتـــدمع مــقلتــهـا بـالذهب
تمـشـى لنـا نـورهـا فى الـدجـى كـما يتـمشى الرضى فى الغـضب
عـــجـبت لآكـلة جـســمـهـــا بروح تشـاركــهـــا فى الـعطب

وكما قال يصف ساقيه:

وسـاقــيــه تسـقى النـدامى بمدها كؤوسا من الصهباء طاغية السكر=

بشىء إلا ذكره فى شعره، ولا تكاد تمتلئ عينه بمنظر إلا وصفه كأنه كان مملوءًا بذلك، أو كأن هذه كانت كل حياته، لذلك كان يقول فى المعنى الطريف، كما يقول فى المعنى المبتذل، ولكن الابتذال يضيع أمام شعوره بالجمال وحسن صناعته.

ولا تكاد تقف له على غور فى الوصف، ولا على أسلوب واحد، لأنه يميل إلى الاختراع: ويصف الصيد والليل، ويذكر رفاقه، ثم يعرج على السرور والكلام فى الخمر، ثم يرجع إلى الطبيعة، فيحن إليها، ويصف طلوع الصبح. ثم يصف الخيل وكلاب الصيد وحركاتها ووثباتها. وكثيرًا ما يكون وصفه حقيقيًا، أكثر منه خياليًا كأنما يرسم ما يرى. كما قال:

وليلة حالكة الإزار ... مدت جناحًا كسواد القار
تحجب عنا غرة النهار ... عقرت فيها الهم بالعقار
بجسم ماء فيه روح نار ... فى مجلس ضم بنى الفخار
كهالة تضحك عن أقمار ... تزاحمت بأنجم درارى
من كل نمر فى حمى الذمار ... مهين مال ومعز جار
يسقون من ساطعة الأنوار ... كثيرة الأسماء والأعمار

إلى أن قال:

=يعود فيها كل جام كأنما ... تضمن روح الشمس فى جسد البدر
إذا قصدت منا نديمًا زجاجة ... تناولها رفقًا بأنملة العشر
ويرسلها فى مائها فيعيدها ... إلى راحتى ساق على حكمه تجرى

قــمنا لننـقى عـــرض الخــمـــار   عن جوهر الأنفس فى الصــحارى
بكــل طرف ســـــهلب مـطار[1]   مـــوجــــة الإقــبــــال والأدبار

إلى أن قال:

فــمـــر بى غـــيم من الغــبـــار   يشــكل فــيـــــه أحـــرف الآثار
كــــــأنما يطــلبــــــه بثــــــأر   مـــاذا يــريد الظـبى بالــفــــرار
يحــذفـــه بـيـــر مع صــغــــار   حــذف المولى باليــد اليـــســـار
فــمــن ابن ريح فى قــمــيص نار   وهو مع الإجــهــــاد والإضـــرار
فلــو ترانــا فى انتــــــزاع الدار   فى روضــــة كـــالغــــادة المعطار
نأكل مــن صيـــد أبى العـــقـــار   ونشـــرب الصـــهـــبــاء بالكبـــار
مـــا كـنت إلا خـــالع الـعــــذار

ويصف مجلس أنس وما يدور فيه، فتجـده ينسى أحيانًا نفسه المظلمة، ويكب على اللهو والمجون وكأنه من أكبـر رجاله، ويذكر العبارات التى تدعو إلى الخوض فى غـماره، وإلى انتهاز هذه الأوقـات حتى يعد فوات الشـباب الذى يبكى عليه، بما يكون أرق منه ولا أدعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء، ويسلى نفسه بهذا الكلام، ووصف هذه المجالس، ثم يرجع على نفسه بالعبرة والعظة أو تعود إليه نفسه المتشابة أثناء هذا الهرج والمرج فيفيق من ثورة سروره ومجونه، ويذكر أنه وصاف وصانع من صناع الكلام، وأنه ليس من أهل هذه المجالس، ولا من شـراب الخمور، ويرجع إلى التـقوى والندم على الذنوب. فيقول:

(١) سهلب طويل عظيم ومطار عداء سريع السير.

حـبـذا فـتـــين صـدق عـرسـوا بعـذارى من سـلافـات الخـمـور
عـربد الصحـو عـليـهم بالأسى فـــاتقـاه السكر عنهم بالســرور
عـمـروا ربع الصبـا من قبل أن يتـــمـشى فـيـه بالشـيب دثور
إن للأعــــمـــار أعـــجـــازًا إذا بلـغت لم تـثن منـهن صـــدور
كل نافى[1] العـمـر فى شـــرته للصـــبـــا نـــار وفى الوجنـة نور
يقـــتنون الـعـــيش من قـــانيـة ذات عـمر كـثـرت فيـهـا الدهور
أطلع الـســاقى عـشـــاء مـنهم أنجم الكاسـات فـى أيدى البـدور
عـــــد بـالأكـــواب عنـى أن لى فى يـد الآنس عـنهـن تفـــــور
عـمــــر الشـيب الدجـى من لمتى بنجـــوم طلع لـيــست تـغـــور
لا نشـــور لشـــبـابى بـعـد مـــا مات من عـمرى إلى يوم الـنشور
خـضـــاب الشـيـب لا أقـبله إنه فى شـــعـــرى شـــاهد زور
أنا من وجـــدى بأيام الصـــبـــا أذرف الدمـع رواحـــــا وبكـور
فـكـأنـى ذو غـلـيـل تـلـتـظـى لوعـــة منـه إلى مـــاء الثـــغـــور
أصف الـراح ولا أشـــــربهـــــا وهى بالشـدو عـلى الشـرب تدور
كـــــالذى يـأمـــــر بالـكر ولا يصطلـى نار الوغى حـيث تـفـور
فـــسواه بـين إخـوان الـصـفـــا وذوى اللهـو مـغـيبى والحـضـور
أنا مـن كـــــسـب ذنوبـى وجل وإن اسـتـغـفـرت فـالله غـفـور

---

(١) هكذا فى الأصل.

وقد اشتهر بوصف القصور. كما قال:

كم شاخص فيه يطيل تعجبًا   من دوحة نبتت من العقيان
عجبًا لها تسقى الرياض ينابعا   نبعت من الثمرات والأغصان
خصت بطائرة على فتن لها   حسنت فأفرد حسنها من ثان
قس الطيور الخاشعات بلاغة   وفصاحة من منطق وبيان
فإذا أتيح لها الكلام تكلمت   بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة   فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على خوض لها فكأنها   منها إلى العجب العجاب روانى(١)
فكأنها ظنت حلاوة مائها   شهدا فذاقته بكل لسان

إلى أن قال:

كم مجلس يجرى السرور مسابقا   منه خيول اللهو فى ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحة   فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه فى سمكها علوية   وقبابه فلكية البنيان

وكقوله:

وإذا نظرت إلى غرائب سقفه   أبصرت روضًا فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى   حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعة أقلامها   فأرتك كل طريدة تصويرا

---

(١) كذا فى الأصل.

obeikandi.com

وكـأنمـا للشـمـس فـيـه ليـقـة   مـشقـوا بها النـزويق والتشـجيـرا
وكـــأنمـا للأزورد مـــــخـــرم   بالخط فى ورق الـسـمــاء سطورا
وكـــأنما وشـــوا عـليــه مـــلاءة   تركـوا مكان وشـاحهـا مـقصـورا
يا مـالك الأرض الذى أضـحى له   ملك السـماء على العـداة نصيـرا
كم من قـصـور للـملوك تقـدمت   واسـتوجـبت لقـصورك التـأخيـرا
فـعـمـرتهـا وملـكت كل رئاسـة   منهـا ودمـرت العـدا تدمـيـرا(١)

وقد يتغزل فيخاطب حبيبته بما فى نفسه من ألم، وما يلاقيه فى سبيلها من شماتة الأعداء، وما يتمناه من الصبر فى سبيل ذلك. ثم يستحلفها بما لها من الدلال أن تكف عن أسر قلبه. وهو يستعطفها ويدل فى آن واحد. فيقول:

عـــذبت رقـــة قلـبى   ظلمًـــا بقـــسوة قـلبك
وسـمت جـسمى سقـمـا   ومـــا شــفـيت بطـلبك
أســـخط كـل عـــدو   رضـــيـتـــه لمحـــبك
من لى بصـــبر جـمـــيل   علـى رياضـــة صـــبك
فـــيـا تشـــوق بعـــدى   إلـى تنـسـم قــــــربـك
ووجنـة غــمــتــهـــا   فى الـورد صنعـــــة بك
لقـــد جنحـت لسلـمى   كـــمـــا جنحت لحــربك

(١) راجع القصيدة فى الديوان المطبوع فى رومة ص ٤٨٢.

obeikandl.com

فبالدلال الذى زاد   فى ملاحة عجبك
فكى من الأسر قلبا   عليه طابع حبك
ونعمينى بعتبى   فقد شقيت بعتبك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد يطيل فى ذلك وربما لم يكن لن ميزة فى غير الأسلوب، وربما كان مدحه كغزله، ولكنه مدح جميل على الرغم ما يشعر به القارئ من الثرثرة. غير أن المعانى تنهال عليه انهيالا فيعذب الكلام. كما قال:

غيرته غير الدهر فشاب   ورمته كل خود باجتناب
فغدا عند الغوانى ساقطا   كسقوط الصفر من عد الحساب
وتولى عنه شيطان الصبا   إذ رماه الشيب رجمًا بشهاب
وكأن الشعر منه سعف   يلتظى فيه شواظ ذو التهاب
أيها المغرى بتأنيب شج   سلط الوجد عليه هل أناب
هام لاهمت من الغيد بمن   حبها عذب وإن كان عذاب
لمت لا لمت عميدا قلبه   عن سماع اللوم فيها ذو انقلاب
والهوى باق مع المرء إذا   كان من عصر الصبا عنه ذهاب
بأبى من أقبلت فى صورة   ليس للتائب عنها من متاب
كل حسن كامل فى خلقها   ليتها تنجو من العين بعاب
فالقوام الغصن والردف النقا   والأقاح الثغر والطل الرضاب
ظبية فى العقد إما التفتت   ومهاة حين ترنو فى النقاب

obeikandl.com

ويذكر الخمر وكأن الناس جميعًا سكارى، وفى كل رأس نشوة وحيرة. وكأن الخمـر حلال لا حرام، أو كأنهـا أكمل شىء فى الوجود، لأنه يصـفها بأكمل الصفـات وأجمع سمات الكمال واللذات. ويـخيل إلى الإنسان أنه لم يبق كلمة تمت إلى الخمـر بقرابة إلا ذكرها، أو معنى يدب فى النفس بدبيـبها إلا قاله، والقارئ يثمل بذكر الخمر كما يثمل بأسلوب الشاعر وعذوبته، وكأن أحدًا لم يقل مثله فى ذلك كما قال[1]:

---

(١) أو كما قال الشاعر:

أشـــهـــاب فى دجى الليـل ثقب ... أم ســـراج نـاره مـــاء العـنب
أم عـــروس فـــوق كـــرسى بدا ... يجـتليهـا اللهـو فى عـقد الحـبب
يا شـقـيق النفس أنفـاس الصبـا ... بردت والصـبـح لا شك اقـتـرب
قم أمـتـــعك بعـــيش لـم تقع ... فى صـــفـــاء منـه أقـــذاء النوب
فلقـــد حـان لضـوء الفـجـر أن ... يضـرب السـرحــان فـيـه بذنب
فـــأدرها تحـت ليل سـقـــفـــه ... ظلمـــة فـــيـــهـــا من النـور ثقب
أو على بـرق سمـــاء ضـاحك ... غـــيـــمـــة بالـدمع منه منسكب
سكـر الروض وغـنى طـيـــــره ... أفـلا ترقـص قـامـات القـضب
هات درا فـــيــه يـاقـوت وخـذ ... جـسـم مـاء حـامـلا روح لهب
قـهـوة لو سـقـيـتـهـا صـخـرة ... أو رفت بالـلهـو منـهـا والطرب
يجـــذب الروح إليــه روحـــهـــا ... ألطف الشيـئين عند مـا انجـذب
ولدت بالشـيـب فى عنقـو دعـا ... وهى اليـم عـــجـــوز لم تـشب
كلمــــا مـــوجـــهًـــا المزج أرت ... حـبب الفـضـــة فى مـاء الذهب
مـــا درى خـمــارها عـاصــرها ... فـحديث الصـدق فيـها كـالكذب
خنذريـس عــتــقت فى أجـــوف ... من دم الـعـنقـــود مملوء نـخب
ومـليـح الدل إن عـل بهـــــا ... قلت نجـم فى فم البـــدر غـــرب
شـعشع القـهوة فى صـوب الحيـا ... وســقـــانى فـضـلـه مما شـــرب
فـتـلاقى فى فـمى من كـأسـه ... مـــاء كـــرم وغـمـــام وشـــفـت

obeikandi.com

وجسم له من غيره روح لذة | سليل ضروع أرضعت حلب السحب
إذا قبض الإبريق منه سلافة | تقسمها الشراب حوليه بالقعب
شربنا وللإصباح فى الليل غرة | تريد اندماجًا بين شرق إلى غرب
على روضة تحيا بحية جدول | يفىء عليه ظل أجنحة القضب
بأزهر يجلو اللهو فيه عرائسًا | كراسيها أيدى الكرام من الشرب
كأن لها فى الخمر حمر غلائل | مزررة الأطواق باللؤلؤ الرطب
وكم من كميت اللون تحسب كأسها | لها شفة لعساء ذات لمى عذب
إذا مزجت لأنت لنا وتحولت | بأخلاقها عن قسوة الجامح الصعب
جرى فى عروق النار ماء كأنما | رضى السلم منها يتقى غضب الحرب
وإن نال منها ذو الكآبة شربة | تسربت الأرواح منه إلى القلب

obeikandl.com

ابن برد الأصغر[(١)]

بنو برد أسرة معروفة بالأدب كبنى شهيد وبنى حزم. وكانت هذه الأسر جماعات وأحزابًا أدبية تستخدم عمالا للملوك والأمراء، يكتبون لهم ويساعدونهم فى أغراضهم. والأمر أنفسهم أدبًا وشعرًا، فكانت تربطهم بهؤلاء صلة الأدب، للاستعانة بهم فى مسائل السياسة والكتابة فيما يكون من أمر الدولة والاستفادة بآرائهم، ولاحتياجهم إليهم فى أوقات الطرب ومجامع اللهو والمسامرة والشرب والحديث والأسفار. ولذلك كان الوزراء جميعًا وأدباء وشعراء ورجال جد ولهو. وكانت هذه المجامع تحتوى على كثير من الناس المختلفى المذاهب والعقائد فى كثير من المسائل، كما كانت مسرحًا للدسائس والملق، ومثارًا لغضب الملوك والأمراء، وباعثًا من بواعث الرضى، وجد الناس بالخطوة عند الرؤساء.

(١) هو حفيد أبى حفص الأكبر كاتب يحيى بن على لن حمود الذى خرج على عمه القاسم بن حمود وأسره ستة أعوام ثم قبض عليه ستة عشر سنة ثم قتله خنقًا سنة ٤٥١ هـ. وكان بين يحيى هذا وعمه حروب ومنافسات طالت زمنًا وانتصر مكل منهما على صاحبه مرات وخذل مرات (راجع المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) ولم يكن هناك وقت أكثر اضطرابًا من هذا الوقت الذى خرجت منه السلطة من بنى أمية ثم رجعت إليهم ثم خرجت منهم نهائيًا إلى ملوك الطوائف وكان أبو حفص الأكبر من أشهر الأدباء (توفى سنة ٤٢٨ بسرقسطة) ومن كتاب ديوان الأشاء فى دولة العامريين وكتب لللمظفر بن أبى عامر. وكان من أقطاب البيان وله عدة رسائل شهيرة تدل على طول باعه فى الساسة. (ومن رسائله الشهيرة ما كتبه لعبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر وكان قد استبد بالأمر وحجر على الخليفة هشام الأموى وأراد أن يستأثر بما بقى من رسوم الخلافة. فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده فأجابه وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يومًا مشهودًا فكتب عهده من إنشاء أبى حفص بن برد.

obeikandi.com

بهذا وغيره رقى الأدباء إلى مراكز الوزرة، وقبضوا على أزمة الأمور، كما سبق وتكلمنا عن بعضهم. وقد انتشرت هذه المجالس الأدبية وكثر الأدباء فيها، وانتمى إلى الأدب والكتابة كثير ممن كانوا يرون أنفسهم أهلا لأن يجولوا فى هذه الميادين. وعرف بنفسه من لم يكن معروفًا، واستعان على ذلك بالحاجة إلى أمثاله. وكان ذلك وقت أن كانت الفتن يدب دبيبها فى جسم الدولة هناك، والفرقة بين الناس تعمل فيهم، والأمة آخذة فى التدهور، وسلطان بنى عامر قد قام على دعامة من الدسائس والخداع، والمنصور يحاول هدم ملك بنى أمية، وكانت بقية العلوم والآداب من عصر عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم لا تزال وافرة. فاندس فى هذه الفئة نفر من الأدباء أرادوا أن يعيشوا من ألسنتهم. فقصدوا الأمراء والملوك، فرحب هؤلاء بهم وأفسحوا لهم صدورهم. فكان من جراء ذلك انتعاش حركة الأدب فى عصر كانت الدولة ماثلة فيه إلى السقوط، والدسائس تتطلب مثل هؤلاء الكتاب والشعراء. فطال عمرهم بطول الحاجة إليهم. وهذا سر بقاء الأدب فى الأندلس حافظًا شكله ومكانته إلى أواخر الدولة هناك. ومن الذين عاشوا فى هذه البيئة وتربوا فيها وكانوا يرتعون فى ساحاتها بنو برد. وأشهرهم أبو حفص الأكبر وحفيده أحمد أبو حفص الأصغر.

كان أبو حفص بن يرد الأصغر من كبار الكتاب والأدباء ومن النبهاء الأذكياء، ومن الشعراء أصحاب الديباجة الحسنة وأهل الظرف فى الشعر. أخذ عن جده أبى حفص الأكبر وسلك مسلكه. وكان يفخر به وبالانتماء إليه[1] وهو من المقدمين بين الأدباء والشعراء ذكره ابن بسام بقوله.

---

(١) حيث يقول:

من شاء خبرى فأنا ابن برد ... حد حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناء جدى ... من نظم الألفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد ... وكف بالأقلام أيدى الأسد

"كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته فلك البلاغة الدائر. ومثلها السائر. ينفث فيها بسحره. ويوردها بناصع نظمه وبارع نثره.

وكان يفر بامتلاك أعنة البلاغة[1]. فقد كان الأدب ولا سيما الشعر والنثر أشبه بما يسمونه الآن فنون الجمال، التى تقاس بها أذواق الأمم الفنية ودقة الإدراك لديهم، وفهمهم أسرار الوجود الخفية.

وأسلوبه النثرى هو فى جملته أسلوب خطابى، يسلك فيه مسلك توارد الجمل والمترادفت ليملك الأسماع، ويؤثر فى نفس القارئ. وإن كان كثير من هذه الجمل مكرراً خاليًا من معنى جديد. وهذا طريق طويل، ولكنه أحد طرق البلاغة الذى يسمونه بالأطناب، ويريدون أنه فى نهايته يصيب الغرض المقصود من التعبير، ويوصل إلى ما يؤدى إليه الإيجاز: من معرفة مواقع الكلام الدال على المعنى توًا. وقد يكون هذا الأسلوب آنق فى لفظه، لكثير اختيار الكاتب الجمل الفصيحة وأثبت فى ألذهن، لكثرة تردد المعنى الواحد فى ذهن السامع بعبارات مختلفة.

---

(١) كتب يقول فى كتاب سماه (سر الأدب وسبائك الذهب) . . . وأصبحنا بعد نرمى أغراض الكلام بأسهم أزرها شديد. ونعقد مناظم القول بألن برىء منها التعقيد. ونسيل من المنثور جداول النطاف، ونجيد من المنظوم جواهر الأصداف، وكان جدى أحمد بن برد رحمه الله لطول ممارسته هذه الصناعة برحاء اللهب، ونهمة الطلب. ودعة الزمان وإقبال السلطان . . . كأنه وقد أقبسنى من مصابيح وصاياه فيها . . وصرف لى ضوء من هداياته من أفاء الله به نفعًا وأوسع معها إرشاداً. ثم إن الأيام إثر مصابه. وبعد ذهابه. باكرتنى بصروفها. شغلتنى . . . يرفع خروقها. ومكابدة ضيقها: وسوق الأدب قد كسدت، والعى أمضى من البيان، والإساءة أحد من الإحسان. وأفلامنا يومئذ فى عطلة. ومحابرنا فى عقلة وكتابنا فى رقدة . . إلخ . . .
راجع الجزء الأول من الذخيرة.

وأدل على قدرة الكاتب وسعة خياله، لكثرة ما يجد من هذه الألفاظ ذات المعنى الواحد، وعلى الافتنان فى معرفة الفرار من ملل التكرار، وعلى أبرز هذه الجمل المتحدة المعنى كأنها مختلفة الدلالة، مما لا يقدر عليه الموجز بإيجازه المملوء بالعبارات الدقيقة والمعنى الكبير فى الألفاظ القصيرة لعدم ضلال الفكر فى كثرة الجمل وإدراك معانيها.

أما أبو حفص فإنه من أصحاب الأطناب، الذين يميلون إلى قرع الأسماع بنغمات البلاغة فى كثرة الجمل على المعنى الواحد. وهذا كثير من نثره، وربما كان ميالا إلى زينة اللفظ أكثر من ذكر المعانى، ولكنه فى جملته حسن الديباجة، وأسلوبه من أحسن ما يكون من نوعه.

والظاهر أنه كان يعشق هذا الأسلوب. فإن نثره يكاد يكون كله من هذا النوع مفصلا، جملا جملا، وكأنما كل جملة مستقلة عما قبلها وما بعدها، كالحكم والأمثال(١). وله كثير من النثر الصناعى المتكلف، وكأنه ضرب من اللعب بالألفاظ والعبث بصناعة الكلام(٢).

وليس أدل على التكلف من مثل هذا الكلام، ولا أغرب من هذه الأساليب التى يحسبونها من سعة الخيال وغنى اللمة. على أن ذلك لا يخلو

---

(١) من ذلك قوله فى وصف القلم والمداد والكتاب، ويقولون أنه أول من ابتكر الكتابة فى هذا الموضوع، المداد كالبحر. والقلم كالغواص. والألفاظ كالجواهر. والقرطاس كالسلك والدواة كالقلب. والقلم خادم له. ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة. ويلفظ نوراً.

(٢) كقوله: أظلم لى جو صفائك. وتوعرت على أرض إخائك . . فليت شعرى ما الذى أقصى مهجة الود. وأذبل زهرة ذلك العهد . . . وإن رغم أنف القلم، وانزوت أحشاء القرطاس . . . . إلخ.

أحيانًا من أثر فى النفس ونغمة لذيذة فى السمع. تمر من النسيم العليل. كقوله فى الاستزارة.

"اليوم يوم بكت أمطاره. وضحكت أزهاره. وتقنعت شمسه. وتعطر نسيمه. وعندنا بلبل أزج وساق غنج. وسلافتنا سلافة أخدان. وسلافة دنان قد تشاركنا فى الطباع. وازدوجنا فى إثارة السرور. فأخرق إلينا سرادق الدجى. تجد مرأى لا يحسن إلا لك. ولا يتم إلا بك. الزيارة بالليل أحفى. وبالزائر والمزور أخفى. وقد سدل حجابه. ووقع قرابة. وتبرقعت نجومه بغيومه. وتلفعت كواكبه بسحائبه. فاهتك إلينا سترًا. وخض إلينا بحرًا. . . "

ومن هذه الأساليب الفنية فصول كتبها فى تفضيل الورد على غيره من الأزهار وقالوا أنه مخترع هذا النوع، وأول من كتب فى هذا الموضوع(١).

(١) وقد عارضه فى هذه الرسالة الأديب أو الوليد إسماعيل بن محمد المعروف بحبيب. وكان أبو الوليد حبيب هذا من الممتازين بالكتابة فى زمنه؛ أديبًا مشهودًا له بالفضل. تلميذًا لابن الأبار أحد شعراء المعتضد بن عباد، وقالوا أنه كان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الحقائق. وينثر النثر الرائق. واستوزره جد المعتمد بن عباد وكان يصغى إلى مقاله ويرضى بفعله، وهو ما جاوز العشرين (نفح الطيب طبع أوروبا جزء ٢ ص ٢٩٠) وكان شاعرًا أكثر شعره فى الأزاهر ولم يذكر ابن بسام من رسالته التى عارض بها ابن برد الأصغر إلا طرفًا صغيرًا. قال فيه: "وأما رسالة أبى الوليد فخاطب بها المعتمد يومئذٍ قال فيها: فأول من رأى نور ذلك الكتاب وعين الخطاب. فواو" فصل الربيع. هى خيرة الورد فى الوطن. وسحابته فى الزمن. ولما أن قرأته أنكرت ما فيه. وبنيت على هذه مبانيه، ونقد معانيه، وعرفت الورد بما عليه فيما نسب إليه، من استحقاقه مالا يستحقه، واستئهاله، وعلمت أن مخاطبته من أخطأ تلك الخطيئة وأدنى من نفسه تلك الدنيئة. تدبير دبرى، ورأى غير مرضى، فكتبت إلى الأقحوان والخيرى الأصفر كتابًا، قالت فيه لو استحق الورد أمامه؛ واستوجب خلافة. لبادرتها آباؤنا ولعقدها أوائلنا التى لم تزل تجاوره فى مكانه. وتجىء فى أوانه، ولا ندرى لأى شىء أوجبت تقديمه. ورأت=

أما رسالته فى ذلك فهى رسالة نادرة فى موضوعها وأسلوبها، تدل على سعة خيال كاتبها، وحسن ذوقه فى اختيار الألفاظ ومعرفة مواقع الكلام، وأنه كان من الكتاب الذين يميلون إلى الأساليب القصصية. وربما لم يكن لهذه الأساليب نظير فى بلاغة المشرق، لأن أهل الأندلس هم الذين اخترعوا الكلام فى الأزهار على هذا النحو.

تصور ابن برد أن الأزهار والرياحين قد اجتمعت فى مجلس واحد، وقام أحدها يتكلم ويخطب بين أبناء جنسه. وقد دل الكلام على عقل الكاتب وأنه من أصحاب المعتقدات، أو أنه فى كلامه هذا يمثل ميول العقول فى عصره. وذلك أنه افتتح كلامه بما يشبه الحمد أو ما يشبه التفكير فى الوجود والمخلوقات فقال:

"إن صنوفًا من الرياحين، وأجناسًا من البساتين، جمعها فى بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها، وهاجس هجس فى ضمائرها لم يكن له بد من التفاوض فيه، والتحاور والتحاكم من أجله والتناصف، وأجمعت على أن ما يثبت فى ذلك من العهد، ونفذ من التحالف ماض على ما غاب شحه ولم

=تأهيله. بما غيره أشكل له وأحق به. وهو نور البهار والبادى فضله بدنو النهار. والذى لم يزل عند علماء الشعراء وحكماء البلغاء، مشبهًا بالعيون التى لا يحول نظرها، ولا يجوز حورها، وأفضل تشبيه الورد بحمرة الخد عند من تشيع فيه. وأشرف الحواس العين إذا هى على كل متول عون وليس الخد حاسة فكيف تبلغه رسائله

أين الخدود من العيون نفاسة ورئاسة لولا القياس الفاسد

وأصبح تشبيه الورد - وأقربه من الحق، فول ابن الرومى فى الشعر الطائى، ولقد وافق ووفق وشبه فحقق" وطول أبو الوليد فى رسالته هذه وختمها بمبايعة الأزهار البهار ورجع عن تقديم الورد فى خبر طويل.

يأن منها وقبة فقام منها قائمها فقال: يا معشر الشجر، وعامة الزهر، إن الله تعالى لطيف خبير، خلق المخلوقات البريات، باين بين أشكالها وصفاتها، وباعد بين منحها وأعطياتها، فجعل عبدًا وملكًا، وخلق قبيحًا وحسنًا، فضل بعضًا على بعض، حتى اعتدل بعدله الكل، واتصل على لطف قدرته الجميع، وإن لكل واحد منها جمالا فى صورته، ورقة فى محاسنه، واعتدالا فى قده، وعبقًا فى نسيمه ومائية فى ديباجته".

ثم تطرق من ذلك الكلام فى الزهور وما لها، وما اختصت به من الجمال والمنزلة فى الاجتماع ونفوس الناس فقال:

"وقد عطفت علينا الأعين، وثنت إلينا الأنفس، وزهت بحاضرنا المجالس، حتى سفرنا بين الأحبة، فوصلنا أسباب القلوب، وتجملنا لطائف الرسائل، وصبغ فينا القريض، وركبت على محاسننا الأعاريض".

ثم عمل على نقد الصفات والأخلاق الغير المحمودة بقوله:

"فطفح بنا العجب، وأزهى بنا الكبر، وحملنا تفضيل من فضلنا، رائثار من آثرنا، على أن نسيم الفكر فى أمرنا والتمهيد بعواقبنا، والتطبيب لأخبارنا".

وقد اقتبس ذلك من أخلاق الإنسان. وهى طريقة جميع أصحاب الأمثال والأساطير، الذين يتكلمون على ألسنة الحيوان أو النبات. ولكن الظاهر أن الكاتب لم يكن يقصد بذلك لا الوصف أو سعة الخيال، لا العبرة والعظة. غير أن هذا باب من أبواب الأساليب الاجتماعية، أو القريبة من ذلك وخروج من الدائرة المعروفة، دائرة الرسائل والمكاتبات، ودليل على رقى

الفكر، وترك القديم، وباب جديد من أبواب المنثور، الذى يدخل منه الكتاب إلى القصص والحكايات.

ثم أخذ بعد ذلك فى تفضيل الورد وبيان مزاياه. فقال:

"وادعينا الفضل بأسره، والكمال بأجمعه، ولم نعلم أن فينا من له المزية علينا، ومن هو أولى بالرئاسة منا: وهو الود، الذى أن بذلنا الإنصاف من أنفسنا، ولم نسبح فى بحر عمانا، ولم نمل مع هوانا، دنا له، ودعونا إليه، فمن لقيه منا حياه بالملك، ومن لم يدركه زمن سلطانه، ودولة أوانه، اعتقد ما عقد عليه، وولى ما دعا إليه، فهو الأكرم حسبا، والأشرف زمنًا، أن فقد عينه، لم يفقد أثره، أو غاب شخصه لم يغب عرفه، وهو أحمر، والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح، وهو الياقوت المنضد، فى أطباق الزبرجد، وعليها فوائد العسجد، والأشعار من محاسنه حسنت، وباعتدال جماله وزنت".

وقد دل على أوصاف الكمال التى فى الورد، وأخذ ينمقها بدقة أسلوبه ومهارته. ثم استرسل فى الكلام على هذا النمط، وذكر أنواعًا أخرى من الزهر وأنطقها بالكلام. فقال:

"وكان ممن حضر هذا المجلس، من رؤساء الأنوار والأزهار، النرجس الأصفر، والبهار والبنفسج، والخيرى النمام. فقال النرجس الأصفر. والذى مهد لى حجر الثرى، وأرضعنى ثدى الحيا، لقد جئت بها أوضح من لبة الصباح، وأسطع من لسان المصباح، ولقد كنت أسير من التعبد له، والشغف به، والأسف على تعاقب الموت دون لقائه، ما انحل جسمى، ومكن سقمى، وإذ قد أمكن البوح بالشكوى، فقد خف ثقل البلوى. ثم قام البنفسج فقال

على الخبير سقطت، أنا والله المتعبد له، والداعى إليه، المشغوف به، وكفى ما بوجهى من ندوب، ولكن التـأسى بك آنس. ثم قام البهار فـقال: لا تنظروا إلى غضارة منبتى، وتضارة رونقى، وانظروا إلى وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه.

ولولا كثرة الباكين حـولى على إخوانهم لقتلت نفسى

ثم قام الخيرى فقال: والذى أعطاه الفضل دونى، ومد له بالبيعة يمينى، ما اجترأت قط أجلالا له واستـحياء منه، على أن أتنفس نهارًا، أو أساعد فى لذة صـديقًا أو جـارًا، فلذلك جعلت الليل سـترًا، واتخـذت حوائجـه كنا" وجعلها تتناقش واتتنافس. ثم تم بعد ذلك اتفاقهـما فى مجلس عام، وكتبت بذلك صكًا اعتـرافًا منها بفضل الورد، وإطاعـته. وجعلته رئيسًـا لها، تطيع أمره ونخضع له، فقال:

"فلما استوت آراؤها، قالت أن لنا أصحابًا، وأشكالا وأترابًا، لا نلتقى بهـا فى زمن، ولا نجاورها فى وطن فـهلم فلنكتب بذلك عـقدًا، ينقـذ على الأقاصى والإدانـى فكتب رقعـة، ونسختـها: هذا مـا تحالفت عليـه أصناف الشجر، وضـروب الزهر، وسميهـا وشتويها ربيعـها وقيظيهـا، ما نجمت من تلعة أو ربوة، وتفـتحت من قرارة أو حـديقة، عندما راجـعت من بصائرها، وألهـمت من مراشـدها، واعـترفت بما سلف من هـفواتهـا، وأعطت للورد قيادها، وملكته أمرها، وعرفت أنه أميرها المقدم لخصاله فيها، والمؤمر لسوابقه عليها، واعتقدت له السمع والطاعة، والتزمت له الرقة والعبودية، وبرئت من كل زهر نازعه المبـاهاة له، والانتداء عليه فـى كل وطن، ومع كل زمن. فإنه زهرة قضى عليـها لسان الأيام هذا الحلف، فلتـعرف أن إرشادها فيـه، وقوام أمرها به" .

ذلك من الأساليب الجديدة فى اللغة العربية، وليس أدل على سعة الخيال ومتانة البلاغة ورقى الآداب من هذه الأساليب القصصية. لأن كل أدب أو بلاغة لا تحتوى على القصص وتمثل وتبين نفوس الكتاب وغيرها من الأسرار الإنسانية، التى لا تظهر إلا فى مثل هذه الموضوعات، تكون آدابًا ناقصة أو بلاغة مقصورة على كتابها وشعرائها. ولا تكون هذه الأساليب إلا فى أمة تربت أخيلتها وعقولها تربية علمية فنية. ولقد ظهرت بوادر ذلك فى بلاد الأندلس عند بعض الكتاب، وخصوصًا فى القرن الخامس حيث انفتحت أمام العقول أبواب من الخيال، بسبب ما وجد هناك من الترف والبذخ وأبهة الملك. ولقد كان هذا الباب الذى ولجه الكتاب فى الأندلس يصل بهم إلى طريق جديد لم يسلكه كتاب العرب فى المشرق، غير أن هذا الابتداء لم يستمر، ولم يجد له أنصارًا كثيرين، لعدم اعتيادهم هذا النوع من الكتابة، ولأن الكتاب والأدباء لم يتسن لهم بعد اقتباس هذه الأساليب القصصية. فكانوا يحتاجون إلى زمن طويل لصقلها فى عقولهم والتعود على فهمها. ولقد كان أيضًا من الأسباب التى لم تدفع الكتاب إلى السير فى هذا الطريق أن الدولة لم تدم طويلا، والملوك الأدباء ابتدأوا يختفون وقت ظهور هذا الأسلوب.

ويلاحظ أن هذا الأسلوب القصصى بدأ يظهر بشكل خيالى أكثر منه بالحقائق التى تلمس النفوس. وكان لابد أن يبتدئ بذلك لدى أمة ليس لها عهد بهذا. وقد كانوا يريدون الدخول فى الموضوعات الاجتماعية، فلم يجدوا أمامهم نماذج يقفون أثرها، غير ما ابتكره أبو العلاء فى رسالة الغفران من جم الأدباء والمناقشة مع بعضهم بعضًا فى مسائل اللغة والأدب. ولكن يظهر من

كثير من المكاتبات والرسائل أن الأسلوب القصصى كان يتسرب إليها شيئًا فشيئًا، وإن رسائل العتاب وغيرها تحتوى على كثير من الملاحظات الفكرية المتصلة بأحوال الناس والاجتماع. وهذا على ضعفه وقلته يعد من الأطوار التى تخطاها النثر فى اللغة العربية. وكل ذلك يدل على تحرك العقول وميلها إلى حب الجديد. والأساليب التى كتب بها هؤلاء الكتاب. أساليب حسنة التركيب، جميلة العبارات، تدل على ابتكار الكاتب وشدة عارضته. وأنه وجه من وجوه الأدباء فى ذلك العصر.

وقد كان ابن برد شاعرًا أيضًا، وربما كان شعره أفضل من نثره، لأنه ميال إلى الصناعة فى الكلام، والصناعة أمرًا على النفس فى الشعر منا فى النثر. وكل شعره أو جله قطع صغيرة فى الغزل. وشعره خفيف الروح، عذب التذوق كأنه نغمات موسيقية، أو فكاهات أو مسامرات. وله معانى ظريفة أخذها وتصيدها ونظمها، وألبسها لباسًا من صناعته. كقوله:

أبدًا تأتى بعتب ... دون أن آتى بجرم
بيننا فى الحب قربى ... ستم عينيك وجسمى[1]

ومن قوله:

يا كثير الجفاء لى ... ومضيعًا وسائلى
طال حبى ولم تفز ... منك نفسى بطائل
أنت لى هاجر وإن ... كنت فى ثوب واصلى

---

(١) قال ابن بسام وهذا كقول ابن الرومى:

يا عليلا جعل العلة مفتاحًا لقمى ... ليس فى الأرض غير جفنيك وجسمى

أنت إن زرت منهلا   كان أحلى مناهلى

وجرى خياله فى هذه المعانى شوطًا بعيدًا، وأخذ يتصيد ما فيها ويبثه فى كلامه وشعره: كطيب ريح فم الحبيب، واحتراق فؤاده بنار الحب، وغرفه فى دموعه. وله أبيات رقيقة فى وزنها وقافيتها من الشعر المرقص الخفيف على النفس، الذى تلذ قراءته بخفة وزنه ونغماته الموسيقية أكثر مما فيه من المعانى التى هى معروفة لكل عاشق. كقوله:

بخداع عللوه   وبهجر وصلوه
لم يبالوا يوم صد   أى وجد حملوه
أخرجوه من محل   للتسلى أدخلوه
بلغت منه الأعادى   أى شىء أملوه
رب ستر للتصابى   فوقه قد سللوه
كلما سقوه كأسًا   إثر كأس قبلوه
وهلال بشرى   بنجوم كللوه
فى بهيم من ظلام   بسناه أخجلوه
نشطوه ثم لما   لأن عطفنا ثبطوه
عزلوه عن وصال   حسدًا ثم ولوه
إنما حبى فيكم   مثلا قد أرسلوه

وقال ابن بسام أنه أخذ هذا الوزن والروى من قطعة لشاعر من شعراء بغداد. وهكذا كان يسطو على المعانى وينظمها وعلى خيالات غيره وينسجها على منواله. كقوله فى معنى معروف.

obeikandl.com

والبـدر كــالمرآة غـيـر صـقـلهـا　　　عـبث العـذارى فــيـه بالأنفـاس

والليل ملتـبس بضـوء صبـاحـه　　　مـثل التـبـاس النـقش بالقـرطاس

فكان فى كل شعره يميل إلى زينه اللفظ والتشبـيهات البديعة ككثير من الشعراء مثل قوله:

سقـانى وجفن الليل يغـسل كحله　　　بماء الصـبـاح والنـسـيم رقــيق

مـذابًا كـذوب التبـر أمـا بخـارها　　　فـضخم وأمـا جـسمـهـا فرقـيق

وكل شعره من هذا النوع وهو من الخيال الصـرف يقلد المعانى ويضعها فى أوزان العروض، غـير أن هذا لا يحط من قـدره ولا يغمط من حـقه فى ميله إلى قـول الشعر وذوقـه الفنى. وله قصـائد ذكرها صاحب الذخـيرة فى الجزء الأول.

* * *

obeikandl.com

الأعمى التطيلى[(١)]

عاش أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى التطيلى فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس وكان من أشهر الأدباء فى عصره[(٢)].

أما نثره فهو نثر مسجوع من طبقة النثر الممتاز بسهولة العبارة وجودتها ووضوحها، وعدك التعمق فى البحث عن الجمل والألفاظ مع حسن الاختيار

---

(١) تطيله بالضم ثم الكسر وياء ساكنة مدينة بالأندلس فى شرق قرطبة (راجع معجم ياقوت) وهو معروف بالأعمى التطيلى نفح الطيب جـ ٢ ص ٢٣٥ وفى القلائد والذخيرة الطليطلى.

(٢) لم يقف له على ترجمة وافية. وقد حملنا على ذكره شهرته وماله فى عالم الأدب. وقد مدحه الأدباء كعادتهم فى كتبهم عند الكلام على الكتاب والشعراء فقال عنه ابن بسام:

له أدب بارع. ونظر فى غامضه واسع. وفهم لا يجارى. وذهن لا يبارى. ونظم كالسحر الحلال. ونثر كالماء الزلال.

وقالوا عنه أنه نظم أخبار الأمم المختلفة فى لبة القريض. وعبارة الذخيرة تكاد تكون هى بعينها عبارة القلائد. ولست أدرى أيهما أخذ عن الآخر لأن الفتح بن خاقان وابن بسام عاشا فى عصر واحد (فقد مات ابن بسام فى سنة ٥٤٢ ومات الفتح سنة ٥٣٢ أو ٥٢٩) والظاهر أن عبارة قلائد العقيان كانت أشهر لأن الضبى صاحب كتاب "بغية الملتمس فى رجال أهل الأندلس" أشار إليها بل ذكرها ولكنه نسبها إلى المطمح فأخطأ فى هذه النسبة. لأنها ذكرت فى قلائد العقيان. واختصر الضبى على عبارة الفتح بعد أن جزها وأورد له شيئًا من شعره للاستدلال على فضله. ولقد نبهنا هذا الأسلوب إلى صعوبة دراسة كثير من الكتاب والشعراء الذين لم يعن أصحاب التراجم والأدباء بالكلام عنهم. ولم أجد عن الأعمى التطيلى هذا شيئًا فى ابن خلكان ولا فى فوات الوفيات ولم يتكلم عنه المقرى فى نفح الطيب بما يدل على شىء من حياته. لذلك تقتصر على شىء من ذكر منظومه ومنثوره والكلام على ذلك.

والافتنان وأشعار القارئ بأن للكاتب روحًا تدب دبيبًا بين جمله وألفاظه، وإن له قوة يظهر أثرها فى تلاوة كلامه.

وأما معانيه فـأقل ما فيها أنك تراه يحاول ألا يقتصـر على اختيار اللفظ وبلاغة العبارة. بل يريد أن يكشف شيئًا من أحوال النفوس، ويضم ذلك إلى جمال القول وبهجة المعانى. لذلك تجده فى رسائله ينتقل من معنى إلى آخر، ويتكلم عن نفـسه وغيـره، ويذكر المعنى العام والخـاص، ويتواضع ويفـخر، ويتملق ويتكبر، ويستصغر نفـسه ويستكبرها. كل ذلك فى رسائل يرسلها فى العتب أو التقـرب أو الشكوى. وقد كان هذا هو الميدان الوحـيد الذى يجوب فـيه الكـتاب ويظهـرون خـفايا نـفوسـهم. وينشـرون على العـالم مطويات أفكارهم. وكـان نوع الرسـائل كل مـا يعـرفـونه من أسـاليب الكتـابة لبث شكواهم، والتعبير عن آرائهم الشخـصية. وكأنما هناك حجاز منيع بينهم وبين العـالم الخارجى. فـإذا تكلم أحدهـم لا يتكلم إلا عن نفسـه، وإذا شكا لا يشكو إلا آلامه، وإذا مدح مـدح لحصوله على خيـر، وإذا ذم ذم لوقوعه فى شر، وإذا وصف وصف ما يحيط به لا غير. ويكفى دليلا على ذلك أن أنواع النثر عندهم انحصرت أو كادت تنحـصر فى كتابة الرسائل الأخوية، وإن هذه كانت الصبـغة الغالبة على النثر، امتـلأت بها بطون الكتب الأدبية. ولا يكاد يعثـر الإنسان على رسالة مـن نوع آخر. غيـر أن هذه الرسائل القصـيرة وإن خلت من معان اجتماعية عامة، فإنها مملوءة بنماذج الأساليب العربية البديعة، والعبارات البليغـة، والأمثال الحكيمة، والتراكيب المـتينة، والأفكار الناضجة، وصور نفوس الكتـاب، ودقة إدراكهم وجل معلوماتهم. وهذه رسالـة صغيرة فى العتاب للتطيلى:

"شاركـرك أو شاكيـك، بل لأئمك ولائم الأيام فيك، يا سـيدى كناية عن ذكره، لا توخيًا لبـره، وأخى رغبة فى إنصافه، لا طمعًـا فى استعطافه، الذى عاطيته كأس الوداد فأمرها، ورفعت إليه بنت الوداد فأضر بها وأضرها، ومن أطال الله بقاءه ممتعًا بظل السلطان، وإقبال الزمان. فأن الرجل بسلطانه، لا بإخوانه، وبإقبال زمانه لا بإحـسانه. إنى أعزك الله وإن كان الدهر وضعنى ورفعك، وضاق عنى ووسـعك، فبين جنبى نفس عصـام، وبين فكى صارم بسطام . . . "الشجو شـجوى والعويل عويلى" لا أستعـير عينًا للبكاء، ولا أبتغى بكبدى كبدًا سليمة من الأرزاء. وإنك أعزك الله لما تكلمت بلسان سهل بن هارون، وجلست مجلـس الفضل من المأمون، وخـدمك الدهر، وإنثالت فى يديك الأنجم الزهر، قلت احم وعـلى، وإن لم يكن فشـبع ورى. وعلى رسلك، مـا كنـت أنا ألغط فى مـثلك، إنى أبيـت طيـان، ولا أبيت . . .، واحتمل الحـرمان. ولا أحتمل الهوان، وليت هذا الأمر وقلبك بى مـعمور، وأنت بزعـمك لى فقـير، وأنا أظن أنى سـأولى وأعزل، وأحـدث فى كنفك وأعـدل، فـمـا هو إلا أن ثبـتت قـدمك، وخفـق علمك، وابتل قـرطاسك وقلمك، اختصرت شطر الإسلام[1]، ودفعت فى صدر القـيام، عزلت فلانًا قبل الولاية، واقـتصـرت بأبى الإصبع دون الغـاية. هنيمة أنا كنـت معناها، وكاس لى شـعشت حمـياها. وولايتك خطر وفى عـملك نظر، إنما هو ظل غمامة، وبيض حمامة. ثم تعود لى استحلاس البيت، وأكل الخبز بالزيت.

وقال فى رسالة أخرى:

"ولم أزل منذ تخيل جناتى، وتقول لـسانى، وأدبر ملكى أو شيطانى،

---

(١) هكذا فى الأصل.

ألتمس من أهل هذا الشان، ما أسعى باسمه، وأحفل وأقيس على حكمه، وأقل وأحل . . . وأعتقد، والناس كثير، والناقد بصير، والأمور أعجاز وصدور. فكيف ترنى اتخذتك خليلا، وأخذت على الأيام عهدًا مسئولا، وبايعتك على الطاعة والسمع، وشايعتك سرى الاستطاعة والوسع، فعولت عليك كعبة أولى وجهى شطرها، وأسندت إليك هضبة أرعى سوامى وعرها، لا كون قد قدرت هذه الطاعة قدرها، وأبلغت نفسى فى طلبها والتعلق بسببها. الخ".

أما نظمه ففى بعض قصائده كلام من الشعر الممتع، مع طول لا يمل وأراء تدل على فكر جوال وعقل ناضج. وكأنه حكيم يتكلم أو ينظم الحكم. وهو مع ذلك شاعر بليغ متقن، عالم بأساليب النظم البليغ والأسلوب الخطابى، الذى يجذب الأسماع والقلوب، ويملأها حكمة وعظة، وإعجابًا وجمالا. قال من قصيدة فى المدح.

عتاب على الدنيا وقل عتاب ... رضينا بما ترضى ونحن غضاب
وقلت وأصغينا إلى زور قولها ... وقد يستفد القول وهو كذاب
وعمت على أبصارنا وقلوبنا ... فطال عليها الحوم وهى سراب
ودانت لها أهواؤنا وعقولنا ... وهل عندها إلا العناء ثواب
نلذ ونلهو والأعزة حولنا ... رفاة وتبنى والديار خراب
ويخدعنا عما يراد بنا منى ... لبحر المنايا دونهن عباب
ونغتنم الأيام وهى مصائب ... لهن عليها جيئة وذهاب
بكت هند من ضحك المشيب بمفرقى ... أما علمت أن الشباب خضاب

وقالت غراب ما أرى وتجاهلت … وليس على وجه النار نقاب
هل الشيب إلا الرشد حل غوايتى … فأصبحت لا يخفى على صواب
أأغفر لصرف الدهر عن هفواته … على حين لا يأبى على عقاب
وأتركه بمضى على غلوائه … وقد عز أعتاب وطال عتاب
أيغضب حسادى قيامى إلى العلا … وقد قعدوا عما ظفرت وخابوا
هم حسدونى لا لوفر وفرته … ولكن شهدت الكرمات وغابوا

وما أجمل مدحه فى هذه القصيدة، فقد يرى الإنسان فيها المدح وعظمته وسمو قدره، وقد يصرفه جمال القول وسبك العبارات وبلاغة الكلام عما فى الشعر من المبالغة. بل قد يتجه فكره إلى تذوق المعانى. وليس أنبل ولا أشرف من إنسان يتصف بهذه الصفات. ولا أشعر من شاعر يحمل القراء على صدق قوله ببلاغة كلامه وحسن أسلوبه. إذ يقول:

سجايا على مر الليالى كأنما … هى المزن فيها رحمة وعذاب
موارد فيها سم كل معاند … ولكنها للمستفيد عذاب
مخوفتى ريب الزمان وقد حدت … برجلى إلى ابن الحضرمى ركاب
إذا الله سنى لى لقاء محمد … تفتح دونى للسماحة باب
فتى لم تسافر عنه آمال آمل … وكان لها إلا إليه إياب
له همم فى الجود والبأس لم تزل … لها فوق أتياح النجوم قباب
وأقسم لولا ماله من مآثر … لأصبح ربع المجد وهو يباب

ولقد تدب فى نفسه صناعة الشعر، وتلعب برأسه، كما تلعب الكأس،

obeikandi.com

فيثمل ويقول فيثمل السامع معه، وكأنه يترنح من صدق قوله، والسامع يترنح معه من عذوبة هذا المقال:

وهل أنا إلا عبد أنعمك التى ... هى الشهد إذ كل الموارد صاب
وهل شهد المجد الذى أنت سره ... فإنك بحر والكرام عياب
وهل أنا يا رضوان باسمك هاتف ... وهل لى إلى دار المقامة باب
إذا قايسوك المجد كنت غضنفراً ... إذا زار لم يثبت عليه ذئاب
وما أحمر إلا من صيالك معرك ... ولا أخضر إلا من نداك ثياب

وما أقدره على طول الكلام، وأصبره على الجرى وراء المعانى حتى يدركها. ولقد مدح الوزير أبا الحزم، فعرف كيف يمدح الوزراء. وبدأ قصيدته بشىء من الغزل، ولكنه غزل غير مبتذل، وأسلوب عشقى غير ظاهر فيه السطو على المعانى، وكأنما هو من مبتكراته، على أنها معانى غيره، وأسلوب سواه. كما قال:

غداة وقفنا نقسم الشوق بيننا ... على ما اشترطنا وانقضت سنة القسم
وقد اطلعت تلك الهوادج أنجما ... تركن جفونى فى الكرى أسوة النجم
فأبت بدمعى لؤلؤاً فوق نحرها ... وآبت بما فى مقلتها من السقم
خليلى هل بعد المشيب تعلة ... لذى الجهل أوفى الحب شغل لذى العلم
وهل راجع عيش لمسناه آنفًا ... كيوم لذيذ فى بيوت بنى حزم
وهل لى حظ من موتاه صاحب ... له قدرة القاضى وموجدة الخصم
بدت رقة الشكوى على عطفاته ... ورابتك فى أعطافه قسوة الظلم

ثم أخذ فى المدح بما يحتمل القارئ على الاهتمام بالكلام وكأنه قيل فيه أو كأنه كلام بم يسمعه. وليس ذلك لحسن الأسلوب وجماله لا غير، بل لأن الشاعر يعنى بذلك، حتى يحمل القارئ على الاهتمام بما يقول. كما قال:

أبا جعفر هذى المكارم والعلا ... دعاء بحق أو دعاء على غنم
أرى الناس قد باعوا المروءة فاشتر ... وقد ضيعوا ما كان من حسب فخم
وأنت أحق الناس بالحزم فأته ... وحق العلا بالمال أشبه بالحزم
وأنت بعيد الهم مقترب الجدى ... كريم السجايا ماجد الخال والعم
وأحفى بألباب الرجال من الهوى ... وأخفى وراء الحادثات من الدهر
وأحمى لحوزات المعالى من الردى ... وأسخى بآمال النفوس من الحلم

وكل قصائده فى المدح متينة جميلة (راجع الكلام عنه فى الجزء الثانى من الذخيرة) وربما كان فى رثائه أجمل منه فى مدحه. كقوله فى قصيدة تشبه قصيدة مالك بن الريب وكأنه ملهم بأبياتها.

على مثلها فلتبك إن كنت باكيًا ... فقد عهد الأحباب إلا تلاقيا
أفى كل يوم أودع الأرض صاحبًا ... أريق به فى الترب ماء شبابيا
وأحسب أنى لو رجوت مكانه ... يعز عليه أن يكن مكانيا
ولو أننى أحببته الحب كله ... لأتبعته نفسى وأهلى وماليا
خليلى من يطيع بشىء فإننى ... نفضت به لا بل نفضت فؤاديا
وليس حياتى غير شجو مردد ... عهدت له إلا ألذ حياتيا

opelkandi.com

وهذه القصيدة هى تقليد للشعر القديم المعروف. ولكنها جميلة فى بابها تدل على ذوقه وحسن سبكه فى التقليد.

وله فى الغزل شعر يمتاز بطريقته وأسلوبه أكثر منه ببلاغته وجماله. فقد ساق قصيدة يتغزل فيها بفتاة تسمى لذيذة جعلها حديثًا بينه وبين امرأة تجيبه وتسليه وهذا الأسلوب ليس من الأساليب الشائعة عند العرب. وهو أشبه بالمناظرة بين عاشقين. وكأنما أراد أن يكشف فى حديثه عن نفس العاشق بما أودعه فى كلامه من الآراء، وعما عسى أن يلاقى من الوسائل الناجحة بما فى آراء تلك الفتاة فقال:

لما التقينا وقد قيل المساء دنا	وغابت الشمس أو لاذت ولم تغب
وأضلعى بين منقض ومنقصف	وأدمعى بين منهل ومنسكب
وأملتنى أم المجد قائلة	بمن أراك أسير الوجد والطرب
فقلت قلبى مسبى وأنك لو	كتمت سرى لم أكتمك كيف سبى
وأعرضت ثم قالت قد أسأت بنا	ظنًا أيجمل هذا من ذوى الأدب
فقلت أنى امرؤ لما لقيتكم	والمرء وقف على الأرزاء والنوب
سبت فؤادى ذات الخال قادرة	ولا نصيب لها منه سوى النصب
ألهو بها وهى تلهو فى بلهنية	شتات والله بين الجد واللعب
أصابت القلب لما أن رمته ولو	ولو رمته أخرى إذن لا شك لم تصب
فقالت أشكو إليها ما لقيت ولا	ترهب فلم تبلغ الآمال بالرهب
عسى هواك سيعيدها فينصبها	وقد يكوب الهوى أعدى من الجرب

obeikandi.com

فقلت أعظمها بل ما أكملها … إلا أشار إلى الموت من كثب
قالت أنا أتولى ذاك فى لطف … فقد أؤلف بين الماء واللهب
فقلت مثلك من يرجى لمعضلة … لا زلت فى غبطة ممتدة الطنب
صلية أو فاقتليه فالحمام له … خير من الهجر فى جهد وفى تعب
فلو ترانى قد استسلمت مرتقبا … منها حنان الرضا أو جفوة الغضب
حتى إذا ما ألانت تلك جانبها … والقلب مهما أرم تسكينه يجب
طفقت ألم كفيها وقد جنحت … إليك تضحك بين العجب والعجب
لله مثلى ما أدنى سجيته … من المعالى وأنآها عن الريب
كم مأثم مستلذ قد هممت به … فلم يدعنى له دينى ولا حسبى

ولقد ينظم الكلام المعروف فيغير من صبغته فى النفس، ومن معناه فى الفؤاد، فيكون جديداً لأن روح الشاعر غالبة على معانيه. كما فى كلامه عن لذيذة حبيبته. وله أبيات حكيمة بثها مدحه كقوله:

كم مقلة ذهبت فى العى مذهبها … بنظرة هى شان أولها شان
رهن بأضغاث أحلام إذا هجعت … وربما حلمت والمرء يقظان
فانظر بعقلك إن العين كاذبة … واسمع بقلبك إن السمع خوان
ولا تقل كل ذى عين له نظر … إن الرعاة ترى ما لا ترى الضان
دع الغنى لرجال ينصتون له … إن الغنى لفضول الهم ميزان
واخلع لبوسك من شح ومن أمل … لا يقطع السبق إلا وهو عريان

obeikandi.com

وصاحب لم أزل منه على خطر كأننى علم غيب وهو حسان
أغراه حظ توخاه وأخطأنى أما درى أن بعض الرزق حرمان
وغرة أن رآه قد تقدمنى كما تقدم باسم الله عنوان

ولقد ينظم الحكم والعبر فى كلام فتجده حكيمًا وشاعرًا معًا. كقوله:

تنافس الناس فى الدنيا وقد علموا إن سوف يقتلهم لذاتها بدلا
قل للمحدث عن لقمان أو لبد لم يترك الدهر لقانا ولا لبدا
وللذى همه البنيان يرفعه إن الردى لم يغادر فى الثرى أحدا
ما لابن آدم لا تفنى مطالبه يرجو غدًا وعسى أن لا يعيش غدا[1]

---

(١) ووصف سدًا يمج ماء من فمه

أسد ولو أنى أنا قشة الحساب لقلت صخره
وكأنه أسد السما يمج من فيه المجره

ومن قوله فى الحكمة:

وإذا أعجبت من الزمان لحادث فلتابع يبكى على متبوع
وإذا اعتبرت العمر فهو ظلامه والموت منها موضع التوقيع

(راجع بغية الملتمس للضبى صحيفة ١٨٦)

وقالوا له اجتمع من كثير من الأدباء فبرز عليهم فى موضحته التى يقول فيها:

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

obeikandl.com

ابن عبدون[1]

كان ابن عبدون كاتبًا ناثرًا وشاعرًا بليغًا. أما نثره فهو نثر أدباء عصره: كلام أشبه بالنظم منه بالسجع، أو سجع متعمل غير ظاهر فيه التكلف، إذا قيس بغيره أو عورض بسواه، أو معنى قصير فى سلسلة من ألفاظ طويلة، أو هو من نوع البراعة فى الإحاطة باللغة وتنسيق الألفاظ، أو ضرب من الافتنان الدقيق فى إخفاء ابتذال الموضوعات والمعانى المعروفة تحت ستار من الصناعة.

ولقد يخيل إلى الناقد أن الكتاب فى ذلك العصر كان يقلد بعضهم بعضًا، وإن هذه هى الصفات التى تظهر فيها ميزة الكاتب، وإنه لا فضل لمن اكتسب هذه الملكة بكثرة ما يقرأ ويعلم من أساليب معاصريه ومعانيهم. ولقد يظهر لنا أن هؤلاء الكتاب والشعراء سائرون فى طريق واحد متشابه الأرجاء والنواحى، وأنهم يضربون على نغمة واحدة، من حيث الكلام فى الموضوعات المعروفة لهم، وأنه ليس لأحدهم فضل فى غير الانفراد

(١) عاش ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد عبدون فى أزهى عصر من عصور الأدب زمن ملوك الطوائف. وعاشر أذكى ملوكهم وأعلمهم باللغة والأدب والتاريخ وهم بنو الأفطس الذين اشتهر علمهم وفضلهم وعرف حبهم للأدباء وإكرامهم إياهم

وكان كاتبًا للمتوكل على الله نب المظفر وناهيك بمن يكون فى حضرة هؤلاء ويكتب لهم وهم العلماء والشعراء. وقد قالوا عنه أنه كان أعجوبة فى النظم والنثر، من كبار حفاظ اللغة والأدب فى وقته. ورووا عنه وعن قوة حفظه أنه أديب الأندلس وأمامها وسيدها فى عالم الآداب وأن أيسر محفوظاته كتاب الأغانى. ومهما بالغوا فى نسبة هذا إليه فلذلك يدل على مقدار معلوماته وقوة ذاكرته. وهو فهرى من أصل عربى وتوفى سنة ٥٢٠ هـ مدة سلطة المرابطين وقد اتصل بعد سقوط ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين وكتب له ولابنه –

بالأسلوب واختيار الألفاظ واتباع الطرق التى يختارونها اقتفاء لآثار غيرهم. ولكن أليس من البراعة أن يشبه الكاتب جميع الكتاب ويعرف كيف يمتاز عنهم بمعانيه وأسلوبه؟ إن العصر الذى يغص بالأدباء لمن أشق العصور وأصعبها على الكتاب والشعراء الذى لا يمتازون بشىء فى مواهبهم، وحتى على الكبار منهم، الذين يحملهم ذكاؤهم وقدرتهم على أن يمتازوا ويظهروا على معاصريهم. أن ميزة الصناعة الأدبية والافتنان لا يكونان فى اختلاف الموضوعات والأسلوب لا غير، بل ذلك شىء كامن فى نفس الكاتب لا يظهر إلا على شبا قلمه ولا تمليه قريحته إلا لشخصه.

قد يظهر للقارئ أن الكتاب أو الشعراء يشبه أحدهم الآخر هذا يمدح ويذم، ويعتب ويعشق، وهذا يأخذ من لفظه ويسير على نهجه. ولكنا لا نعدم أن نرى فى خلال هذه الصحف المتشابهة عبارات ومعانى جديدة، وأساليب تدل على شخصية الكتاب والشعراء فى هذه الألفاظ. وقد نجد جملة واحدة أو كلمة واحدة يستريح إليها الفكر وتطمئن إليها النفس.

ربما كان ابن عبدون من هؤلاء فإن له رسائل طويلة أكثرها مملوء بالألفاظ المعروفة، والعبارات المأخوذة من كلام غيره والإطناب الذى يذهب بصبر القراء. وعلى الرغم من اعتباره من أكبر كتاب أهل زمانه، ليس فى كتاباته غير الطول الممل والسجع المتكلف[١] ولكن كان هذا الأسلوب من أفضل الأساليب. ولابن عبدون فى أسلوبه أحيانًا شبه بأسلوب ابن زيدون، من ذكر الحوادث وأسماء الرجال[٢].

(١) ورسائله كثيرة فى الذخيرة والعجب.

(٢) راجع قلائد العقيان ص ١٤٨.

أما شعره فأفضل من نثره. ومن قصائده القصيدة التى رثى فيها بنى الأفطس وذكر فيها أشهر حوادث الملوك وأشهر الدول البائدة إلى أيامه. وهى قصيدة ممتازة فى أسلوبها ومعانيها. قد احتوت على كثير من المعانى الدقيقة والملاحظات العامة. بدأها بالتفجع والشكوى من الأيام فقال:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما سجية عينيها سوى السهر
ما لليالى أقال الله عثرتها ... من الليالى وخانتها يد الغير
فى كل حين لها فى كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن النظر
تسر بالشىء لكن كى تغربه ... كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر

ثم أخذ فى سرد أصحاب الدول البائدة والملوك الماضية فقال:

كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدار وفلت غرب قاتله ... وكان عضبا على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبنى يونان من أثر
وألحقت أختها طسما وعاد على ... عاد وجرهم منها ناقص المرر
وما أقالت ذوى الهيئات من يمن ... ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
ومزقت سبأ فى كل قاصية ... فما التقى رائح منهم بمبتكر

obeikandi.com

والقسم الثالث منها وهو رثاء بنى المظفر أبلغها، لما احتوى عليه من الموعظة، والاعتبار والتذكير بالأيام الماضية، أيام العز والمجد الرفيع. وفيها كثير من المعانى المبتكرة التى خالف بها سنة الرثاء المعهودة. وفى هذا يقول:

بنى المظفر والأيام لا نزلت مراحل والورى منها على سفر
سحقًا ليومكم يومًا ولا حملت بمثله ليلة فى غابر العمر
من للأسرة أو من للاعنة أو من للأسنة يهديها إلى الثغر
من للظبا وعوالى الخظ قد عقدت أطراف ألسنها بالعى والحصر
وطوقت بالمنايا السود بيضهم فأعجب بذاك وما منا سوى الذكر
من للبراعة أو من للبراعة أو من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع رادفة أو قمع حادثة تعيى على القدر

وله شعر كأنه هو من مبتدعيه رقيق المعانى والحاشية. كقوله فى مدح المتوكل.

وأفاك من فلق الصباح تبسم وانجاب عن غسق الظلام تجهم
والليل ينعى بالأذان وقد شدا بالفجر طير البانة المترنم
ودموع طل الليل تلحق أعينًا يرنو بها نم ماء دجلة أرقم
يا صاحبى بين الفرات ودجلة ودع علاقة مسعد ومتيم

وهو فى مدحه من عشاق المتنبى وحفظة أسلوبه. ومع هذا التقليد ميزته ظاهرة وروحه جذابة فى كلامه، جلية فى أن هذا له. كقوله يمدح أيضًا:

مضوا يظلمون الليل لا يلبسونه وإن كان مسكى الجلابيب ضافيا

يؤمـون بيـضًـا فـى الأكنة لم تزل | قلوبهم حـبـا عليـهـا جـآجـيـا
وأغــربة الظلمــاء تنفض بـينهم | قــوادمــهـــا مــيلولة والخـــوافـيـا
إذا مــرقوا من بــطن ليل زقت بهم | إلى ظهــر يوم عــزمــة هى مــاهيــا
وإن زعزعتهم روعــة زعزعوا الدجى | إليــهــا كــمــاتًا والرياح مــذاكـيـا
ولو أنهـــا ضلت لكان أمــامـــهـا | سنا عــمر فى فــحمــة الليل هاديا
وصليت بها الهيـجا عليه وسلمت | . . . .
همــام أقام الحــرب وهى قـصيــدة | وروى القنا فــيهـا وكانت صــواديا

ومن أساليبه فى تقليد المتنبى قصيدته التى يقول فيها:

هيهـات لا أبتغى منهم هــوة بهوى | حسـبى أكون محبـًا غير محـبوب
فــمــا أراح لذكــرى غـــيــر مـؤلمة | ولا ألذ بــحب دون تــعـــــــذيب
وإلا أصـــــالح أيـامى علـى دخل | ليس النفــاق إلى خـلقى بمنسـوب
يا دهر إن توسع الأحــرار مظلمــة | فـــــاســـــتـــــثـنى . . . . .
ولا تخل أنــنى ألقـــاك مـنفــردًا | إن القناعــة جـيش غـيــر مـغلوب
ما كل من سيم خسـفا عاف مورده | إن الإباء لظهــر غـــيــر مــركـوب
وكم تأزرت الغـــيطان بى كـــرمـا | واسـتنشـــقنى أنفـاس المنـاخـيب

وله كثير من الشـعر الجيد غير أنه مقلد لشـعراء المشرق. ولذلك لا تجد له ديباجة واحدة، ولا أسلوبًا معروفًا، ولا معانى مبتكرة.

* * *

obeikandi.com

ابن هانئ[1]

كان محــمد ابن هانئ من أصحاب الظــرف والخلاعة، ذا أدب جم، لا يبــالى بما يفعل ولا بما يقــول، حتى قــالوا عنه أنه كان فــى كلامه كــثيــر من

(١) فإننا أن نذكر ابن هانــئ فى مقدمة الشعــراء لتقدمه فى الزمن عمن ذكــرنا، ولكنا أنسينا ذلك على أن الأدب فى الأندلس لا يظهر فيه اختلاف المذاهب الأدبية ظهورها فى المشرق وهو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدى الأندلسى، من أكــبر شعراء الأندلس وأشهرهم. ذاع ذكره فى المشرق والمغــرب وتقدم على غيره من الشعــراء. وعاش فى أرغد أيام دولة بنى أمية فى الأندلس. فـقد مات فى سنة ٣٢٦ بعد أن عاش سـتا وثلاثين سنة. فيكون مولده على هذا القول فى نحو ٣٢٦ وهذه الأيام هى أزهى أيام دولة الأمويين وأبهى أيام عبــد الرحمن الناصــر وابنه الحكم (مات الناصر سنة ٣٥٠ ومــات الحكم سنة ٣٦٦) فى هذا العصر عاش ابن هانئ. وظهر على الشعراء ولكنه لم يكن من بين شعراء الناصر ولا من حاشية ابنه.

وأصل أبيه هانئ من إفريقية. وكان هو أيضًا شاعرًا مـشهورًا وأديبًا معروفًا فانتقل إلى الأندلس، فولد له مـحمد هذا بمدينة إشـبيلية. وإذا كان أبــوه أديبًا وشاعرًا: أى صنعــته الأب يعيش منه ويرحل فى طلب السـؤال به، كان ابنه أيضًا من عشاق الشــعر. وكانت إشبيلــية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علمًا وأدبًا. فنشــأ بها وبرع فى الأدب واندمج فى صف الشعراء لما كان له من الميل إلى ذلك. وقد ورث الذوق الأدبى عن أبيه وتربى على حب الشعر. وعرف منزلة الـشعراء وإدراك ما كان لهم من رفعة الشـأن والإفاضة عليهم بالمال والثراء، وكان ذكيًا نبيهًا ميالا للخفة والدعارة. وكانت بذرة الترف واللهو نبتت فى تلك البلاد فاندمج فى هذه البـيئة اندفاعًا واتصل بصاحب إشبـيلية ونال حظوته وانهمك فى الملاهى والملاذ ولم يكن له رادع نفسى ولا دينى. ثم جــاهر بشىء من الآراء الممقوتة هناك فغضب عليه أهل إشـبيلية وساءت المقالة فى حق الملك بسببــه واتهم بمذهبه. فأشار الملك عليه بالغـيبة مدة لينس فيــها خبره فخــرج من إشبيلية وعــمره ستة وعشــرون عامًا ورحل إلى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذى فتح مصــر للمعز) أحد ملوك إفريقية=

الإفراط والغلو فى المدح المفـضى إلى الكفر، وكان ينتـجع أماكن الرزق لدى الخلفاء والأمراء كغـيره من الشعر ويعيش على متون القـوافى. وكانت حياته ككل حياة الأدباء التنقل والرحلة وإنشاد الشعر وحفظه، والاطلاع على الأدب واللغة وشىء من تاريخ الأدباء وحياتهم، ومعرفة أقوال الشعراء، ووعى أشهر كلامـهم وأساليـبهم وطرق التـصور لديهم، ومـوازنة الكلام بعضـه ببعض، والإمعـان فى معـرفة الجيـد والردىء منه. لأن ذلك كان له ولأمـثاله المرجع الوحيـد الذى يستـمد منه أفكاره ومـعلوماته وتصـوراته، التى هى كل شىء لديه.

هذه كـانت حيـاته العقليـة وحيـاة أمثـاله من الأدباء الخلص الذين لم يشتغلوا بالعلوم، ولم يتجهوا إلـى الاستفادة منها. ولم تكن لابن هانئ نزعة أدبية فى غيـر الشعر. فقد اتجه إليـه بكل قواه العقلية وحصر جـميع إدراكاته فيه. لذلك ظهرت مواهبه فى الشعر، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء.

أما شعـره فهو فى جملتـه من الكلام الجيد. ونريد بالجودة هنا اخـتيار المعانى الداعية إلى التـفكير وحمل الذهن على البحث فيها، ليـدركها القارئ إدراكًا صحـيحًا يتعظ به، أو يسـتفيد منه شيـئًا جديدًا فى حياتـه العقلية، أو

=ثم اتصل بيحـيى بن على بن بحر أحد ملوك طنجـة وأخيه جعـفر صاحب فبـالغا فى إكرامه. ثم علم بن المعز العبيدى أحد ملوك إفريقية فأجرى عليه كثيرًا من العطايا وأكرمه إكرامًا عظيمًا وكان محبًا للعلم والأدب وسافر المعز هذا إلى مصر فشيعه ابن هانئ ورجع إلى المغـرب لآخذ . ولما وصل إلى برمـة أضافه شـخص هناك وبقى عدة أيامًـا فى هناء وسـرور ومجـون بلغ أشده وقـالوا أنه خرج من تلك الديـار وهو سكران فنا فى الطريق فأصبح مـيتًا ولم يعرف سـبب موته وقيل عربدوا عليـه وقتلوه. ولما بلغ المعز خـبر موته أسف أسفًا شديدًا وقال كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك.

يذكره برأى نافع، أو مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع، كما هى الحال عند كبار الشعراء المفكرين. فشعر ابن هانئ به كثير من ذلك تطمئن إليه النفس وتميل إلى آرائه وتصديقها. وبه أفكار عامة فى الحياة والمجتمع الإنسانى. وأكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة. ولقد يجد الإنسان روح المتنبى تدب دبيبًا فى كلامه أحيانًا. وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاءوا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ولم يلجوا باب الحقائق الإنسانية فى شىء ولا طرقوا أبواب الحكمة. بل اقتصروا على الأوصاف والتشبيهات. على أن ابن هانئ رغم طريقته المعروفة التى نسبت إليه، كان يظهر عليه أنه ناقل ومقلد فى تلك المعانى التى حدث فى زمن المتنبى، وفى الأساليب لعربية لتى كانت قبل ذلك. فإن منهجه فى كلامه وأسلوبه لا يدل على غير ذلك. غير أنه بارع فى جمع المعانى الغريبة ونظمها، واقف على كثير منها، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ، يذكرها لمناسبة ولغير مناسبة. وله فى كلامه آراء تشبه الناقد البصير للاجتماع والناس، ولعل هذا هو الذى حمل على القول بأنه كانت له آراء ممقوته وسموها آراء فلسفية.

ولقد جرى فى أسلوبه على الأسلوب القديم. بالبدء بالغزل والاسترسال فيه، وذكر المعانى القديمة المعروفة عند الشعراء، ولعل ذلك جاءه من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثير منه. ويأتى فى قصائد المدح بكثير من الآراء والأفكار المختلفة وهى طريقة المتنبى بعينها. وبعض هذه القصائد مملوء بأوصاف الحروب وتمجيد الأمراء. وأسلوبه أسلوب رشيق سهل. حتى أن أبا العلاء المعرى قال فيه: "ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونًا لأجل القعقعة التى فى ألفاظه".

وقال الضبى صاحب بغية الملتمس. "وهو كثير الشعر، محسن مجيد، إلا أن قعقعة الألفاظ أغلب على شعره" . ربما كان أسلوبه دليلا على قول من يدعى أن شعراء الأندلس رغم ما كان لهم من الامتياز فى الفكر والأساليب كانوا يقفون أثر البدو القدماء.

وأول شيء يشعر به الإنسان عند قراءة شعر ابن هانئ أنه شاعر لا كغيره من الشعراء، شاعر ممتاز عن سواه، وكفى بذلك دليلا على ملكة الشعر لديه. إن الصبغة الخاصة التى تدل على أثر الشاعر أو الكاتب أو على شيء من شخصيته فى كلامه هى علامة من علامات الافتنان التى من أجلها يحسب من بين الفنيين وليس الافتنان غير إبراز الجمال وكشف دقائق ما فيه.

وما هو جمال الشعر؟ أليس هو ذلك الدبيب الذى يدب فى النفوس فيملأها بهجة وارتياحًا، ويحملها على الإعجاب بالكلام وما فيه؟ أليس جمال الشعر فى تلك الرنات التى تطرب النفس وتحركها كما تحركها رنات المزاهر والأغانى؟ أليس جمال الشعر فى الألفاظ والمعانى وتنسيقها وتناسبها وتقابلها وترتيبها، ونظمها بأسلوب يتحايل به الشاعر على أن ينال من نفس غيره وشعوره، وأن يتقرب إلى فؤاده وامتلاك عقله، وأن يحرك القلوب والعواطف، ويحكم على العقول بالإصغاء إليه، والتصديث لما يقول؟. هذه حقيقة جمال الشعر كما أن ذلك هو سر كل فنون الجمال. وأكثر جمال الفنون هو فى معرفة تصوير الأشياء أو المعانى مع دقة الفنى فى ذلك. ولقد يكن الافتنان تقليداً متقنًا لشيء معروف. هذا التقليد المتقن هو ما يراه الإنسان جميلا. فليس من لوازم الافتنان فى الشعر ابتكار المعانى، بل الإحاطة بها مع دقة إبرازها.

وهذا ما يشعر به القارئ فى أكثر شعر ابن هانئ، يشعر بسعة خيالية، ودقة إدراكه، وحسن اختياره، وتنسيق صناعته، وافتنانه الخاص، الذى يدل على أن الكلام كلامه، والأسلوب أسلوبه. يتغزل ابن هانئ كما يتغزل غيره. ولكنه غزل غير غزل غيره، تشعر عند قراءتك له أنه شاعر ممتاز، له صفة خاصة وذوق خاص. يغرب فى غزله ويتعجب من جمال محبوبته، ويخاطبها ويصفها بما يدعو إلى الإعجاب بها ويحرك العواطف إليها. وكأنما ذلك كله أثر غرامه الصحيح، وحيه الصادق، وربما لم يكن شىء من ذلك. أرأيت كيف يتغزل فى قصيدة مدح:

فتكات طرفك أم سيوف أبيك — وكؤوس خمر أم مراشف فيك
أجلاد مرهفة وفتك محاجر — ما أنت راحمة ولا أهلوك
يا بنت ذى البرد الطويل نجاده — أكذا يجوز الحكم فى ناديك
قد كان يدعونى خيالك طارقًا — حتى دعانى بالقنا داعيك
عيناك أم مغناك موعدنا وفى — وادى الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنة الكرى وسروا فلو — عثروا بطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة — لما تمايل عطفك اتهموك
حسبوا التكحل فى جفونك حلية — تالله ما بأكفهم كحلوك
ولوى مقبلك اللئام وما دروا — إن قد لثمت به وقبل فوك

قد يكون تشبيه العيون بالسيوف معروفًا، وقد يكون تشبيه الريق بالخمر والإشارة إلى أن التكحل غير الكحل معروفًا أيضًا، ولكن ما ليس معروفًا هو ذلك الأسلوب، هى روح الشاعر التى لبست هذه المعانى، وكأنما قيست عليها

أو كانت من مبتكراتها. ولقد يأتى فى أثناء كلامـه بمعان وتشبيهات بديعة مع أسلوبه المعروف فى البدء بالغزل. كقوله:

امسـحوا عن ناظرى كحل السـهاد ... وانفضوا عن مضجـعى شوك القتاد
أو خـذوا منـى مـا أبقـيتـمـوا ... لا أحب الجسم مـسلوب الفـؤاد
هل تجـبـرون مـحـبًا من هوًى ... أو تفكون أسـيـرًا من صـفـاد
أسلـوا عنـكم مـن هجــركم ... قلمـا يسلـو عن الماء الصـواد
إنما كـانت خطوب قـيـضت ... فـعـدتنا عنـكم إحـدى العـواد
فـعلـى الأيام من بـعـدكم ... مـا على الظلماء من لبس الحـداد
لا مـزار منكم يدنـو سـوى ... أن أرى أعـلام هضـب أو نجـاد
قـد عـقـلنا العـيس فى أوطـانهـا ... وهى إنضـاء ذمـيـل ووخـاد
وحـديث عنـكم كـشـره ... عن نسـيم الريح أو برق الـغـواد
لم يـزدنا القـرب إلا هـجـرة ... فـرضنا بالـتنائى والـبـعـاد
وإذا شـاء زمـان رابنـا ... برقـيب أو حسـود أو مـعـاد

ثم دخل علـى المدح بهـذا الأسـلوب، والأضـاب الـذى لا يمل، مع اختـياره جميل الصـفات وتعدادها، حـتى أنه ليخيل إلى الإنسـان أنه أفضل مدح، أو أنه ليس وراء ذلك من إطراء. فقال:

من أمـام قـائـم بالقـسط أو ... منـذر منتـخب لـلوحـى هاد
أهل حـوض الله يجـرى سلسـلا ... بالظهـور العـذب والصفـو البـراد
أسـواهم ابـتـغى يوم الـندى ... أم سـواهم ارتجى يـوم المعـاد

هم أباحـــوا كل ممنوع الحـــمى وأذلوا كـل جـــبـــار العناد

وإذا مـــا ابتـــدر الناس العلى فلهـم عـاديهـا من قـبل عـاد

ولهـم كل نجـــاد مـــرتدى ولهم كـل سليل مـســتـجـاد

ولقد يرق فى كلامه فيأتى بالمرقص والمطرب، حتى لا تعرف أهو شاعر أم مادح أم عاشق أم مبتكر للمعانى أم موحى إليه بها كقوله:

قـد مـررنا على مـغـانيك تلك فـرأينا فـيـهـا مـشـابه منك

عـارضـتنا المهـا الخـارئد أسـرا بًا بأجـرعـهـا فلم تسل عنك

لا يرع للـمــهـا بذلك سـرب فلقـد أشبـهـتك إن لـم تكنك

فـحنين مـرجع كـحنيـنى وتشـك مـردد كـتـشكى

فـاقتـئد تسـكب الدموع كسكبى ثم لا تسفك الـدمـاء كـسفكى

لا أرى كـابن جـعـفـر بن على ملـكًا لابسًـا جـلالة مـلك

تتـفـادى القلوب مـنه وجـبـيًـا فى مـقـام عـلى المتـوج ضنك

وطويـل النجـاد فـرج مـنه جانب الـسجف عن حيـاة وهلك

ولقد يصـف فيبـدع فى الوصف، وتظهر مـيوله المجـونية فى شـعره، فيكون أصدق مـا يكون، وأرق إنسان، عذب الألفاظ رشيقًـا، خفيف الروح مبدعًا جذابًا:

قـمن فـى مـأتم على العـشـاق ولبـسـن الحـداد فى الأحـداق

وبكـين الدمـــاء بالـعنم الـرطـ ـب المقنا وبالخـدود الرقـاق

ومنـحن الفـراق رقـة شـكوا هن حـتى عـشـقت يوم الفراق

ومع الجيرة الذين غدوا دمـ ... ـع طليق ومهجة فى وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى ... آذنوا بالفراق قبل التلاقى
ودنوا للوداع حتى ترى الأجيـ ... ـاد فوق الأجياد كالأطواق
يوم راهنت فى البكاء عيونًا ... فتقدمت فى عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن يمـ ... ـع جمر الغضى عن الأحراق
رب يوم لنا رقيق حواشى اللـ ... ـهو حسنًا جوال عقد النطاق
قد لبسناه وهو من نفحات المـ ... ـسك درع الجيوب درع التراق
والأباريق كالظباء العواطى ... .
مصغيات إلى الغناء مطلا ... ت عليه كثيرة الأطراق
وهى شم الأنوف يشمخن كبرًا ... ثم يرعفن بالدم المهراق
قدمتها السقاة كى يوقروها ... صممًا عن سماع شاد وساق
فهى أما يشكون ثقلا من الوقـ ... ـر وأما يبكين بالأماق

ويمزج أسلوبه بشىء من أساليب غيره، كتقليده المتنبى، حيث يبث الحكم/ أو شيئًا من التهكم، بينما هو يتكلم فى المدح أو فى الغزل. ولقد يسبق إلى فكره شىء من المبالغة فيجرى به لسانه فكأنه يقول ذلك عن غير قصد. كقوله فى المدح.

وما الجود شيئًا كان قبلك سابقًا ... بل الجود شىء فى زمانك حادث

وفى هذه القصيدة يقول:

عبثت زمانًا بالليالى وصرفها ... فها هى بى لو تعلمون عوابث

لئن كان عنق النفس للنفس قاتلا   فأنى على حتفى يكفى باحث
وإن كان عمر المرء مثل سماحه   فإن أمير الزاب للأرض وارث
إذا نحن جئنا اقتسمنا نواله   كما اقتسمت فى الأقربين المواريث
وإن حرامًا أن نؤمل غيره   كما حرمت فى العالمين الخبائث
تبسمت الأيام عنك ضواحكا   كما ابتسمت حو الرياض الدمائث
وما ثغور الملك بعد انثلامها   وقد أظلمت تلك الخطوب الكوارث
فما زاد فى بحبوحة الملك رائد   ولا عاث فى عريسة الليث عائث

وكثير من قصائده هى من نوع مزج الغزل بالحماسة والمدح. وينتقل من معنى إلى آخر، ويميل دائمًا إلى الوصف الغزلى. كقوله:

قمر لهم قد قلده صارمًا   لو أنصفوه قلدوه كوكبا
صبغوه يومًا بالشقيق وبالرحيـ   ـق وبالبنفسج والأقاحى مشربًا
وكأنما طبعوا له من لحظه   سيفًا رقيق الشفرتين مشطبًا
قد ماج حتى كاد يسقط نصفه   وأذيل حتى كاد أن يتسربا
خالسته نظرًا وكان موردًا   فاحمر حتى كاد أن يتلهبا

فإذا مدح وصف وذكر صورًا كثيرة من الحوادث التى مرت فى حياة الممدوح فبنت مجده ورفعت قدره. وقصائده فى ذلك كثيرة.

وهو فى رثائه جيد أيضًا، يأتى بالعظة والعبر. وذلك هو الأسلوب الفلسفى المعروف فى المشرق. ومن كلامه فى ذلك قصيدته التى يقول فيها:

وهب الدهر نفـيسًا فاسترد ربما جاد بخيل فحسد

كلما أعطى فوفى حاجة بيد شيئًا تلقاه بيد

كاذب جاء جهامًا زبرجًا بعد ما أومض برق ورعد

إنها شنشنة من أخزم قلما ذم بخيل فحمد

خاب من يرجو زمانًا دائمًا تعرف البأساء منه والنكد

فإذا ما كدر العيش نمى وإذا ما طيب الزاد نفد

فلقد أذكر من كان سها ولقد نبه من كان رقد

أبدًا يعجم منى نبعة وقناة ليس فيها من أود

واستقصاء الجيد من شعره يدعو إلى الخروج من مثل هذه الملخصات، فعلى من يريد الاطلاع على شعره أن يرجع إلى ديوانه المطبوع بمصر سنة ١٢٧٤ هـ.

***

obeikandl.com

ابن الحداد(١)

كان ابن الحداد من أهل وأصحاب الاطلاع وأهل الذوق فى الأدب واللغة، لأن نثره فنى مملوء بالمعانى، وأسلوبه سهل متين، هو أسلوب أديب مطلع على أحوال الاجتماع ونفوس الناس، هادئ فى كلامه، جزل فى ألفاظه واضح غير متكلف فى معانيه، يلمح المعنى فى ذهنه كما يلمح اللفظ اللائق به وكأنما يتقابل المعنى واللفظ فى خاطره فيلبس أحدهما الآخر ويمتزج هذا بهذا، أو كأنما قيس كل منهما على صمت صاحبه. فإذا أراد أن يكتب ازدحمت أمامه المعانى، وتراكمت عليه الأمثال والحكم والتراكيب العربية التى تمر بذهنه وذاكرته، فيأخذ منها ما سبق إلى لسانه، وما علق بذاكرته. لذلك تجد فى رسائله المعنى الطريف واللفظ الظريف، وكلام غيره وصناعة سواه، من مناهج الأدباء وأساليب الشعراء. وهو كأنه نقاد يختار منها الجياد. لا

(١) هو الأديب أبو عبد الله محمد بن الحداد. عاش فى دولة ابن عباد وتوفى سنة ٤٨٠ وكان ملازمًا للمعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف الذى كان معاصرًا للمعتمد بن عباد أيام دخول يوسف بن تاشفين فى الأندلس. وقد عاش ابن الحداد فى كنف ابن صمادح وابنه معن وخصهما بمدحه. وعرف كيف ينزل من نفس المعتصم بن صمادح منزلة الشرف والوقار وكيف يمدحه غير. متبذل ولا متغال. وكان لا خلافة أثر فى ذلك لأنه كان كبير النفس مبجلا محترمًا من جميع الناس.

وذكره الأدباء والنقاد ببعض الآراء الفلسفية فى شعره وميزوه عن بقية الشعراء والكتاب من أصحاب الأساليب الخيالية. وقد حسبوه من أصحاب الآراء والفلسفية لابتعاده فى كثير من شعره عن المجون الذى كان سمة لأكثر الشعراء هنالك، وكانوا يحسبون الكلام الجدى الخالى من المزح والهزل فلسفة كما نسبوا إليه الفلسفة فى قوله:

لزمت قناعتى وقعدت عنهم ... فلست أرى الأمير ولا الوزيرا

وكنت سمير أشعارى سفاها ... فعدت لفلسفياتى سميرا

يخـرج عن المعنى الذى يريد، ولا عن الرأى الذى إليـه قـصـد. ويقفـو أثر المعانى أكثر من اقتفاء الألفاظ. وقلمه جواب، ونفسه طويل، وكلامه فيه كثير من الأطناب ولكنه غير ظاهر ظهوره فى كلام غيره. وجملة القول أن أسلوبه النثرى من الأسـاليب الأدبية التى تساعـد على تقويم الألسنة مما اعتـبراها من العجمه. وهذه رسالة له:

"لما كان الكتاب وأعـزك الله جلاء الأقذاء، وصقال الأصـداء، وعقال الأدواء، وسمـتنى منه بوسـام، ولفحتـنى منه بسمـوم، وأسررت حـسوا فى ارتغاء، وأدمجت ما فى ثناء، والحر يأنف من الضيم، ويشمئز من الذم، ولا يقتصر على الاجتزاء، بغير الجزاء، ولو ترك القطا ليلا لنام، وفى العتاب حياة بين أقوام، فاصطبـر لشرب صبره، وانتدب لتسوغ مـره، فمن الحكم العدل، والقضاء الفصل، أن ألذعك بما لذعتنى، وأجرعك بما جرعتنى، غير آفك فى حال، ولا مـباهت بمحـال، والتمـويه ليس من خلق الكريم، والحر عـلى ما أساء يصـر، وكل مجـر فى الخلاء يسـر. والفضل لمن حـواه، لا لمن زخرف دعواه، وتحـقيق البرهـان، غير تنميـق البيان، والسـؤدد فى محـاسن الخلال والفعال، لا فى إمكان الزمان، وإقبال السلطان، وقـيمة كل امرئ ما يحسن. أمثـال أضربها عليك، واضـحة المناهج، ومـقدمات أنشـأتها معك، صـادقة النتائج، وجمل تشتمل على تفصيل حالينا، ونبذ تشير إلى ما فيه جرينا، وقد همنى عتـابك وإجلابك بريح تعـصف، ورعد يتـصف، واستقـبلنى خطابك وإطنابك، بويـل يخـسف، وسـيل يـنسف، بلغ الزبى وزاد، وغـــمـر الربا والوهاد، لو أم الجلالى لاقتلع أزهاره وطمس أنوارد الخ[1] . . . ".

---

(١) راجع بقية الرسالة فى الجزء الأول من الذخيرة.

أما طبقتــه بين الشعراء، فهو من الشعــراء المفكرين أكثر منه فى وصف الخيالــيين الذين يصفون الأشــياء وصفًا أو يذكــرونها كما يرونهــا. وحتى فى كــلامه الوجــدانى له أسلوب خــاص، يدل على أن فكره هو الذى يرشــده، ويحرك لســانه، ويملى عليه بيانه. ومع أنه كــان من أهل الفكر ورجال العلم المحترمين، كــان له شعر فى الغزل ووصف عواطفه، ظهرت فــيه مواهبه فى هذا النوع.

واشتهر عنه أنه أحب فى صباه فتاة نصرانية بلبه، وكان يسميها نويرة قد اتخــذ عشــقهــا وســيلة للتكلم فى أوصــاف المسيــحيــة والقــسس والكنائس والصلوات، من الأشياء النادرة فى الشــعر العربى، فخرج عن عــادة الشعراء فى الاقتــصار على أوصاف النفــوس وآلامها عند الكــلام على العشق. وهذا يدل على شىء من الابتكار، وسعة الخــيال، وتأثر الشعر وعقــول الشعراء بما يرون فى الحيــاة. وكلام ابن الحداد فى النصرانيــة وأهلها وإن كان قليــلا فهو جديد فى الشعر العربى، ألمح إليــه بعض الألماح المتنبى وأبو العلاء وغيرهما، مع أن كثيــرًا من الشعراء كان يعيش مع هؤلاء الناس ويرى أعــمالهم الدينية، ولكن لقــصر فى خــيــالهم وجمــود فى عقــائدهم، لم يحــوموا حــول هذه الموضوعات فى الكلام على من كانوا يعــاشرون من الأمم التى تدين بغير دين الإسلام، ومــا كانوا عليــه فى أعمــالهم الدينية المملوءة بالإلهــامات الشــعرية والخيالات.

وليس ابن الحداد أول من أحب نصرانية من الشعراء حتى كان ذلك سببًا من أسباب طرق هذا الموضوع لديه. ولكنه كان يرى ما لا يراه غيره. قال فى حبيبته:

فإن لى بالروم رومية ... تكنس ما بين الكنيسات
أهيم فيها والهوى ضلة ... بين صواميع وبيعات
وفى ظباء البدو من يزدرى ... بالظببيات الحضريات
أفصح وجدى يوم فصح لهم ... بين الإريطى والدوحات
وقد أتو منه إلى موعد ... واجتمعوا فيه لميقات
مواقف بين يدى أسقف ... ممسك مصباح ومنسات
وكل قس مظهر للتقى ... مبد لإنصات واخبات
وعينه تسرح فى عينه ... كالذيب يبغى فرس نعجات
أى امرئ سالم من هوى ... وقد رأى تلك الظبيات
وقد تلوا صحف أناجيلهم ... بحسن ألحان وأصوات
يزد فى نفسه يعافيره ... عنى وفى ضغط صباباتى
والشمس شمس الدجى من بينهم ... تحت غمامات اللثامات
وناظرى مختلس لمحها ... ولمحها يضرم لوعاتى
ففى الحشا نار نويرة ... علقتها منذ سنيات
لا تنطفى وقتًا وقد رمتها ... بل تتلظى كل أوقاتى
حبيبًا عنى رشا بالحنا ... وإن أبى رجع تحياتى

قلنا إن هذا شىء جديد فى الشعر العربى أو من نوادر أشعار العرب. جاء هؤلاء الشعراء من اختلاطهم بغيرهم. وقد رأينا رسالة نثرية لابن شهيد

obeikandl.com

تشبه هذا وهذا الكلام جـديد أيضًا فى أسلوبه، لأنه تكلم فى حبيـبته ثم فى القسس، ووصف الصـلاة والغناء، وكل هذا جديد، لأن شعراء العـشق قلما يخرجون عن الكلام من وصف النســاء إلى شىء آخر. على أن هذه العبارات طريفة. وقال فى هذه الفتاة وهو من نوع هذا الشعر.

فـــإن الحــسن ولا   ك حــيــأتى وإهـلاكى

وأولـعنـى بصـلبــان   ورهبــان ونـســاك

ولـم آت الـكنـائس عـن   هوى فــيــهـن لولاك

وهـا أنا مـنك فـى بلـوى   ولا فـــرح لبـلـواك

ولا أسـطـيع سـلـوانـا   فــقــد أوثقـت إشـراكى

وكم أبـكى علـيك دمـا   ولا تـرثيـن للبــاكـى

فـهـل تدرين مـا تقـضى   علـى عـينى عـيناك

ومــا يـذكـيـه من نار   بـقـلبـى نـورك الـذاكى

حـجبت سناك عن بسرى   وفـوق الشـمس سـيـمـاك

وفى الغـصـن الرطيب وفى   النـقــا المرتج عطـفــاك

وعـند الـروض خـــدا   ك وفـــى ريـــاه ريـــاك

نويـرة إن قلـيت فـــإنـ   ـــنـى أهـواك أهـواك

وعــيناك الشــهـــيـدا   ن بانى بـعض قــتــلاك

وقد أفتن فى مـعانيه وفى كلامه فى هـذه النصرانية، واجتـهد فى مزج أوصافها ومسائل عقائدها فى شعره، فأخذ شعره لونًا جديدًا باهرًا غير مألوف فى العربية. ففيها يقول:

وبين المسيحيات لى سامرية   بعيد على الصب الحنيفى أن تدنو
مثلثة قد وحد الله حسنها   فثنى بها من قلبى الوجد والحزن
وتحت الخمار الجون حسن كأنما   تجمع فيه البدر والليل والدجن
وفى معقد الزنار عقد صبابتى   فمن تحته دعص ومن فوقه غصن

وفى هذا المعنى يقول أيضًا:

وفى شرعة التثليث فرد محاسن   تنزل شرع الحب من طرفه وحيا
وأذهل نفسى فى هوى عيسوية   بها ضلت النفس الحنفية الهديا
فمن لجفوتى بالتماح نويرة   فتاة هى المأوى النفيس أو المحيا
سبتنى على عهد من السلم بيننا   ولو أنها حرب لكاتب هى السبيا

واصطبح مع المعتصم يومًا ومعه ندماؤه وأظهر صبية متصرفة فى أنواع اللعب والطرب، وحضر أيضًا لاعب مصرى هناك فارتجل ابن الحداد:

كذا فلتلح قمرًا ظاهرًا   ونجنى الهوى ناظرًا ناضرا
وسيبك سيب ندى مغدق   أقام لنا هاملا هامرا
وإن ليومك ذا رونقًا   منيرًا لنور الضحى باهرا
صباح اصطباح بأسفاره   لحظنا محيا العلا سافرا
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس   وما زال كوكبها زاهرا
وأسمعتنا لاحنًا فاتنًا   وأحضرتنا لاعبًا ساحرا
يرفرف فوق رءوس القيا   ن فننظر ما يذهب الناظرا

obeikandi.com

ويخطفها ذيل سر باله فتبصر طالعها غائرا
فظهرها ينثنى باطنًا وباطنها ينثنى ظاهرا
وثناه ثان لألعابه دقيق تثنى الحجى حائرا
وفى سورة الراح من سحره خواطر دلهت الخاطرا
إذا ورد اللحظ أثناءها فما الوهم عن وردها صادرا
ومن بدع نعماك أبداعه فما أنفك عارضها ماطرا
وسعدك يجتذب المغربات ويجعل غائبها حاضرا

ولقد كان يمزج هذه الخيالات الجميلة بالمدح. كقوله فى مدح بنى هود وقد أكرمه المقتدر وأعلا من شأنه فمدحه بقوله:

أسالت غداة البين لؤلؤ أجفانى وأجرت عقيق الدمع فى صحن أجفانى(1)
وألقت حلاها من أسى فكأنها أطارت شوادى الورق من فتن اللبان
وأذهلها داعى الهوى عن تنقب فحيا محياها بتفاح لبنان(2)
وقد أطبقت فوق الأقاحى بنفسجا ....
وليل بهيم سرته ونجومه أزاهر روض أو سواهر أجفان
كأن الثريا فيه كأس مدامة وقد مالت الجوزاء ميلة نشوان
وما الدهر إلا ليلة مدلهمة وشمس ضحاها أحمد بن سليمان

(1) و(2) كذا الأصل.

وقصائده كثيرة فى الجزء الأول من الذخيرة، وفيها جملة من نثره، وذكره صاحب فوات الوفيات فى الجزء الثانى. وابن خاقان فى مطمح الأنفس. وفى فهرس الجزء الثانى من نفح الطيب طبع أوروبا المواضع التى ذكره فيها المقرى.

* * *

obeikandl.com

ابن خفاجة الأندلسى

هو أبو اسحق إبراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة الأنندلسى الشاعر الأديب المشهور. ولد ببلدة شقر، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر. وكانت ولادته سنة ٤٥٠ وتوفى بها سنة ٥٣٣. عاش فى عصر المرابطين بعد زوال دولة بنى أمية والدولة العامرية، وبعد انتهاء دولة بنى عباد، أى فى عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أو كاد يبلغ منتهاه، وكان الأدباء فى لهو ومجون، وكانت الملاهى والاشتغال بالملذات صرفت إليها العقول، وجذبت إليها الأفكار، فهذبت منها قليلا أو كثيرًا. وإذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال، ومنى عشقت الجمال مالت إلى فهمه، وانغمست فى إدراك أسرار الطبيعة، وما فيها من روعة وإبداع. فإذا كانت النفوس قد تهذببت بالعلوم والفنون المختلفة، أدركت جمال الكون إدراكًا عميقًا - كما يقولون - وبحصت عن خفاياه بحث الفيلسوف عن الحقائق، وكان الشاعر فيلسوفًا فنيًا وشاعرًا فيلسوفًا، يظهر الفلسفة فى ثوب شعرى، ويظهر الشعر فى ثوب فلسفى. أما إذا كان فنيًا بطبعه، ولم يكن له نصيب من العلوم، فإنه يكتفى بالنظر إلى الأشياء، وفهم جمالها، على حسب ما بها من التناسق الظاهر، والمناظر الباهرة، وجمال الألوان، وكل ما توحيه الطبيعة إلى النفس من الإعجاب. ولقد يؤثر هذا الشاعر فى النفس بجمال قوله، كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق إدراكه.

ومثل ابن خفاجة مثل ذلك الشاعر الذى وقف كل مواهبه لإدراك الجمال، وفهم ظواهره الرائعة المبثوثة فى أنحاء الكون. فهو من الشعراء الذين

ربتهم الطبيعة بجمالها، وهذب إدراكه جمال الوجود، فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية إلى معالجة التعبير عن هذا الجمال، وانغمس انغماسًا فى ذلك، حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع، ولا يفهم غير المعانى الجميلة. فقد كان يخرج إلى البرارى ليسمع خرير المياه، ويتمتع بهذه الأصوات والمشاهدات. وكان له ولع بهذا، وبكل ما يقال فيه، حتى لقد كان يجارى الشعراء ويعارضهم فى مثل هذه المعانى التى شغلت عقول كثير من الأدباء والشعراء. وكان الكلام فى مناظر الطبيعة إذ ذلك من بدع البلاغة والأدب. فقد قالوا "ركب بعض الأدباء مع أصحاب له فى نهر إشبيلية فى عيشة سال أصيلها على لجين الماء عقيانا، وطارت زواريقها فى سماء النهر عقبانا، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سررًا وأعطانا، فى زورق يجول جولان الطرف، ويسود أسواد الطرف، فقال بديهًا:

تأمل حالنا والجو طلق ... محياه وقد طفل المساء

وقد حالت بنا عذراء حبلى ... تجاذب مرطها ريح رخاء

بنهر كالسجنجل كوثرى ... تعبس وجهها فيه السماء

واتفق أن وقف أبو إسحق بن خفاجة على القطعة فاستطرفها واستطابها. فقال يعارضها:

ألا يا حبذا ضحك المحيا ... بحانتها وقد عبس المساء

وأدهم من جياد الماء نهر ... ينازع جله ريح رخاء

إذا بدت الكواكب فيه غرقى ... رأيت الماء تجسده السماء

فكان شغف ابن خفاجة بمثل هذا الكلام عظيمًا، وكانت له ميول

للمجون. فاجتمعت هذه الميول النفسية، إلى حبه لجمال الطبيعة وكونت ملكته الشعرية وخيالاته وتصوراته، حتى لقد كان يملأ نفسه المجون فيملى عليه من المعانى ما يرسم شيئًا من أخلاقه وميوله فى الحياة. كما قال:

وما الإنس إلا فى مجاج زجاجة ... ولا العيش إلا فى صرير سرير

وأنى وإن جئت المشيب لمولع ... بطرة خل فوق وجه غدير

كذلك كانت ميول ابن خفاجة، وهكذا كانت أخلاقه، فكانت كأخلاق كل الفنيين وميولهم: خفة وطيشا. ولكنها خفة روح تدعو إلى حبه وحب كلامه. وهذا كله فى شعره ونثره. وكأنه لم يكن يرى من الحياة إلا ما يتفق مع أهوائه من بهجة وجمال. حتى أنه وصف الأندلس وقال:

يا أهل أندلس لله دركم ... ماء وظل وأنار وأشجار

ما جنة الخلد إلا فى دياركم ... ولو تخيرت هذا كنت أختار

هذا السرور النفسى كان يغمره ولا يفارقه، فإنه كان يحب بلاده، لأنها جميلة تشبه ما يحب فى حياته من الجمال، إذ يقول:

إن للجنة بالأندلس ... مجتلى عين وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب ... ودجا ليلتها من لعس

فإذا ما هبت الريح صبا ... صحت وأشوقى إلى أندلس

هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية فى جملتها وأثرها ظاهر فى حياته العقلية، وفى رسائله النثرية وقصائده الشعرية.

لذلك كان صاحب مذهب كتابى، وأسلوب أدبى، يوازن بأبى تمام فى شعره وذهبه، وبابن العميد أو الهمذانى فى النثر والكتابة. فإنه يشبه أبا تمام

من حيث الميل إلى تنميق عباراته الشعرية والتعمل قليلا أو كثيرًا فى ذلك، والعناية بذكر أنواع البيان والبديع. ولكنه مع هذا غير ظاهر التكلف كأن ذلك جاءه عفوًا أو كأنه سليقة له. وهو على ما يظهر من شعره من المتشيعين لطريقة أبى تمام، المعجبين بها. كما أن غيره من الشعراء كان يقفو أثر المتنبى فى أسلوبه ويتشبه به فى آرائه الفلسفية. ولكنا لم نر أحدًا فاق المتنبى فى أسلوبه الفلسفى، بل كانوا جميعًا مقلدين أو مغترفين من بحره. حتى أنهم لم يبلغوا شأوه، ولكن بن خفاجة أخذ عن أبى تمام وجاراه وفاقه فى أسلوبه، لأنه غير متكلف كأبى تمام. بل جاءه ذلك من باب الميل النفسى والسجية. حتى لقد يذكر المعنى ونفس الخيال الذى ذكره أبو تمام، ولكنه خال من كل كلفة أو لعمل ظاهر. ذلك لأن ابن خفاجة كان يشعر من الجمال بما لم يكن يشعر به أبو تمام. ويكفى أن يتكلم الإنسان عن شعور ليمتاز فى كلامه ويلمس القلوب بعباراته.

ويظهر عن عبارات ابن خفاجة أنه كان متمكنًا من صناعته، عارفًا بها، سائرًا على منوال واحد فيها، فى نظمه ونثره. وليس نثره غير منثور، ولا شعره غير نثر منظوم. فإن رسائله القليلة التى عثرنا عليها، هى من قبيل النثر السهل المتكلف، سهل فى ألفاظه وفهم معانيه، متكلف فى اتباع طرق علوم البيان. وهو مع ذلك رشيق الأسلوب. ولقد غير من نثره عبث الطبيعة وجمالها بعقله، وامتلاكها قوة الخيال منه.

كتب رسالة يصف فيها منتزهًا وكأنما قلمه ريشة مصور ماهر، تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول فى أنحائه، فترى كل ركن من أركانه، وكل ناحية من أنحائه، وكل زهرة ووردة، وكل شجرة وغصن وكأنما يلمسك

نسيـمها العليل، وتجـرى أمامك الجداول والأنهـار. ذلك إلى أسلوبه الخاص المسجوع وكـأنما هو مرسل. وتجد الجملة الطويلة المسجـوعة، على حين أنك تجد كلمة واحدة شطر سجعـة أو سجعة كاملة قال: "... ذهبت فى لمة من الإخوان نسـتبق إلى الراحة ركضًـا، ونطوى التفرج أرضًـا، فلا ندفع إلا إلى غدير نمير قد استدارت منه فى كل قراره سماء. سحائبها غماء، وانساب، فى كل تبعة حباب، جلده حباب، فترددنا بتلك الأباهج نتهادى تهادى أغصانها، ونتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم تراسل مشى، على بسـاط وشى. فإذا مر بغـدير نسجـه درعًا، واحكمـه صنعًا، وإن عـبر بجـدول شطب منه نصـلا، وأخلصـه صقـلا، فـلا ترى إلا بطاحًـا، مملوءة سلاحًـا، كأنما انهزمـت هنالك كتائب فـألقت بما لبسـته من درع مصـقول، وسيف مسلول، .... فاحتللنا قبـة خضراء ممدودة أشطان الأغصان سندسية رواق الأوراق. وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل، وتشمل عليه برداء نسيم عليل، ونجيل الـنظر فى نهر صقل، صـافى لجين الماء، كـأنه مجرة سـماء. موتلق جوهر الحباب، كان من ثغور الأحباب. وقد حضرنا مسمع يجرى مع النفوس لطاقة، فهو يعلم غرضها وهواها، ويغنى لها مقترحها ومناها، فصيح لسان النقر، يشفى من الوقر، كأنه كـاتب حاسب تمشق يمناه، وتعقد يسراه، يحرك حين يشدو ساكنات، وتنبعث الطبائع للسكون.

أما إذا خرج عن هذا النوع الوصفى الخيالى الفنى فقد يضيق الطريق فى وجهه، وقد يثقل كلامه ويتكلف فى عبارته. كما فى رسالة يعاتب فيها[1].

---

(١) قالوا كـانت بين أبى اسحق وبعض إخـوانه مقاطعـة فاتفق أن ولى ذلك الصـديق حصنًا فخـاطبه أبو اسحق برقـعة منهـا: "أطال الله بقاء سيـدى النبيهـة أوصافـه النزيهة عن=

وكان ابن خفاجة كثير النظر والتأمل فى المشاهدات، ولا سيما المناظر الطبيعية، متأثرًا بالمنظورات، يحرك عقله نظره. للألوان وتناسقها سلطان عظيم عليه، وكل معلوماته جاءته من طريق النظر إلى الأشياء، فكان يرى ويلاحظ ويعرف كيف يلاحظ. ولم يكن له إلا أن يلبس هذه المنظورات عبارات وألفاظًا بليغة فصيحة. وإذ كان بطبيعته فنيًا كان اختياره للألفاظ

=الاستثناء المرفوعة أمارته الكريمة بالابتداء ما انحذفت ياء يرمى للجزم، واعتلت ولو يغزو لموضع الضم كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة، ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة. وأنا أستنهص طولك إلى تحديد عهدك بمطالعة ألف الوصل وتعديه فعل الفصل. وإلى عدولك عن باب ألف القطع إلى باب الوصل والجمع، حتى تسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت، ويدخل الانتقال حال الصمت، فلا تتخيل أعزك الله أن رسم إخائك عندى . . قد درس عفاء، ولا أن صدرى دارمية أمسى من ودك خلاء. وإنما أنا فعل إذا ثنى، ظهر من ضمير وده ما بطن، وبدا منه ما كمن، وهنيئًا أعزك الله أن فعل وزاترك حاضر لا يلحق رفعه تغيير، وأن فعل سيفك ماض فيه ما به للعوامل تأثير، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف. تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف. ودرس حرف العطف، وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك، وتوجب بعد التقى ما سلف من عبتك. وتدع ألف الألفة أن تكون بعد من حروف اللين. وترفع بالإضافة بيننا وجود التوين. وتسوم ساكن الود أن يتحرك. ومعتقل الإخاء أن يصح، وكتابى هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الأولى صفة. وتصير هذه النكرة معرفة, فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنيل، ومنك اشتقاق اسم السؤدد والفضل، وأنك وإن تأخر العصر بك كالفاعل ورقع مؤخرًا. وعدوك وإن تكبر كالكميت لم يقع إلا مصغرًا. وللأيام علل تبسط وتقبض، وعوامل ترفع وتنخفض. فلا دخل عروضك قبض. ولا عاقب رفعك خفض، ولا زلت مرتبطًا بالفضل شرطك وجزاؤك. جاريًا على الرفع سروك الكريم وسناؤك، حتى تخفض الفعل. وتبنى على الكسر قبل، إن شاء الله" راجع نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٥.

والجمل حسنًا جيدًا، كما يختار المصور الماهر الألوان الجميلة اللازمة له. لذلك، كان أسلوبه جميلا، وعباراته سهلة، وكلامه سائغًا للنفس، بعيدًا عن كل تقعيد أو تركيب ركيك، أو غموض فى اللفظ أو المعنى. ويكاد يكون ديوان شعره من أوله إلى آخره على نسق واحد فى المتانة وحسن العبارة، وكله من نوع واحد من حيث الصور العامة. ولكن تكرار المعانى لا يكاد يجد له القارئ أثرًا لبراعة الشاعر واختياره المعانى التى كلما مرت بالنفس أو بالسمع تجدد أثرها بتجديد ألفاظها، وتتغير آثراها بتغير تراكيبها.

ولقد يصف فيخيل إليك أنك تنظر فى لوحة مصور، أو كأن كل معنى فى كلامه "كائن حى" يتحرك أمامك. قال يصف طيفًا ألم به فى الليل الطويل، وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون فى هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبته، والتمتع به فى حضرته. والليل يحيط بهما وهو على وشك الانصراف، وأخذ يشبه محبوبه بأنواع الرياحين، وهو تشبيه سهل الإدراك صعب التركيب. وليس هذا الكلام فى طاقة كل شاعر، ولا امتلاك البيان بمثل هذا فى طوع كل فتى يتكلم فى الليل ثم فى الطيف ووصفه بأرق ما يصف به حبيب حبيبه، وأحسن ما ينال عاشق من عشيقه، وقد دام إلى طلوع الفجر، وعيون الليل تتجسس أخبارهم، وضوء الصبح يرقبهم:

ورداء ليل بات فيه معانقى ... طيف ألم لظبية الوعساء

فجمعت بين رضابه وشرابه ... وشربت من ريق ومن صهباء

ولثمت فى ظلماء ليلة وفرة ... شفقًا هناك لوجنة حمراء

والليل مشمط الذوائب كبرة ... خرف يدب على عصا الجوزاء

ثم انثنى والسكر يسحب فرعه ... ويجر من طرب فضول رداء

تندى بفيه اقحوانة أجرع   قد غازلتها الشمس غب سماء
وتميس فى أثوابه ريحانة   كرعت على ظمأ بجدول ماء
تفاحة الأنفاس إلا أنها   حذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقًا حسبها   فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء غمامة   عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة   أغرى بها ببنفسج الظلماء

ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الحالكة المنبعثة من كل ركن من أركان الفضاء. وما قد توحيه إلى النفس من الخوف والرهبة. وما يلاقيه السارى من حيوان كاسر. وكأنما يظن القارئ نفسه فى جوف الفلاة ومخاطر الليل. كل ذلك بتشبيهات جميلة مختارة. كما قال:

ومفازة لا نجم فى ظلماتها   يسرى ولا فلك ها دوار
تتلهب الشعرى بها وكأنها   فى كف زنجى الدجى دينار
ترمى به الغيطان فيها والربى   دولا كما يتموج التيار
قد لفنى فيها الظلام وطاف بى   ذئب يلم مع الدجى زوار
طراق سادات الديار مساور   ختال أبناء السرى غدار
يسرى وقد نضج الندى وجه الصبا   فى فروة قد مسها اقشعرار
فعشوت فى ظلماء لم تقدح بها   إلا لمقلته وبأسى ثار
ورفلت فى خلع على من الدجى   عقدت لها من أنجم أزرار
والليل يقصر خطوه ولربما   طالت ليالى الركب وهى قصار

obeikandi.com

قد شاب من طرف المجرة مفرق	فيها ومن خط الهلال عذار

وكما قال:

وليل كما مد الغراب جناحه	وسال على وجه السجل مداد
به من ومبض البرق والليل فحمة	شرار ترامى والغمام زناد
سريت به أحييه لاحية السرى	تموت ولا ميت الصباح يعاد
يقلب منى العزم إنسان مقلة	لها الأفق جفن والظلام سواد
بخرق لقلب البرق خفقة روعة	به ولجفن النجم فيه سهاد
سحيق ولا غير الرياح ركائب	هناك ولا غير الغمام مزاد
كأنى وأحشاء البلاد تجننى	سريرة حب والظلام فؤاد
أجوب جيوب البيد والصبح صارم	له الليل غمد والمجر نجاد
وفى مصطلى الآفاق جمر كواكب	علاها من الفجر المظل رماد

ووصف نارا هبت عليها ريح فأضرمتها وكأنما يتغازلان. أو كأن النار والريح فى موقف طرب يمايلان من تشويه. أو كأن الريح عاشق متيم يلثم خد اللهب الخجل. أو كأن فى موفد النار ماء عليه من نجوم حبب. فقال:

لاعب تلك الريح ذاك اللهب	فعاد عين الجد ذاك اللعب
وبت فى مسرى الصبا يتبعه	فهولها مضطرم مضطرم
سهرته أحسبه منتشيًا	يهز عطفيه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لمادرى	ألهب منتقد أم ذهب
تنسم منه الريح خدا خجلا	حيث الشرار أعين ترتقب

فى مـوقـد قـد رقـرق الصبح به   مــاء عليـــه من نجم حـــبب

منقـــــسم بـين رمـــاد أزرق   وبين جـمــر خلفـه يلتـهب

كــأنما خـرت ســمــاء فـوقـه   وانكدرت لـيــلا عليــه شــهب

ووثف ساقيًا جميلا، فوصف الخمر أيضًا ومجلسه، وكأنما السرور يسيل بين ألفاظه، والنعيم والسعادة يتمثلان فى كلامه. فقال:

وأغـيـد فى صـدر الكلام لحسنه   حلى وفى صـدر القصـيد نسـيب

من الهــيف أمـا ردفــه فــمنعم   خـصيب وأمـا خـصره فجـديب

يرف بروض الحسن من نور وجـهه   وقـــامــتـــه نـوارة وقــضــيب

جـلاها وقد غنى الحـمام عـيشـة   عـجوزًا عليـها لـلحباب مشـيب

وجـاء بها حـمـراء أما زجـاجهـا   فنور وأمــا مـوجــهـا فكثــيب

تجـافـت بهـا عنا الحــوادث برهة   وقـد سـاعـدتنا قـهـوة وحـبيب

وغـــازلنـا جــفن هناك كـنرجس   ومـبــتــسـم للأقـحـوان شنيب

فـالله ذيل للتـصـابى سـحـبتـه   وعـيش بإطراف الـشـبـاب رطيب

وكل شىء يراه كان يوقظ خياله، وينبـه من إدراكه، ويدفعه إلى ابتكار المعانى الجميلة. فقد رأى رجلا أسود أحدب يسقى خمرًا فقال فى ذلك:

رب ابن لـيل ســـقـــانا   والشـــمس تـطلع غـــره

فـظل يـســــــود لونًـا   والكأس تـسطع حـــمــره

كـــأنه كـــيس فـــحم   فـد أوفـدت فـيـه جـمـره

ولـلمـــــدام مـــدير   يشب جــمــرة خــمــره

obeikandi.com

تضاحكت عن حباب … يقبل الماء ثغره
فظلت آخذ ياقو … تة وأصرف دره
حتى تثنيت غصنًا … واصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف … به من السقم فتره
يجول للغيم كحل … فيه وللقطر عبره

ولقد يفكر فى شعره فيأتى بأفكار جميلة، وملاحظات جميلة، ويخرج من معنى إلى آخر. وقد تكون المعانى معروفة وجديدة معًا، لأنه يبدع ويبتكر فى التعبير. كقوله:

وليل إذا ما قلت قد باد فانقضى … تكشف عن وعد من الظن كاذب
سحبت الدياجى فيه سود ذوائب … لأعتنق الآمال بيض ترائب
فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس … تطلع وضاح المضاحك قاطب
رأيت به قطعًا من الفجر أغبشا … تأمل عن نجم توقد ثاقب
وأرعن طماح الذؤابة باذخ … يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة … ويزحم ليلا شبهه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه … طوال الليالى مفكر فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم … لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت … فحدثنى ليل السرى بالعجائب
وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل … وموطن أواه تبتل تائب

obeikandi.com

وكم مـــر بى من مـــدلج وملوب ... وقـــال بظـلى من مطـى وراكب
ولأطعم من نكب الرياح مـعاطفى ... وزاحم من خضـر البحـار غواربى
فـما كـان إلا أن طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح الـنوى والنوائب

وكما فى قوله فى المشيب:

أرقت علـى الصبـا لطـلوع نجم ... أسـمـيـه مـسـامـحـة مـشـيـبـا
كـــفـــانى زرء نفس أن تـبـــدى ... وأعظم مـنه رزاء أن يغـــيـــبـا
ولولا أن يـشق علـى الغـــوانى ... للافـيت الـفـتـاة به حـضـيـبـا
فلم أعـــدم هناك به شـــفـيـــعًـا ... إلى أمل ولـم أبرح حـــبـيـــبـا
غـريبـــة شيب فـــود أن تراخت ... حـــيـــاتى آل أســـوده غـــريبـــا
شنئت بمـجـتـــلاها النور حـــتى ... شنئت بمجـتـلى النور القـضـيـبـا
وعـفت كـــراهة للشىء شيـــئًـا ... يكون له شـبـيـهًـا أو نسـيـبـا
وأيه شـــــيـــــبـــــة إلا نـذير ... وهل طرب وقـد مـثلـت خطيـبـا

ويمـدح فلا ينسى جـمال الكون، وفى كل مـدحه يمـيل إلى أن يكون جميلا فى كـلامه وأوصافه، ولعله لا يقصد إلى ذلك، وإنما هـذه هى طبيعة ونوع إدراكه. قال:

لقـد ضـحك الصـبـاح بمجـتـلاه ... وراء اللـيل عـن ثغـــــر شنيب
وظاهرنـى بمغـــتـربى حـــســـام ... أنت بـه ونعم أخـــو الغـــريب
أشـــيم بـه سنا بـرق يمـــــان ... يخـفـرنى إلى المـرعى الخـصـيب
إلى جـــذلان وضـــاح المحـــيـــا ... سليم الـقلب والصـدر الرحـيب

إلى يـقظان وقـــاد العـــوالى　　　مـريش الـسعى بالرأى المـصيب
يســاور منه طوراً ليـث غــاب　　　ويمـــســح تارة عـطفـى أديب
إذا اسـتمطرت منه غـمام رحـمى　　　أو اسـتنصـرت فى يوم عـصـيب

ولقد يجمع كثيراً من الصور والألوان فى أبيات قليلة وهو يبدع التصوير ويسيل كلامه ورقة. كقوله:

وصـقـيل إفرند الـشبـاب بطرفـه　　　سـقم وللعــضب الحــسام ذباب
يمــشى الهــوينـا نخــوة ولربما　　　أطرته طـوراً نشــوة وشـــبــاب
شـتـى المحـاسن للوضــاءة ريطة　　　أبداً علـيــه وللحــيــاء نقــاب
وبمعطفــيـه لـلشـبـيـبـة منهل　　　قد شف عـنه من القمـيص سراب
عـبــر الخليج سـبـاحــة فكأنما　　　أهوى فـشق به السـمـاء شـهـاب
تطفــو لغــرتـه هناك حــبــابة　　　ويمــوج من ردف ألف عــبــاب

وكل شعـر ابن خفـاجة من الوجـدانيات المملـوءة بالصور والخـيالات والأوصاف الدقيقة، وأكثره خال من الأفكار النفسـية والفلسفية والاجتماعية، فقراءته أشبه بالنظر إلى الصور الجميلة للتمتع برؤيتها والتسلى ببهجتها.

***

ابن سهل

هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلى[١] الإشبيلى الشاعر المشهور من أهل القرن السابع الهجرى. مات سنة ٦٤٩ هـ بعد أن عاش أربعين عامًا، وقالوا أنه مات غريقًا مع أحد الولاة. وقد تعلم الأدب واشتغل به على أكابر العلماء، ونبغ فى الشعر حتى قالوا عنه أنه شاعر إشبيلية ووشاحها. وظهر نبوغه فى الشعر وهو شاب، وشهد له بذلك كبار الشعراء[٢]. وعلى الرغم من أن العصر الذى عاش فيه ابن سهل كان من أواخر عصور العرب فى الأندلس، فإن الشعر كان لا يزال على حاله من الرقى وحب الشعراء وتمجيدهم. بل كانت هذه الأيام الأخيرة من أيام عز اللغة ونموها، فقد كثر الافتنان فى أنواع الشعر من موشحات وغيرها. بل كانت لا تزال البلاد عامرة بالعلماء. من كل نوع. ذلك لأن سقوط دولة العرب لم يسبقه انحطاط فى مدنيتهم، أو تقهقر فى حضارتهم، بل سقطت الدولة وهى فى عزها وقوة نشاط عقول أبنائها. لأن ذلك لم يكن من ضعف فيها أو شيخوخة أدركتها،

---

(١) عنى أصحاب التراجم بعقيدته ورووا أنه سلم فى آخر أيامه، وبحثوا فى صحة إسلامه ورماه بعضهم بعدم الإخلاص، وقالوا أنه كان يتظاهر بالإسلام، حتى قالوا أن تمسكن اليهودية من نفسه كان له أثر فى شعره وقالوا فى ذلك "سئل بعض المغاربة عن السبب فى رقة نظم ابن سهل فقال لأنه اجتمع فيه ذلان ذل العشق وذل اليهودية" وذلك لإعجابهم بنظمه

وقالوا فيه لما بلغهم غرقه. عاد الدر إلى وطنه. ورووا عنه فى صحة إسلامه قوله:

تسليت عن موسى بحب محمد ... هديت ولولا الله ما كنت أهتدى

وما عن قلى قد كان ذاك وإنما ... شريعة موسى عطلت بمحمد

(٢) راجع حديثه مع الهيثمى فى فوات الوفيات جـ ١صـ ٣٠.

ولكن عوامل الحقد دبت فى نفوس أهلها فكاد بعضهم لبعض، حتى خرجت الدولة من بدهم وهم فى عز جاههم. وربما كان سقوط الدولة لم يسبقه أى عامل من عوامل التأخر العقلى. لذلك كان عصر بنى هود الذين كان من شعرائهم ابن سهل وعصر بنى الأحمر، وحتى عصر برابرة إفريقية غاصة بالعلماء والأدباء والشعراء، وكان كلما تقدم الزمن بالدولة ظهرت فيه ثمار العلوم والعقول، لأنها كانت دائمًا نتيجة الجهود السابقة. وأرق شعر الأندلس ما جاء بعد القرن الرابع أى بعد زوال دولة بنى أمية، التى كان عصرها أزهى عصور الحضارة هناك. لذلك يمكن القول بأن اللغة العربية فى جملة سيرها لم يدركها انحطاط محسوس فى أثناء القرون الثمانية التى تخبطتها فى الأندلس، سوى ما حصل من المبالغة فى طريقة السجع النثرية. ويمكن أن نقول أن ابن سهل وهو من شعراء القرن السابع، يشبه غيره من شعراء القرن الثانى والثالث، وأن سير اللغة والأدب فى الأيام الأخيرة مثله فى الأيام الأولى، بدليل كثرة الشعراء والكتاب المجيدين الذين ظهروا فى تلك الأيام، ولأننا لا نجد شيئًا من تقهقر اللغة فى آخر الدولة.

ولو أننا أردنا أن نتكلم على ابن سهل من حيث تربيته العقلية، لوجدناه كغيره من الشعراء الذين تهذبت نفوسهم وعقولهم بجهود العقول التى أثمرت قبلهم، والاطلاع على شعر الشعراء وكتابة الأدباء. وربما نزح آباؤه إلى الأندلس منذ زمن بعيد، ولكنه على كل حال غير عربى الأصل، نبغ فى بلاغة العرب وشعرهم وتعلم العربية وبرع فيها. وليس شعر ابن سهل إلا نتيجة تربية عقلية عربية واسعة واشتغال كبير بلغة العرب، مما يدل على اندماج غير العرب فيهم والعناية بحفظ لغتهم كما هو معروف فى التاريخ من اشتغال المقهور بلغة القاهر أو تقليد المحكوم الحاكم فى لغته وعلومه ومدنيته.

أما شعره فيكاد يكون كله وجدانيًا صرفًا ولا تكاد تجد له فى غير الغزل إلا القليل. فهو من الشعراء الذين كانوا يستسلمون إلى الأهواء فتقودهم، وإلى القلوب والخيالات فترشدهم إلى الكلام وطرقه. لذلك كان شعره جميلا، ومعانيه رائعة شائقة سائغة للنفس، مع رشاقة فى اللفظ ومتانة فى الأسلوب، ودقة فى التعبير. ذلك لأنه أمعن فى هذا الكلام الغزلى حتى أتقنه وبرع فى عباراته وكشف مخبآته. وكأنه لم يترك شيئًا يجول برأس العاشق أو تتحدث بها نفسه إلا ذكره أو وجده فى نفسه فتكلم عليه فى شعره. وقد خط له بهذا طريقًا سلكه ولم يخرج عنه إلى طريق آخر. وكأن آراءه فى العشق والغزل هى كل ما يعرف وكل ما لديه من طرق التفكير وأساليبها، لأنه لم يخرج مطلقًا عن هذه الدائرة حتى أتى على آخرها مرات وابتدأها من أولها مرات. ومثله فى ذلك مثل من عرف حادثة واحدة من الحوادث فكتبها أولا من أولها إلى آخرها، ثم رتبها ترتيبًا آخر كتبها بحيث جعل الأول آخرًا والآخر أولا، ثم كتبها مرة ثالثة بحيث ابتدأها من الوسط وهكذا. فعدم خروجه عن دائرة الغزل ربما يدل على قصور خياله، لأن الشاعر الكبير الخيال يرى ألف شيء، ويفكر فيما حوله من الموجودات ويعمل على تصويرها وإبرازها بشكل جميل. والإنسان يرى غير حبيبه ويشعر بغير الحب، إذ ليس ذلك كل ما فى الحياة اللهم إلا أن يكون شاعرًا متيمًا مجنونًا بحبيبته، غارقًا فى بحار عشقه لا يرى ولا يعقل غير ذلك. وليست هذه حال ابن سهل لأن جنون الحب غير ظاهر فى شعره، فإنه على الرغم من اقتصاره على تغزله بحبيبه موسى تجده فى كلامه ساكنًا عاقلا، ومتعملا للكلام أحيانًا. والظاهر أن موسى حبيبه رمز على عشقه إن كان عاشقًا عشقًا صحيحًا، أو ضرب من ضروب الفكاهة والظرف، لأنه كان يهوديًا فأراد أن يذكر اسم موسى فى

Obeikandi.com

شعره ويرمز به عن عشقه، أو لعله اتخذ موسى هذا داعيًا من دواعى الشعر فأخذ يتغنى باسمه.

أما هذا الإكثار من الغزل والضرب على نغمة واحدة وعدم الخروج عن هذه الدائرة، فلا يدل إلا على قصور باع الشاعر وضيق الخيال لديه كما قلنا، وأنه ليس شاعرًا واسع التصور والخيال.

لهذا يكفى لمعرفة شعر ابن سهل أن تقرأ له قصيدة واحدة، فإن كل صائده تكاد كلها متساوية فى المعنى والجودة والأسلوب. وربما ظهرت قيمته فى شعره على أثر قراءة قصيدة أو قصيدتين أو ثلاث، وأعجب الإنسان بأسلوبه وبيانه، فإذا أكثر من قراءة شعره انطفأ لهيب ها الإعجاب شيئًا فشيئًا، ثم أحس القارئ أنه شاعر ككل الشعراء. وسبب ذلك تكرار المعنى الواحد بأسلوب واحد.

ولكنه مع هذا كله شاعر مجيد فى نوعه، يتغزل فيذكر فى غزله كثيرًا من معانى العشق المختلفة، فيصف حبيبه بالجمال والكمال، ويصف ألمه ويشكو ويلتذ منه، ويبين كامن عواطفه وما هو فى نفسه، ويمعن فى ذلك حتى يأتى بشىء من المعانى المبتكرة والخيالات التى له. كقوله:

وإنى لثوب السقم أدر لابس ... وموسى لثوب الحسن أملح مرتدى

تأمل لظى شوقى وموسى يشبها ... تجد خير ثار عندها خير موقد

دعوة يذب نفسى ويهجر ويجتهد ... تروا كيف يعتز الجمال ويعتدى

إذا مارنا شرزًا فمن لحظ أحور ... وإن يلو إعراضًا فصفحة أغيد

وعذب بالى نعم الله باله ... وسهدنى لاذاق بلوى التسهد

تطلع واللاحى يلوم فراعنى ... وكدت وقد أعذرت يسقط فى يدى
وناديت لا إذا قال تهوى وإنما ... رمانى فكانت لا افتتاح التشهد
أيا طيب سكر الحب لولا جنونه ... محا لذة النشوان سكر المعربد
شكوت مجازًا للطبيب وإنما ... طبيبى سقام من لواحظ مبعدى
فقال على التأنيس: طبك حاضر ... فقلت نعم لو أنه بعض عودى
وقال شكا سوء المزاج وإنما ... به سوء بخت من هوى غير مسعد
بكيت فقال الحسن هزءًا أتشترى ... بماء جفون ماء ثغر منضد

وقد يبث شجوه وهواه بعبارات وجدانية صرفة، ويصف حبيبه بصفات جميلة، ويشبهه بالزهر، ويقارن بين لحظه فى السقم وجسمه فى السقم، ويتذلل فى السؤال ويتمنى الموت، لعل حبيبه يزور قبره. وكأنما يريد أن يتسلى بهذا الكلام أو يفخر بهذه الصناعة، أو يثبت لنفسه شيئًا من البراعة فى قول الشعر، لأنه يشبه فى شعره رجل متصنعًا لا عاشقًا مخلصًا. حيث يقول:

حكى لحظه فى السقم جسمى واغتذى ... لنا ثالثًا فى ذاك ميثاق عهده
وأركبنى طرف الهوى غنج طرفه ... وأشرفنى بالعذب إشراف خده
وأغرى فؤادى بالأسى روض آسه ... وأوردنى ماء الردى غص ورده
يعارض قلبى بالخفوق وشاحه ... ويحكى امتدادًا زفرتى ليل صده
وما المسك خال من هوى خاله وإن ... إذا الند منه مستهامًا بنده

obeikandi.com

وقد يصور يأسه بأشد ما يكون، ولكن بارق أسلوب وأسهل عبارة، وكأنه كلام فطرى لا خيال شعرى. كما فى قوله:

تدنيك زور الأمانى ... منى وتنأى طلابا
كأننى حين أبغى ... رضاك أبغى الشبابا
وأشتهى منك ذنبًا ... أبنى عليه العتابا
حتى إذا كان ذنب ... فتحت للعذر بابا
ظمئت منك لوعد ... فكان وردى السرابا
لا خاب سؤلك أما ... سؤلى لديك فخابا

ولقد برق فى أسلوبه حتى يخيل إليك أن الكلام نثر لا شعر، وأنه ليس فيه أدنى كلفة، وكأنما يغترف الكلام اغترافًا. وهو مع ذلك يجىء بالتشبيه الجميل والمعنى الرقيق. كقوله:

سل فى الظلام أخاك البدر عن سهرى ... تدرى النجوم كما تدرى الورى خبرى
أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من ... دمعى وانشق يا ذكرك العطر
حتى أخيل أنى شارب ثمل ... بين الرياض وبين الكأس والوتر
من لى به اختلف فيه الملاحة إذ ... أومت إلى غيره إيماء مختصر
معطل فالحلى منه محلأة ... يغنى الدرارى عن التقليد بالدرر
بخده لفؤادى نسبه عجب ... كلاهما أبدًا يدمى من النظر
وخاله نقطة من غنج مقلته ... أتى بها الحسن من آياته الكبر
جاءت من العين نحو الخد زائرة ... وراقها الورد فاستغنت عن الصدر

obeikandi.com

بعض المحاسن يهوى بعضها طربًا   تأملوا كيف هام الغنج بالحور

وربما وصف حبيبه بأوصاف الرياض والبساتين، فتخاله زهرة يانعة غضة، أو غصنًا يتحرك، أو زهرة تتألق. كقوله:

من لى بأن يدنو بعيد مزاره   ظبى طلوع الفجر من أزراره
كالغصن فى حركاته وقوامه   كالظبى فى لحظاته ونفاره
فى الروض منه محاسن ومتشابه   فى آسه وبهاره وعراره
فعراره من لحظه وبهاره   من خده والآس نبت عذاره
وعلقته وسنان يلعب بالنهى   كتلاعب الساقى بكأس عقاره

ثم يتكلم عن ذله وإعراض حبيبه عنه، وهو يتمنى قربه منه ويصف ما يصيبه من الآلام وما له من الشغف به، ويعجب من أمره فى ذلك إذ يقول:

يا حسنه لو كان يرحم صبه   وجماله لو كان من زواره
ألف التجنى والبعاد شريعة   فالنجم أقرب من دنو مزاره
أومى إلى بلحظه فتناثرت   خيلاته فى الخد من أشفاره
لما أراق دم المشوق تعمدًا   أسود نقط الخال من أوزاره
وإذا أقول عسى ولست وربما   فمقال لا للصب من أخباره
فالخد يفرق فى معين دموعه   والقلب يصلى فى جحيم أواره
عجبًا لضد كيف يألف ضده   هذا بأدمعه وذاك بناره

وقد يذكر اجتماع النقيضين بينه وبين حبيه، ويجول خياله فى ذلك جولانًا يدعو إلى الإعجاب كقوله:

obeikandl.com

ضللت بالبدر على نوره ... والناس يستهدون بالبدر
أبطل موسى السحر فيما مضى ... وجاء موسى اليوم بالسحر
مستحسن الأوصاف ممنوعها ... فلا ترمه بسوى الفكر
كالماء فى السحب وكالدر فى الأصـ ... ـداف والشادن فى القفر
لو أنه عن لحورية ... ألقته بين السحر والنحر
ولو لدعا ميتًا بألفاظه ... إذًا للباه من القبر
در ثناياه وألفاظه ... فلقبوه الكواكب الدرى
وعوذوه العين بل عوذوا ... من عينه الناس هوى يسرى
كأنما الخال على خده ... سواد قلبى فى لظى الجمر

ومن أحاديثه الغرامية قوله:

أشمس فى غلالة أرجوان ... وبدر طالع أم غصن بان
وثغر ما أرى أم نظم در ... ولحظ ما حوى أم صارمان
وخد فيه تفاح وورد ... عليه من العقارب حارسان
ويعذلنى العواذل فيه جهلا ... عزيز ما يقول العاذلان
فقالوا عبد موسى قلت كلا ... فقالوا كيف ذا قلت اشترانى
فقالوا هل عليك بذا ظهير ... فقلت نعم على وشاهدان
فقالوا هل رضيت تكون عبدًا ... لقد عرضت نفسك للبوان
فقلت نعم أنا عبد ذليل ... لمن أهوى فخلونى وشانى

بنفسى من يفدينى بنفس ... جعلت فداه لما أن فدانى

سألتك حاجة أن تقضها لى ... فقال نعم قضيت وحاجتان

فقلت أشم من خديك وردًا ... فقال وما تضم الوجنتان

فقلت أخاف صدغك أن يرانى ... وما أنا من لحاظك فى أمان

فقال أعاشق ويخاف رميًا ... جبنت وما عهدتك بالجبان

كذاك الصب يعذر كل صب ... تحكم ما تشاء وفى ضمانى

فكان تحكما لا وزر فيه ... أيكتبه على الكاتبان

أديرا الراح ويحكما سلافا ... فإن دارت على فعاطيانى

وله كلام جميل فى الوصف يدل على أنه كان يحب الجمال ويفهمه، وإنه كان للرياض وما بها أثر فى نفسه، وإن الألوان كانت تحرك إعجابه، وإن مياه الأنهار وضوء الشمس والطيور والجو وما فيه هذبت من خياله. كقوله:

الأرض قد لبست رداء أخضرا ... والطل ينثر فى رباها جوهرا

هاجت فخلت الزهر كافورا بها ... وحسبت فيها النبر مسكًا أذفرا

وكأن سوسنها يصافح وردها ... ثغرًا يقبل منه وردًا أحمرا

والنهر ما بين الرياض تخاله ... سيفًا تعلق فى نجاد أخضرا

وجرت بصفحتها الربا بفحسبتها ... كفا ينمق فى الصحيفة أسطرا

وكأنه إذ لاح ناصع فضة ... جعلته كف الشمس تبرًا أصفرا

والطير قد قامت به خطباؤه ... لم تتخذ إلا الإراكة منبرا

obeikandi.com

وقال أيضًا يصف:

أنظر إلى لون الأصيل كأنه ... لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة ... قد خمشت خدا من الإشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فألفا ... خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محمرة ... كالكأس خرت من أنامل ساقى

وقال فى الوصف أيضًا:

شفق وشته خضرة فى حمرة ... فكأنه خد الحبيب معرضًا
والشمس تنظر نحوه مصفرة ... قد شمرت ذيل الوداع لتنهضا
كالصب حين رأى عذار حبيبه ... لما بدا فسلا وولى معرضا

وله فى وصف الخمر كلام رقيق بشبه كلامه فى الوصف. كقوله:

سل الكأس تزهو بين صبغ وإشراق ... أذوب فيها الورد أم وجنة الساقى
كؤوس تحييها النفوس كأنها ... حديث تلاق فى مسامع عشاق
إذا قتلوها بالمزاج ليشربوا ... أعاشوا مناهم بين موت وأخلاق
تثور كأن الماء يلسع صرفها ... فصوت المغنى مثل هينمة الراقى

وله فى موشحات سنذكرها فى بابها.

هذه صورة ابن سهل، وهى صورة شاعر وصاف يجيد الوصف، وغازل يجيد الغزل، ووجدانى لا يخرج عن دائرة وجدانه، ومصور بارع لما يرى ويسمع قليل الآراء، قاصر الخيال، لكنه مبدع فى الأسلوب، متفنن فى الكلام، لا يشعر الإنسان بأدنى ملل فى قراءة كلامه وهو فى كل ذلك خفيف الروح مطرب معجب. وكفى بذلك دليلا على جمال قوله ونصيبه فى الافتنان.

الفتح بن خاقان[1]

إذا تكلمنا عن الفتح بن خاقان فإنما نتكلم عن كتبه التى ذكر فيها كثيرًا من علماء الأندلس وأدبائهم، وجميع فيها جملة صالحة من منظومهم ومنثورهم، وشيئًا يسيرًا من أخبارهم. وهى "قلائد العقبان" و "مطمح الأنفس". وقد دل ابن خاقان فى كتبه على سعة اطلاعه، وكثرة أدبه، ومعرفته التامة برجال الأدب فى الأندلس، مما لم يكن متيسرًا لغيره. حتى أن أكبر كتب الأدب فى الأندلس كثيرًا ما تنقل عنه. فقد نقل عنه المقرى فى نفح الطيب وذكره فى أكثر من ستين موضعًا. ومع أنه كان معاصرًا لابن بسام صاحب الذخيرة فقد نقل عنه هذا فى كتاباته. فكتبه من أمهات كتب الأدب فى الأندلس.

---

(١) هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسى الإشبيلى صاحب قلائد العقيان. نشأ فى الأندلس ودخل إلى بلاد المغرب واتصل بملوكها وكتب لنبى تاشفين وألف كتابه "قلائد العقيان" لأبى إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وصدره باسمه. ثم حدث أن وشى به من وشى ونالت منه الأعداء. فأشار أمير المسلمين أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين بقتله فذبح بمدينة مراكش الفندق سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. وقد كان مشهورًا بالخلاعة والمجون. حتى أخذوا عليه ذلك وعرف بما لا يدريك به. ولعل هذا من الأسباب التى جعلت ملوك البرابرة يحقدون عليه حتى قتلوه. وكان جوابا للآفاق. ينتقل من مكان إلى آخر، ولم يعرف عنه شىء كثير فى كتب التراجم. ولم نجد له ذكرًا إلا فى ابن خلكان ذكره فى نحو نصف صفحة. ولم يذكره المقرى فى نفح الطيب بغير الاقتباس من كلامه فى المطمح وغيره. على أن الفتح بن خاقان لا يخفى ذكره بما له من الفضل، وما أفاض له على الأدباء بكتبه قلائد العقيان ومطمح الأنفس. ولا شك فى أن هذه الكتب من أنفع ما كتب عن الأندلس.

obeikandl.com

أما طريقته فى الجمع والتأليف، فهى خالية من كل صبغة تاريخية علمية، من حيث التحقيق والتدقيق فى الرواية والجمع. بل هى طريقة الرواية والحفظ لا غير. لأن ما رواه كان معروفًا ومشتتًا فجمعه هو فى كتابيه، كما أشار إلى ذلك فى خطبة كتابه مطمح الأنفس(١).

نقل أخبار العلماء والأدباء كما كان معروفًا عنهم. وقد ينقل الخبر بدون أى تصرف فيه، سوى وضعه فى قالب معروف له. وإنما يعنى بتحسين العبارة وتسجيعها، وجمع الألفاظ ورصفها، مما لا يقدر عليه كل إنسان. فيترجم الكاتب أو الأديب، وهو فى أكثر ما يقول مادح لا غير، وكأنما هو ناقل للفضائل لا يرى غيرها. ولقد يذكر لك الرجل فلا تعرف فى أى سنة كان يعيش، ولا فى أى عصر كان معروفًا. وربما ذكر معه أسماء لبعض الأدباء أو العلماء، وربما لم يشر إلى تاريخ ما للعالم أو الأديب على ما له من الشهرة. ولعله كان يعتمد على شهرته ويكتفى بها عن ذكر تاريخه كما فى كلامه على ابن حزم الظاهرى(٢).

وفى هذه الترجمة من التقصير شىء كثير. فإنه لم يذكر ابن حزم إلا يذكر كتبه بدون أى إشارة إلى محتوياتها. ولم يذكر شيئًا عن تاريخ حياته،

---

(١) قال: أنه كان بالأندلس أعلام فتنوا بسحر الكلام، ولقوا منه كل تحية وسلام، فشعشعوا البدائع ورروقوها، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها، ثم هووا فى مهاوى المنايا، وانطووا بأيدى الرزايا، وبقيت مآثرهم غير مثبتة فى ديوان، ولا مجملة فى تصنيف أحد من الأعيان، تجتلى فيه العيون وتجتنى منه زهر الفنون، إلى أن أراد الله إظهار إعجازها . . . فحللت من الوزير أبى العاص . . . . . وندبنى إلى أن أجمعها فى كتاب . . . فأجبيت رغبة الخ.

(٢) انظر المطمح ص ٥٥.

حتى يمكن أن يعرف معرفة تامة، أو معرفة صحيحة. وليس لهذه الترجمة شىء من القيمة العلمية، لأنها لا تفيد شيئًا عن ابن حزم. وهذا يدل على أن ابن خاقان لم يكن يعنى بما يكتب عناية رجل محقق، ولا عناية رجل يشعر بالواجب عليه، ذلك الواجب على كل مؤلف أو باحث من حيث الاطلاع، التنقيب عما يريد أن يكتب. والظاهر أنه كن يرم إلى الجمع فقط، بل لم يكن يميل مطلقًا إلى النقد ولا إلى أن يكون له رأى خاص.

ومهما قيل من أن الناقل يحب أن يكون أمينًا، وليس عليه تبعة شىء فى النقل، فإن النقل يحتاج إلى تعن وفكر ثابت، لتمييز الصحيح من غيره. والفكر النقدى يظهر أثره فى كل شىء. ولكن لم يظهر لصاحب قلائد العقيان أى أثر سوى الأسلوب. ليس لنا أن نلومه على أسلوب السجع الذى أكثره متكلف، لأن هذه كانت حالة الكتابة هناك، وهكذا كانوا يكتبون. ولكن الذى نأخذه على صاحب قلائد العقيان هو هذا الأسلوب الأجوف، وهذه العبارات المنتفخة الفارغة من كل معنى، وإن احتوى على معنى من المعانى اختفى ذلك تحت ستار الألفاظ الطنانة، وذهبت جدة اللفظ بتذوق المعنى، واشتغل القارئ بصورة الألفاظ عن العناية بما فيها من المعانى. فلقد يشير فى كلامه إلى بعض الناس، بما يدل على شىء من أخلاقهم، ويفيد القارئ والباحث، ولكن عنايته بالألفاظ، وتناسق السجع، قد يكون حاجزًا منيعًا بين القارئ ومعانى المؤلف، كما فى ترجمة سعيد بن منذر البلوطى، وهى من التراجم الوافية فى المطمح ومن نماذج كتاباته[1].

(١) قال فيه أيه حركة فى سكون، وبركة لم تكن معدة ولا تكون، وآية سفاهة فى تحلم، وجهامة ورع فى طى تبسم وإذا جد تجرد وإذا هزل نزل، وفى كلتا الحالتين لم ينزل=

على أن ابن خاقان أجاد فى أساليب السجع عادة تنقل الكلام المنثور إلى مرتبة الشعر التعمل، فيستولى بأسلوبه وهذا من القراء لبراعته فيه، ولأثره الشخصى فى هذه الصناعة، وقدرته على الاسترسال فى ذلك، مع ما فيها من كثرة المترادفات.

على أن هذه الصناعة اللفظية كان لها أثر عظيم فى نفسه من حيث إدراك الجمال فى القول، والبحث عن مواقعه. فكان يرتفع أحيانًا بعباراته إلى أن تدب فى النفس وتملأها إعجابًا، وتذكر القارئ بأثر جمال الألوان والرياح والزهور، كما فى خطبة قلائد العثيان.

ولقد يتكلف فى غير حاجة سوى تنمكن ملكه التكلف من نفسه فيهوش على القارئ، كما فى ترجمة ابن عيشون. فإن ترجمته لهذا الرجل لا يعرف منها شىء غير رحلته إلى المشرق، ولكن أى ومتى؟ وكأنما كان يكتب لمن يعرف الحوادث مثله، فقد قال فيه: "رجل المشيدات والبلاقع، وحكى النسرين الطائر والواقع، واستدر خلفى البؤس والنعيم، وقعد مقعد البائس

=للورع عن مرقب، ولا اكتساب إثما ولا احتقب، ولى قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن وناهيك من عدل أظهر، ومن فضل اشتهر، ومن جوز قبض، ومن حق رفع، ومن باطل خفض. وكأن مهيبًا طيبًا صارمًا غير جبان ولا عاجز . . واستمر فى القضاء إلى أن مات الناصر لدين الله ثم ولى ابنه الحكم فأقره وفى خلافته توفى بعد أن استغنى مرارًا فما أعفى فلم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور، ولا عدت عليه فى حكومته ذلة، وكان غزير العلم كثير الأدب متكلمًا بالحق متبينًا بالصدق. له كتب مؤلفة فى السنة والقرآن والورع والرد على أهل الأهواء والبدع، وكان بليغًا وشاعرًا محسنًا ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين عند ولاية المنذر بن محمد وتوفى يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وثلثمائة. (مطمح صفحة ٣٧).

والزعيم، فـآونة فى سماط، وأخرى بين درانك وأنماط، ويومًـا فى ناموس، وآخر فــى مجلس مـأنوس. رحل إلى المشرق فلم يحــمد رجلتــه، ولم يعلق بأمل نحلته، فـارتد على عقبه، ورد من حـبالة الفوت إلى منتظره ومـرتقبه، ومع هذا فله تحقق فى الأدب، وتدفق طبع إذا مدح أو نسب[1].

هذا هو أسلوب الفتح فى التأليف والكتـابة، وهو على ما فيه من الآثار النافعة لأدب الأندلس، ومن صور اللغة العربية الدالة على أطوارها فى النثر، وعلى تمكن أسـاليب السجع من الـكتاب فى تلك الأيام، وعلى مـا فيـه من الجـمال وبلاغــة العبـارة وعلى شىء من النظام العــقلى لديهم، لا يدل على شىء من قوة الـفكر لدى الكتاب الأدباء، بل على أن اللغــة فى عز مــجدها كانت غنية بألفاظها لا بمعانيـها، وأن العناية بالأساليب سرت من المشرق إلى المغرب، فملكت من الكتـاب كل شىء. وقد دخل هذا الأسلوب فى الكتب العلميــة والتاريخيــة، كما هو معــروف، ودل كتاب العــرب على قدرتهم فى استعمال الأساليب المختلفة والألفاظ مما ليس عند أمة أخرى.

على أن فضل الفتح بن خاقان لا يخفى ولا ينكر بما جــمعه فى كتبه مما ليس عند غيره.

---

(١) وقال أخبرنى أنه دخل مصر وهو سـار فى ظلم البؤس، عار من كل لبوس، قد خلا من النقد كيسه، وتخلى عنه إلا تقديره وتنكيســه، فنزل بأحد شوارعها لا يفترش إلا نكده، ولا يتوسد إلا عضده، وبات بليلة ابن عبـدل تهب عليه صرصرة لا ينفح منها عنبر، ولا صندل لما كان من السحر، دخل عليه ابن الطوفان فأشفق لحاله، وفرط محاله وأعلمه أن الأفضل استدعـاه، ولو ارتاد جودة بقطعة يغنيها له لأخصب مـرعاه. فصنع له فى حينه الخ (قلائد العقيان ص ٢٨٨).

لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب فى آخـر عصور العرب فى الأندلس، بل من أشهر من عـرف هناك. وهو أبو عبد الله لسان الدين محمـد بن عبد الله بن سعـيد المعـروف بابن الخطيب الغرناطى الأندلسى. تنقـلت أسرته فى كـثيـر من بلاد الأندلس واستـقر أبوه فـى غرناطة. وهناك ولد لسـان الدين وعرف واشـتهر فى بلاد المغـرب بابن الخطيب السلمانى. نشـأ من بيت علم وفضل، وتربى على حب العلم، وورث من أبيه كثيرًا من ذلك. وكن معجبًا به وبعلمه وأدبه وأخلاقه(١).

ولد لسـان الدين بمـدينة غـرناطة سنة ٧١٣ هـ واتصل أبـوه بملوك بنى الأحمر وكـان له شأن عظيم حين كانت غـرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن. فشب لسان الدين بين هؤلاء العلمـاء، وانقطع إلى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب، وكـان من بين مشـايخه الفلاسـفة والأدباء والأطبـاء. تعلم الطب على أشهر علماء الأندلس وفلاسفـتها فى هذا العصر، وبرع فيه وألف فيه كتابًا سماه "الأصول لحفظ الصحة فى الفضول" عده هو نفسه من أحدث

---

(١) فقد قـال عنه رحمه الله تعـالى زمر عزم، ورجل أخاء وأزم تروق أنوار خـلاله الباهرة، وتضىء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة، ذكـاء يتوقد، وطلاقة يحسد نورها الفريد، وكانت له فى الأدب فريضة، وفى النادرة العذبة منادم عريضة، تكلمت يومًا بين يديه فى مسائل من الطب وأنشدته أبياتًا من شعرى، فتهلل وابتهج، وما برح أن ارتجل:

الطـب والشـعـر والـكتـابة ... سـمـاتـنا فى بنـى النجـابة
هـن ثلاث مـبـلغـات ... مـراتبا بعـضـهـا الحجـابة

طراز فى ذلك الفن فقال "العجب حتى مع تأليفى لهذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب وعملى ذلك لا أقدر على مداواة أداء الأرق الذى بى" ومهما يكن من المبالغة فى كلامه فإنه يؤخذ منه أنه كان من علماء هذا الفن. وقد ألف كتبًا أخرى فى ذلك. فكانت معلوماته متوافرة فى الفلسفة والطب، وامتزج بالأدباء والفقهاء وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالمًا وأديبًا.

هذه التربية العلمية الأدبية الممزوجة بميوله للعلوم والفنون وهيته نشاطًا عقليًا فكان من المؤلفين المشهورين، كثير الدرس والقراءة. ورسائله الأدبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جدًا. حتى قالوا أنه كان يؤلف كل هذه الكتب لأنه كان يأرق كثيرًا.

وقد اغترف من كل بحر قطرة، وكتب فى كثير من الفنون المختلفة بين علمية وأدبية، واطلع على أكثر ما كتب فى العلوم والفنون، ولا سيما كتب التاريخ يحسبه بعض العلماء من المؤرخين الكبار. فكان عقله خزانة علوم وآداب. وكان عالمًا وفقيهًا وشاعرًا وكاتبًا، ولكنه لم يختص بفن ولم يتفوق فى شيء تفوقه فى الأدب، حتى كان من أئمته. ورسائله كثيرة فى الجزء الثالث والرابع من نفح الطيب(١).

لذلك كانت الصبغة الأدبية عليه أظهر، والكتابة والشعر ألصق به من غيرها، فأجدر به أن يسمى أديبًا لا عالمًا. ولذلك أيضًا كتب فى كل نوع من أنواع الكتابة رسائل أدبية وسياسية وغيرها، وهو فى كل ذلك واسع الخيال

---

(١) اكتفينا بالإشارة إلى رسائل لسان الدين وإلى شعره لأن ذلك كثير يدعو إلى الحيرة فى الاختيار فعلى القارئ أن يرجع إلى الجزء الثالث والرابع من نفح الطيب.

obeikandi.com

سديد الرأى، حاد اللسان، قادر على الاسترسال فيما يقول، كثير الاطلاع على اللغة. فساعده هذا كله على الإطالة فيما يكتب ويفكر، وكان يحب الإطناب بطبيعته فاندفع وراء ذلك، وهو مثلوج الصدر، يعرض عليه خياله وفكره والمعانى والألفاظ، فلا يكاد يقف قلمه إلا بعد أن يملأ من الفكر الصغير صفحات كبيرة. وكان قدر الكتابة عنده فى الإكثار لا فى الإجادة، أو أن الإجادة كانت لا تفارق الإطالة لديه. وهذا كان أسلوب الكتاب فى تلك الأيام. وكان يختار بجانب الإطالة السجع، فكانت كتاباته لا تخلو من مللين: ملل الإطالة وملل السجع. وربما كان أعظم عيب فى أسلوب ابن الخطيب تلك الإطالة المملة، والسجع المتكلف. غير أن ملل الإطالة أسوأ من تكلف السجع. لذلك كثيرًا ما يخفى عيب السجع لاختيار الكاتب الألفاظ. وهذه الطريقة دليل على انحطاط أسلوب النثر، لأن طريقة السجع ليست طبيعية، ولسان الدين كان من أكبر رجال هذه الصناعة، وربما انفرد بالمبالغة فيها. ويكفى هذا الأسلوب مقتًا أنه لا يقدر على قراءته كل إنسان، وأنه لا يعيش إلا فى بطون الكتب، ولا يصح أن يكون نموذجًا من نماذج اللغة إلا للاستدلال على سيرها فى أزمنة التاريخ.

ولكن لك لا يدفعنا إلى جحود ما فى هذه الرسائل من المعانى والأفكار الصحيحة، أو من الشعور بأن الكاتب يميل إلى موضوعات كثيرة اجتماعية لم يطرقها كثير من الكتاب، ككلامه فى وصف المجالس والمحافل والمدن بالأوصاف الحقيقية، والأسلوب القصصى الذى يسمونه بالمقامات.

أما شعره فكثير أيضًا، وأكثره يدل على أنه شعر رجل عالم من عشاق الشعر لا من رجاله الفنيين. وله قصائد طويلة تدل على سعة خياله، أفضلها

فى ذلك موشحته الشهيرة التى أبدع فيها[1]. وهى من أرق الشعر وأجمله. وقد طرق فى شعره كثيرًا من الموضوعات المختلفة والأساليب المتعددة، فتجد الشعر الغزلى الرقيق، والأسلوب الدقيق، وتجد شعر الفقهاء، وكلام الأتقياء، وأسلوب العلماء، وجفاف اللفظ والمعنى. على أن له كثيرًا من القصائد الجميلة والمقطوعات الرقيقة.

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بنى الأحمر السلطان أبى الحجاج يوسف فأخذه فى حاشيته، وفى مقدمة كتابه. ثم جعله كاتبه الخاص وسلم إليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيرًا بينه وبين الملوك الآخرين. فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التى فتحت عليه باب الكتابة فى كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية، على حسب ما كان يعلمه وما كان معروفًا فى ذلك الوقت. ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبى الحجاج، فأقره على مكانه وأرسله إلى ملوك إفريقية ليستنجد بهم على أعدائه. وكانت الدولة فى ذلك الوقت فى اضطراب والناس بين مظلوم وظالم، وخارج على السلطان ومتملق له، وكل ذى نعمة محسود. فحسد لسان الدين كثير من معاصريه وسعوا فى الإيقاع به. وكان قد خرج على محمد بن أبى الحجاج أخوه وتغلب عليه، فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوصر، وقبض على لسان الدين، واستباح السلطان كل أموالهما، ثم شفع لهما سلطان المغرب وأتى بهما إلى فاس وأكرمهما. فجال لسان الدين فى تلك البلاد، وانتقل إلى أناكن كثيرة واستقر هناك. ولما رجع الملك إلى محمد بن أبى الحجاج عاد إلى الأندلس وكان استكتب أبو محمد هذا فى غيبة لسان الدين ابن زمرك، أحد

(١) راجع هذه الموشحة والكلام عليها فى باب الموشحات.

مشهورى الكتاب والعلماء، ومن أكبر وأشهر تلاميذ لسان الدين. فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدون على لسان الدين، لأنه ظهر عليهم وملك الدولة منهم. فأرادوا أن يتخلصوا منه ويأخذوا الأمر بيدهم. فأخذوا فى بث الدسائس وإيغار السلطان عليه، ولكن ما أرجع لسان الدين إلى الأندلس ارتفع شأنه، وعرفه الناس فى غيبته أكثر من معرفتهم له فى حضرته. فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية، وأخذ عليه الفقهاء أشياء ينكرونها وكانت العقول فى ذلك الوقت ميالة إلى الانحطاط، لأن البرابرة بثوا أفكارهم السخيفة التى كانوا ينشرونها بجهلهم، ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية. فأشاع ابن زمرك عن لسان الدين أنه كافر مارق، وأنه جاء فى كتبه بكثير من المسائل التى لا يبيحها الدين. فراجت هذه الوشايات عند السلطان وأثارت غضبه ولما علم لسان الدين بذلك، وعرف أنه لابد أن ينال منه، عزم على الهرب إلى إفريقية بدعوى أنه ذاهب فى أمور تتعلق بالمملكة. ولكن عندما ذهبت إلى إفريقية اتفق ملك المغرب على تسلمه لابن الأحمر، فسجن فى فاس وأفتى الفقهاء بقلته، ودسوا عليه أحد القواد فخنقه فى سجنه ودفن فى فاس ثم أخرجت جثته وأحرقت بالنار سنة ٧٧٦ هـ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن ملأ الجو علمًا وفضلا وذاعت شهرته يف المشرق والمغرب حتى كان أشبه بالجاحظ فى تآليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجم.

* * *

الموشحات(١)

بقى الشعر تابعًا لطريقة العرب فى أغراضه وأوزانه، إلى أن حدث فى العقول ما دعاها إلى الابتكار فى العلوم والفنون. وكان الشعر من أقرب الأشياء إلى الألسنة، وأكثرها انتشارًا فى المجالس، وأدعى إلى الانتقال من غيره، لكثرة قائليه وسامعيه والمتأثرين به، واشتماله على كل مرافق الحياة. فتطلعت نفوس الفنيين من شعراء وأدباء إلى الانتقال به من صبغة البدوية إلى شكل حضرى أشبه بالبداوة فى الجمال، وأن يزجوا به فى مجتمعاتهم حتى يجازوا به القدماء فى إلهاماتهم الجميلة وفطرتهم النقية، وسذاجتهم الفنية. فلم يفلحوا كثيرًا فى الخروج به عن أغراضه التى تكلم فيها القدماء، مما هو ألصق بالصبغة الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية. ولكنهم زادوا فى وجدانياته مما استدعته الحضارة، من التوسع فى الخمريات والعواطف من عشق وغيره،

---

(١) راجع فى الكلام على الموشحات مقدمة ابن خلدون والجزء الرابع من نفح الطيب طبع بولاق ص ٦٠٦ وما بعدها ودار الطراز لابن سناء الملك.

Journal Asiatique. 1848. volume 2 page 248 - 351 et Serie volume 8 paga 155.

والباب الثانى والسبعين من كتاب "المستطرف" تأليف شهاب الدين أحمد الأبشهى. والجزء الأول من "خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر" تأليف المولى محمد المحبى من ص ١٠٨ إلى ١١٠ وجاء فى كشف الظنون طبع بولاق جـ ١ ص ٣٦٧ "الدر المكنون فى سبع فنون" لمحمد بن أحمد بن إلياس الحنفى. رتب على سبعة أبواب فى فن الأشعار البديعة وفن الموشحات والمواليا وفن الكاز وفن القوافى وفن الأزجال. والخاتمة فيما قيل فى الحماق. أ وله الحمد لله البديع فرغ فى رجب سنة ٩١٢ ولم نعثر على هذا الكتاب.

obeikandl.com

ووصف المناظر الجميلة والحـدائق النضرة، وكل ما استلزمتـه حالتهم من آثار المدنية والعمران. لك من جهة أغراضه.

أما من جهة أوزانه وصناعته، فقـد كانت الحال فيه أسهل. فابتكروا من الأوزان فى الشعر والصناعـة ما لم يبتكروه فى المعانى والأغـراض. وتوسعوا فى ذلك حتى لقـد يخيل إلى المطلع على الشـعر العربى القـديم والحديث أن هذا انقـلاب عظيم، وطور من الأطوار الحديثـة التى تخطاها الشعـر. ولكن ذلك أظهر مـا يكون فى الأوزان والقوافى، والقوانين التى وضعـوها فى رقة الأسلوب، وبعض الخيالات التى لم تكـن معروفة. حتى أخذ الشـعر العربى صبغة حديثة مما أدخل فيه من هذه الأنواع المختلفة الأوزان والتقاطيع، الجارية على غير مـا كان معروفًا فيـه، وخرجوا عن التقييـد بنظام القوافى المعروف. قال ابن خلدون فى "فصل أشعار العـرب وأهل الأمصار لهذا العهد": ولهم فن آخر كـثيـر التداول فى نظمهم، يجـيئـون به معصـبًا على أربعـة أجزاء، يخالف آخرها الثلاثة فى رويه، ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت إلى آخر القصيدة، تشبيهًا بالمربع والمخمس الذى أحدثه المتأخرون من المولدين الخ.

وقـسم بعض المتأخـرين الأنواع التى حـدثت فى الشعـر، إلى الشعـر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليـات والكان وكان والقومـا وغيرها وقالوا فى ذلك:

"أول من نظم "الموشح" المغـاربة، وهذبه القاضى الأجل هبـة الله بن سناء الملك، وتداوله الناس إلى الآن. وسمى مـوشحًا لأن خرجـاته وأغصانه كالوشاح له. وسبب تقدمه على ما بعده لإعـرابه كالشعر. لكن يخالفه بكثرة أوزانه، وتارة يوافق أوزان الشعر وتارة يخالفه. "والدوبيت" أول من اخترعه

الفرس ونظموه بلغتهم ومعناه بيتــان، ويقال له الرباعى لأربعة مصاريعه. وقد اشــتهــر بإعجــام دالة وهو تصحــيف. وهو ثلاثة أقــسام يكون بأربع قــواف كالموالية، وأعرج بثلاث قــواف، ومردوفًا بأربع أيضًا، وكله على وزن واحد. وتقدم علــى ما بعده لإعــرابه أيضًا. وأول من اخــترع "الزجل" رجل اســمه راشد وقيل أبو بكر قزمان(١) وهو فى اللغة الصوت، وسمى زجلا لأنه يلتذ به ويفهم مــقاطيع أوزانه ولزوم قوافيــه حتى يغنى به ويصوت. وهو خــمسة أقسام مــا تضمن الغزل والزهر والخمر وحكاية الحــال، يختص بالزجل، وما تضمن الهزل والخلاعة ويقال له "بليق" ومــا تضمن الهجو والنكت ويقال له "حمــاق" وما بعض ألفاظه مـعربة وبعضــها ملحومة فــاسمه "مــزيلج" وما تضمن الحكم والمواعظ فــاسمه "المكفر" بكسر الفــاء المشددة. والأول أصعب هذه الخمــسة. وقال مختــرعه قزمان: "لقــد جردته من الأعراب كمــا يجرد السيف من القراب". وســبب تقدمه على ما بعده كثرة أوزانــه وصعوبة نظمه وقــربه من الموشح فى أغصــانه وخــرجاته، وأول من اخــترع "المواليــا" أهل واسط وهو من بحر البســيط، اقتطعوا منه بيتين وقفوا شطــر كل بيت بقافية، ونظموا فــيه الغزل والمديح وسائر الصــنائع على قاعدة القريض. وكــان سهل التناول تعلمــه عبــيدهم والغلمــان وصاروا يــغنون به فى رءوس النخل وعلى سقــى المياه، ويقــولون فى آخر كل صــوت يا مواليــا، إشارة إلى ســاداتهم، فســمى بهذا الاسم. ولم يزل على هذا الأسلوب حتى اســتعمله البــغداديون

(١) الصواب أنه ابن قزمان وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان توفى سنة ٥٥٥ هـ له ديوان مخطوط فى عاصمــة الروسيا يشتمل على أزجاله منه نسخة فــوتغرافية بدار الكتب المصرية وراجع فى الكلام عليه.

Eneyelopedie l,Islam 2 4 livraison. P 423.

فلطفوه حتى عرف بهم دون مخترعيه، ثم شاع. وسبب تقدمه على كل ما بعده لأنه من بحر القريض بحيث ينظم معربًا على قاعدته. وأما "الكان وكان" فله نظم واحد وقافية واحدة، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثانى، ولا تكون قافيته إلا مردوفة. وأول من اخترعه البغداديون، وسبب تسميته بهذا الاسم أنهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات. فكأن قائله يحكى ما كان، إلى أن ظهر لهم مثل الإمام ابن الجوزى، والواعظ شمس الدين الكوفى وغيرهما من فضلاء بغداد فنظموا فيه المواعظ والحكم. وسبب تقدمه على ما بعده لأنه ينظم بعض ألفاظه معربة. وأما "القوما" فله وزنان، الأول مركب من أربعة أقفال، ثلاثة متوازية فى الوزن والقافية، والرابع أطول منها وزنًا، وهو مهمل بغير قافية، والثانى من ثلاثة أقفال مختلفة الوزن متفقة القافية، يكون القفل الأول منها أقصر من الثانى، والثانى أقصر من الثالث. وأول من اخترعه البغداديون أيضًا فى الدولة العباسية برسم السحور فى رمضان. وسمى بهذا الاسم من قول المغنيين بعضهم لبعض "قومًا لنسحر قومًا" فغلب عليه هذا الاسم. ثم شاع ونظموا فيه الزهرى والخمرى والعتاب وسائر الأنواع. وأول من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر، وكان يعجبه ويطرب له. وجعل لأبى نقطة عليه وظيفة فى كل سنة. ولما توفى أبو نقطة كان له ولد صغير ماهر فى نظم القوما، فأراد أن يعرف الخليفة بموت والده ليجزيه على مفروضه، فتعذر عليه ذلك إلى رمضان. ثم جمع أتباع والده ووقف أول ليلة منه تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق، فأضغى الخليفة وطرب له. فلما أراد أن ينصرف قال له:

يا سيد السادات   لك بالكرام عادات

أنا ابن أبى نقطة   تعيش أبى قد مات

فأعـجب الخليفة من هذا الاخـتصار، فـأحضره وخلع عليـه وجعل له ضعف ما كان لأبيه. والقوما والكـان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق وربما تكلف غيـرهم نظمها. وكل بيت من القـوما قائم بنفـسه وأما تأخيـره فلعدم إعرابه "(١).

واشتهـر من هذه الأنواع فى الأندلس ما هو معـروف "بالموشحات"(٢) وأصل الكلمـة من الوشاح، وهو عـقد من لؤلؤ وجوهـر منظومين مـخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر، تـتوشح المرأة به، والشبيه بين الموشحات والوشاح ظاهر فى اختلاف الوزن والقافية فى الأبيات وجمعها فى كلام واحد كما سنرى.

---

(١) راجع خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر جـ ١ ص ١٠٨.

(٢) قالوا فى مخترع هذه الموشحات أنه مقدم بن مـعافى الفريرى؟ من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ عنه عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد. هكذا فى مقـدمة ابن خلدون. وجـاء فى الذخيرة فـى الكلام على الأديب أبى بكر عبـادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ . . سلك إلى الشعر مسلكًا سهـلا. فقالت له غرابته مرحبًا وأهلا، وكانت صنعة التوشيح الـتى نهج أهل الأندلس طرقتها، ووضعوا حقيقـتها، غير مرقـومة البرود، ولا منظومـة العقود، فـأقام عبـادة هذا منآدها، وقوم مـيلها وسنادها، فكأنهـا لم تسـمع بالأنـدلس إلا منه، ولا أخـذت إلا عنه وأول مـن صنع أوزان هذه الموشحات بافقنا فيما بلغنى محمد بن حمود بن العمرى الضرير وكان يضعها على أشطار الأشعـار. غير أن أكـثرها على الأعـاريض المهملة غـير المستـعملة يأخذ اللـفظ العامى والعجمى فيسمـيه المركز، ويضع عليها الموشحة دون تغيير فـيها ولا أغصان وقيل أن ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات.

ثم نشأ يوسف بن هارون الرمـادى فكان أول من أكثر فيـها من التضمـين فى المراكز يضمن كل موقف عليـه فى المركز خاصة، فاسـتمر على ذلك شعراء عـصره كمكرم بن سعيـد وابن أبى الحسن. ثم نشأ عبـادة فأحدث التصـغير وذلك أنه اعتمـد على مواضع الوقف فى الأغصان فيضعها كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف فى المركز.

وقد دعاهم إلى ذلك حب الابتكار والميل إلى الجمال والرفاهية حتى فى أوزان الشعر وطرقه. فمزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافى المتعددة فى قصيدة واحدة. وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف. وربما اخترعوا أوزانًا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة. وقد يلحنون كلامهم هذا ويغنون به، لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ. وقد ذكر ذلك ابن خلدون فى مقدمته فقال[1]:

"وأما أهل الأندلس فلا كثر الشعر فى قطرهم، وتهذيب مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنًا منه سموه بالموشح، ينظمونه أسماطًا أسماطًا، وأغصانًا، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتًا واحدًا، ويلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتاليًا فيما بعد إلى آخر القطعة. وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيت على أغصان، عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد. ويتجاوزون فى تلك إلى الغاية، واستظرفه الناس وجمله الخاصة والكافة لسهولة تناوله، وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم ابن معافر الفريرى القبرى[2] من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى، وأخذ عنه ذلك ابن

(١) اخترنا نقل عبارة ابن خلدون فى الموشحات لأنها من أجمع ما قيل فيها وقد أخذنا هذا عن نفح الطيب عند كلامه على الموشحات.

(٢) قد اختلفوا فى هذا الاسم ففى مقدمة ابن خلدون الفريرى وفى الذخيرة محمد بن محمود أو حمود العمرى وفى فوات الوفيات فى ترجمة عبادة ابن ماء السماء (جـ ١ ص ٢٥٤) محمد بن محمود أو ابن حمود المقبرى الضرير وهو ناقل عن الذخيرة وفى نفح الطيب فى الكلام على الموشحات نقلا عن ابن خلدون مقدم ابن معافى القبرى وفى مقدمة ابن خلدون طبع باريس ص ٣٠ جزء ثالث مقدم بن معافرا ومعارف والقبيرى بدل الفريرى أو التبريزى وهو خلط يدل على تحريف هذا الاسم.

عبد ربه صاحب العقد. ولم يذكرها لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية. وقد ذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول كل الوشاحيين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم

ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم

لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا فى زمان ملوك الطوائف. وجاء مصليًا خلفة منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طيلطلة. قالوا وقد أحسن فى ابتدائه فى الموشحة التى طارت له حيث يقول:

العود قد ترنم بأبدع تلحين وشقت المذائب رياض البساتين

وفى انتهائه حيث يقول:

تخطر ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتائب يحيى بن ذى النون

ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملثمين فظهرت لهم البدائع، وفرسان حلبتهم الأعمى التطيلى ثم يحيى بن بقى وللتطيلى من الموشحات المذهبة قوله:

كيف السبيل إلى صبرى وفى المعالم أشجان

والركب وسط الفلا بالخرد النواعم قد بانوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها، الأعمى التطيلى للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جمان   سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان   وحواه صدرى

خرق ابن بقى موشحته وتبعه الباقون. وذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحًا على قول إلا ابن بقى حين وقع له.

أما ترى أحمد   فى مجده العالى لا يلحق
أطلعه المغرب   فارنا مثله يا مشرق

وكان فى عصرهما من الوشاحيين المطبوعين أبو بكر الأبيض، وكان فى عصرهما أيضًا الحكم أبو بكر بن باجه صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات المشهورة أنه حصر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى عليه بعض موشحته: جرر الذيل أيما جر. فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله:

عقد الله راية النصر   لأمير العلا أبى بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح وأطرباه، وشق ثيابه، وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت. وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشى ابن باجة للداره الأعلى الذهب. فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهبًا

obeikandl.com

فى نعله ومشى عليـه. ثم قال ابن خلدون بعد كلام. واشتـهر بعد هؤلاء فى صـدر دولة الموحدين مـحمـد بن أبى الفـضل بن شرف. إلى أن قـال وابن هردوس الذى له:

يا ليلة الوصل والسعـود بـالـلـه عـــــــــودى

وابن مؤهب الذى له:

ما العيد فى حله وطاق وشم طيب وإنما العيد فى التلاقى مع الحبيب

وأبو اسحق الدوينى. قال ابن سعيد سـمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقـول أنه دخل على ابن زهر وقـد أسن وعليـه زى البـادية، إذ كـان يسكن بحصن سبته فلم يعرفه، فجلس حيث انتهى به المجلس، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها:

كحل الدجـى يجرى من مقلة الفجر على الصباح

ومعصم النهر فى حـلل خـضــــر من البطاح

فتـحرك ابن زهر وقـال أنت تقول هذا؟ قال اخـتبـر. قال ومن تكون؟ فأخـبره. فقـال ارتفع فوالله ما عـرفتك. قال ابن سـعيد وسـابق الحلبة التى أدركت هو أبو بكر ابن زهر، وقد شـرقت موشحاته وغربت. قـال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقـول لابن زهر لو قيل لك ما أبدع ما وقع لك فى التوشيح. فقال كنت أقول:

مـا للمـــو له من سكره لا يفـيـق يا له سكران

هل تســـتــعـــــاد أيامنـا بالخليـج وليـالـينا

إذ يسـتـفـــاد من النسـيم الأريج مــسك دارينا

obeikandi.com

وإذ يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا

نهر أظله دوح عليه أنيق مؤنق فينان

والماء يجرى وعائم وغريق ممن جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون. إلى أن قال: وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسيه. ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجى دخل عليه فى مجلسه فأنشده موشحة لنفسه، فقال له ابن حزمون لما الموشح بموشح حتى يكن عاريًا من التكلف. فقال على مثل ماذا؟ فقال على مثل قولى:

ياها جرى هل إلى الوصال منك سبيل

أو هل يرى عن هواك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة، قال ابن سعيد كان والدى يعجب بقوله:

إن سيل الصباح فى الشرق عاد بحرًا فى أجمع الأفق

فتداعت نوادب الورق أتراها خافت من الغرق

فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل. قال ابن سعيد عن والده سمعت سهل بن مالك يقول له يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك:

أوا حسرتى لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى

وأفردت بالرغم لا بالرضا وبت على جمرات الغضى

أعانق بالفكر الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابونى ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته غير ما مرة، فما سمعته يقول لله درك إلا فى قوله:

قسما بالهوى لذى حجر   ما لليل المشوق من فجر
خمد الصبح ليس يطرد   ما لليلى فيما أظن غد
صح يا ليل أنك الأبد
أو نقصت قوادم النسر   فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن الصابونى قوله:

ما حال ذى ضنى واكتئاب   أمرضه يا وليلتاه الطبيب
عامله محبوبه باجتناب   ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفى جفونى النوم لكننى   لم أبكه إلا لفقد الخيال
وذو الوصال اليوم قد غرنى   منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدنى   بصورة الحق ولا بالمحال

واشتهر ببر العدوة ابن خلف الجزائرى صاحب الموشحة المشهورة

يد الإصباح   قدحت زناد الأنوار   من مجامر الزهر

وابن خزر البجائى وله من موشحه

ثغر الزمان موافق   حباك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهب شاعر إشبيلية وسبته من بعدها قوله:

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى　　قلب صب حله عن مكنس

فهو فى حر وخفق مثل ما　　لعبت ريح الصبا بالقبس

هذه نماذج الموشحات مما ذكره ابن خلدون. ونعود فنقول: أن سبب اختراع الموشحات فى الأندلس ما تولد فى النفوس من رقة وميل إلى الخلاعة والدعابة فى الكلام، وفى نوع التعابير وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الأوزان القديمة المعروفة، لضيق تلك الأوزان عن احتمال عبث الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم.

والعقول إذا مالت إلى التغيير مالك إلى الابتكار وحب الجديد. لذلك سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة، وحاولوا ابتكار شىء جديد، فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى بحبوحة اللهو والطرب والرقص وإنشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس. فوجدوا ذلك أدعى إلى تحريك النفوس فابتدأوا أولا بالأوزان العربية الخفيفة المعروفة، كالرمل والهزج والمقطوعات وغير ذلك، وغيروا فيها القافية. وولدوا من ذلك الموشحات وأباحوا لأنفسهم التغيير فى الوزن والقافية. فاخترعوا من الأوزان ما لا قاعدة له. ثم توسعوا فى هذه الأوزان وتفننوا فيها، وأودعوا هذا النوع الجديد من الشعر ميولهم وأهواءهم. واشتغل بذلك الظرفاء والأدباء فشمل هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى. ثم تمشى فى نفوس جميع الناس حتى أصبح نوعًا من أنواع الشعر العام. فنظم على أسلوبه الحكماء والفقهاء عبارات الوعظ والحكم، ومنهم التقى المشهور والصوفى المعروف محيى الدين ابن العربى.

ثم تخطى هذا النوع من بلاد الأندلس إلى بلاد البربر وغيرها من بلاد

المشرق وكثير من البلاد الإسلامية، فنبغ شعراء كثيرون فى هذا النوع. وانبعث هذا الكلام من نفوس العامة، أو من الآراء والأفكار التى كانت تدور فى رءوس كثير من الناس، فنظمها كبار الشعراء. وما زالت العامة تجذب الخاصة إليها، وتدفعها إلى التعبير عن أفكارها المنتشرة الدائرة فى نفوسها وعلى ألسنتها، سواء أكانت من طريق الكلام أم من طريق الأغانى، حتى قربت الموشحات من لغة العامة وصارت من كلامهم وأناشيدهم. وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى وعن الشعر العربى. لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية فى الموشحات أكثر وضوحًا منه فى الشعر العربى الفصيح.

فلا غرو أن نجد فى الموشحات خلطًا بين الشعر العربى الصحيح والكلام العامى الملحون، لأن أصلها مأخوذ من الشعر العربى، لذلك لا تخلو من أثره فى الصناعة والأخيلة والأسلوب وقواعد العروض. كما تتخلل ذلك عبارات عامية، وأحيانًا يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة. فنجد أبياتًا غير عربية وعبارات غير معربة. فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحتة، بل يمكن أن يقال أنها شعر عربى، ولكن فى غير الأسلوب الشعرى العربى الصميم وصناعته المعروفة.

وقد كان للموشحات أن تحدث فى الشعر نوعًا جديدًا لو لم يقصر الشعراء ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية. ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعانى المعروفة قبلهم عند شعراء العرب. فلم يتكلموا فى الموضوعات العامة الاجتماعية ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام وما يشبهها كما قلنا. لأنهم أرادوا أن

يتغنوا بذلك. ثم أوغلوا فى التعبيرات الشخصية وبعض هذه التعبيرات لا يمكن أن تؤدى المعنى المقصود إلا بلهجة خاصة، فاضطروا إلى استعمال بعض العبارات العامية. ثم توسعوا فى ذلك حتى تعددت هذه اللهجات وكثير منها لهجات عامية لا يتذوقها كل من يعرف العربية الفصحى. ومن هذا تطرقوا إلى الزجل ذلك الشعر العامى المعروف.

فالمشحات علامة من علامات الانتقال فى الشعر العربى، لأنها حادث جديد فى الأدب، ولكنها علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياعها أيضًا، إذ لو كان لها أن تنتشر انتشارًا عامًا فى جميع البلدان لأدت إلى انتشار اللغة العامية فى كل قطر، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة، يصعب فهمها على غيرها من الأمم الأخرى. على أن لذلك ميزة وهى أن العامة تفهم من لغتها الخاصة أكثر مما تفهم من اللغة الفصحى. ولكن هذا يدعو كما قلنا إلى انحلال الوحدة اللغوية.

وقد ذكر ابن سناء الملك فى كتاب له سماه «دار الطراز فى صناعة الموشحات وأنواعها»(١). كلامًا عن الموشحات وأنواعها وهو أجمع كتاب فى ذلك فرأينا أن ننقل منه جزء عظيمًا قال:

" . . . . الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص. وهو يأتلف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات، ويقال له التام. وفى الأقل من خمسة أبيات ويقال له الأقرع. فالتام. ابتدئ فيه بالإقفال، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات. فمثال التام موشح الأعمى وهو:

---

(١) وجاء فى كشف الظنون. در الطراز "لا دار الطراز" لأبى القاسم هبة الله بن جعفر المصرى المتوفى سنة ٦٨٠ (راجع كشف الظنون جـ ١ ص ٣٦٠ طبع بولاق).

ضاحك عن جمان   سافر عن بدر   ضاق عنه الزمان   وحواه صدرى

فهذا الموشح ابتدئ بقفلة. ومثال الأقرع:

سـلوة الحـــــبـــــيـب   أحـلى مـن جـنـا النـحـل
وعـلـى الكـئـــــيـب   أن يـخـــــضـع للـذل
أنـا فـى حـــــروب   مـع الحـــــدق الـنحـل
ليس لى يدان   يا حور فتان   من رأى جفونه   فقد أفسدت دينه

فهذا الموشح ابتدئ ببيته. والإقفال هى أجزاء مولفة، يلزم أن يكون كل قفل منها متفقًا مع بقيتها فى وزنها وقوافيها وعدد أجزائها. والأبيات هى أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة، يلزم فى كل بيت منها أن يكون متفقًا مع بقية أبيات الموشح فى أوزانها وعدد أجزائها، لا فى قوافيها. بل يحسن أن تكون قوافى كل بيت منها مخالفة لقوافى البيت الآخر. والقفل كما تقدم يتردد فى الموشح ست مرات فى التام وخمس مرات فى الأقرع. وأقل ما يتركب القفل من جزأين فصاعدًا إلى ثمانية أجزاء وعشرة أجزاء. ولم أجد للمغاربة منه ما أثق بنسبه، فلهذا لم أذكر مثالا منه:

والبيت لابد أن يتردد فى التام وفى الأقرع خمس مرات. وأقل ما يكون البيت ثلاثة أجزاء. وقد يكون فى النادر من جزأين. وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف. وهذا لا يكون إلا فيما أجزاؤه مركبة. وأكثر ما يكون خمسة أجزاء. والجزء من القفل لا يكون إلا مفردًا، والجزء من البيت قد يكون مفردًا وقد يكون مركبًا والمركب لا يتركب إلا من فقرتين أو ثلاث فقر، وقد يتركب فى الأقل من أربع فقر. وسنكتب ها هنا مثالا لكل ما ذكرناه ليتلخص

ويتشخص وينتقل ما تدركه بالقول سماعًا إلى أن تراه بالخط عيانًا. فأمثلة الأقفال:

القفل المركب من جزأين

شمس قاربت بدرًا   راح ونديم

المركب من ثلاثة أجزاء

حلت يد الأمطار   أزرة النوادر فيأخذنى

المركب من أربعة أجزاء

أدر لنا أكواب   ينسى بها الوجد   واستحضر الجلاس كما اقتضى الود

المركب من خمسة أجزاء

يا من أجود ويبخل على شحى وافتقارى أهواك وعندى زيادة منها شاره

المركب من ستة أجزاء

ميتات الدمن أحيين كربى وهل يتمكن عزا لقلبى مت يا عزاه شاه

المركب من سبعة أجزاء

الموشح المعروف بالعروس، وهو ملحون، واللحن لا يجوز استعماله فى شىء من ألفاظ الموشح إلا فى الخرجة خاصة. ولهذا لم نورد مثالا.

المركب من ثمانية أجزاء

على عيون العين   نعى الدرارى   من شغف   بالحب

واستعذب العذاب   والتذ حاليه   من أسف   وكرب

وقد يـندر فى بعض الموشحـات الشاذة التى لا يعـول عليهـا أن تكون أقفالها مختلفة أعداد الأجزاء كالموشح الذى أوله: بابى علق بالنفس عليق

وهذا الموشح لعـبادة، فـإن قفله الأول جـزءان، وبقيـة أقفـاله ثلاثة. وسيأتى فى هذا الموشح منسوقًا فى جـملة ما نذكر من الموشحات التى ذكرت الأمثلة منها:

فأنى أذكـر فى آخر هذه الأوراق كل مـوشح ذكرت المثـال منه، ليكون أنس المتعلم أكثر، وعلمه بها فى نفسه أرسخ.

أمثلة الأبيات

أمثلة ما أجزاؤه مفردة: ما هو منها على ثلاثة أجزاء

أرى لك مهند   أحاط به الأثمد   فجرد ما جرد

فيا ساحر الجفن   حسامك قطاع

ما هو منها على أربعة أجزاء

قـد باح دمـعى بمـا أكـتـمـه   وحن قـلبى لمن يـظلمـه

رشـا تمـرن فى لا فـمـه   كم بـالمنى أبدًا ألـئـمـه

يفتر عن لؤلؤ متسق   من للأقاح   بنسيمه العبق

أمثلة الأبيات التى أجزاؤها مركبة

ما تركب من فقرتين وثلاثة أجزاء

أقـم عـــذرى   فـــقـــد آن أن أعـكف

علـى خـمـــر   يـطوف بـهـا أوطـف

كـــــــمـــــــا تدرى هضــيم الحـشى مــخطف

إذا ما ماد فى مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس

ما يتركب من فقرتين وثلاثة أجزاء ونصف

من أودع الأجـــفـــــان صـــــــــــوارم الهــنـد

وأنـبت الـريحـــــــــان فى صــفــحـة الخــد

قـــضى على الهــيمـــان بالــدمع والســــهــــد

أنى وللكتمان للهايم المغرم بدمع نم إذ يسجم بما يكتم

من السر فى عاطل جال عزيز ساط على بالدعج

ما تركب من فقرتين وأربعة أجزاء

مـا حوى مـحـاسن الدهر الأغـــــــــزال

مـعروف الجـدين من فهـر عم وخـــــال

نسـبـتـه لـلنابل الغـــمــر ولـــلـــنــزال

فـــأنا أهواه للـفـــخـــر وللـجـــمــــال

وجهه وجه طليق للضيوف مشرق ويد تسطو على الأسد فتغدق

ما تركب من فقرتين وخمسة أجزاء

هن الـظبـــاء الشـــمس قنيــصهـن الصـيــغم

مـــا أن لهـــا من كـنس إلا القـلوب الـهــــيم

القـــرب منهـــا عـــرس والبـــعـد عنهـــا مـأتم

تلـك الشـــفـــاة للـعس يحــيــا بــهن المغـــرم

لهــــا لحـــاظ نـعس ترنوا إلـى من تســـقم

بأعين العزلان وتبتسم عن جوهر الأسماط

قضى لها الغيران أن تكتتم فى مضمر الأنباط

وقد يندر فى بعض الموشحات ما يكون بيتـه جزأين مركبين من فقرتين وهو شاذ جدًا وهو:

باكـــر إلـى الخــمـــر واســـــتنشق الـزهرا

فـــالعـــمر فـى خســر مـــا لم يـكن سـكرا

فـــــقـلمـــــا أسلـو عن مـرشـف الأكـواس

وســـــاحــــر الـطرف مـــســـاعــد الجــلاس

فـــــســـــقــينى بنت الـرياحــــــين

ما تركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء

من به إلى يرنو بمقلتى ساحر إلى العباد

ينأى به الحسن فينثنى نافر صعب القياد

وتارة يدنو كما احتسى الطائر ماء الثماد

فجيده أغيد والخد بالخال منمق تكته الحجب فلى إلى الكلة تشوق

ما تركب من أربع فقر وثلاث أجزاء

بأبى ظبى حمى تكنفه أسد أغيل

مذهبى رشف لمى قرقفه		سلسبيل
يسبى قلبى بما يعطفه		إذ يميل
ذو اعتدال يعزى إلى		ذى نعمة ثابت
فى ظلال تحت حلى		قطر الندى بات

والخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح. والشرط فيها أن تكون حجاجية من قبل السخف، قزمانية من قبل اللحن، حارة محرقة حادة منضجة، من ألفاظ العامة ولغات الخاصة، فإن كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدم من الأبيات والأقفال، خرج الموشح من أن يكون موشحًا، للهم إلا إن كان موشح مدح وذكر الممدوح فى الخرجة فإنه يحسن أن تكون الخرجة معربة كقول ابن بقى.

إنما يحيى	سليل الكرام	واحد الدنيا	ومعنى الأنام

وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح، ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جدًا، هزازة سحارة خلابة بينها وبين الصبابة قرابة. وهذا معجز معوز، وما يوجد منه فى الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة، كقول ابن بقى:

ليل طويل	ولا معين	يا قلب بعض الناس	أما تلين

فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب وإلا فليغرب. والمشروع بل المفروض فى الخرجة أن يجعل الخروج إليها وثبًا واستطرادًا، وقولا مستعارًا على بعض السنة الناطق والصامت، أو على الأغراض المختلفة. وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكران. ولابد فى البيت الذى قبل الخرجة. من

قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنيت أو غنت فمما جعل على لسان الحمام قول عبادة

إن الحمام فى أيكها تشدو

قل عل علم أو هل عهد أو كان كالمعتصم والمعتضد ملكان

ومما جعل على لسان الغرام قول ابن بقى

أنا وأنتا أسوة هذا الهجر

بالصبر بتنا عند انصداع الفجر

ومذ رحلتنا غنى الجوى فى صدرى

سافر حبيبى سحر وما ودعتوا يا وحش قلبى فى الليل إذا افتكرتوا

ومما استعير على لسان الهيجاء قول عبادة

فالهيجا تغنى والسيف قد طرب

ما أملح العساكر وترتيب الصفوف والأبطال تصيح الواثق يا جدع

* * *

والموشحات تنقسم قسمين: الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب والثانى ما لا وزن له ولا إلمام. له بها والذى على أوزان الأشعار ينقسم قسمين أحدهما ما لا تتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التى جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعرى. وما كان من الموشحات على هذا النسخ فهو المرذول المخذول، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء. ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف، ويتشبع بما لا يملك،

اللهم إن كانت قوفى قفله مختلفة فإنه يخرج باختلاف القوافى الأقفال، فيقال من المخمسات كقول بعضهم:

يا شقيق الروح من جسدى   أهوى بى منك أم لمم

فهذا من المديد وكقول الآخر:

أيها الساقى إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

فهذا من الرسل وفى شجيان الوشاحين والطعانين فى صدور الأوزان من يأخذ بيت الشعر مشهوراً ويجعله خرجة، ويبنى موشحه عليه، كما فعل ابن بقى فى بيت ابن المعتز وهو:

علمونى كيف أسلو وإلا   فأحجبوا عن مقلتى الملاحا

فإن ابن بقى جعله خرجة لموشحه، وسيأتى ذكره. وفى الوشاحين من أهل الشطارة والدعارة من يأخذ بيتًا من أبيات المحدثين ويجعله بألفاظه فى بيت من أبيات موشحه، كما فعل ابن بقى فى بيت كشاجم قال:

يقولون تب والكأس فى كف أغيد   وصوت المثانى والمثالث عالى

فقلت لهم إن كنت أضمرت توبة   وأبصرت هذا كله لبدالى

فقال ابن بقى

قالوا ولم يقولوا صوابًا

أفنيت فى المجون الشبابا

فقلت لو نويت متابا

والكأس فى يمين غزالى   والصوت فى الثالث عال   لبدالى

والقسم الآخر ما تخللت أبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو ضمة أو فتحة عن أن يكون شعراً صرفًا وقريضًا محضًا، فمثال الكلمة قول ابن بقى

صبرت والصبر شيمة العانى ولم أقل للمطيل هجرانى معذبى كفانى

فهذا من المنسرح وأخرجه منه "معذبى كفانى" ومثال الحركة هو أن يجعل على قافية فى وزن ويتكلف شاعرها أن يعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها. كقوله

يا ويح صب إلى البرق له نظر وفى البكاء مع الورق له وطر

فهذا من البسيط والتزام إعادة القافية فى وسط وزن على الحركة المخفوضة هو الذى أشرنا إليه:

والقسم الثانى من الموشحات هو ما لا مدخل لشىء منه فى شىء من أوزان العرب وهذا القسم منها هو الكثير والجم الغفير، والقدر الذى لا ينحصر والشارد الذى لا ينضبط

والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين قسم إقفاله وزن أبياته حتى كأن آخر الأبيات من آخر الأقفال كقول الأعمى

أحلى من الأمن يرتاح من قربى ويفرق فى وجهه سنة يشجى بها العذول ويشرق

لله ما أقرب على محبه وأبعدا

خلو اللمى أشب آسا الضنافيه وأسعدا

أحبب به أحبب ويا تجنيه طال المدا

أما ترى حزنى ناراً على قلبى تحرق حسى بها جنة يا ماء يا ظل يا رونق

وقسم أقفاله مخالفة لأوزان الأبيات مخالفة تتبين لكل سامع ويظهر طعمها لكل ذائق كقول بعضهم.

الحب يجنيك لذة العذل والوم فيه أحلى من القبل

لكل شيء من الهوى سبب جد الهوى بى وأصله اللعب

وإن لو كان جد يغنى كان الإحسان من الحسن

والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين: قسم لأبياته وزن يدركه السمع ويعرفه الذوق، كما تعرف أوزان الأشعار ولا يحتاج فيها إلى وزنها بميزان العروض وهو أكثرها. وقسم مطرب الوزن مهلهل النسيج مفكك النظم لا يحس الذوق صحته من سقمه ولا دخوله من خروجه كالموشح الذى أوله

أنت اقتراحى لأقرب الله اللواحى

من شاء أن يقول فإنى لست أسمع خضعت فى هواك وما كنت لأخضع

حسبى على رضاك شفيع لى مشفع

نشوان صاحى بين ارتياع وارتياح

والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين قسم يستقل التلحين به ولا يفتقر إلى ما يعينه عليه وهو أكثرها، وقسم لا يحتمل التلحين ولا يمشى إلا بأن ميتوكأ على لفظه لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغنى كقول ابن بقى:

من طالب ثار قتلى ظبيات الحدوج فتانات الحجيج

فإن التلحين لا يستقيم إلا بأن يقــول لا لا بين الخبرين الجيمين من هذا القفل

ومما سنه القوم فى أكثر موشحات المدح أن يختم الموشح بالغزل ويخرج من المدح إليه، كما خرج إليــه منه، وهذا هو الأكثر من عملهم وإلا ظهر من مذهبهم ومنه قول الأعمى

حلو المجانى   ما ضره لو أجناتى   كما عنانى   وجدى به وعنانى

فإنه ابتدأ بالغــزل ثم خرج إلى المدح ثم ختم بالغزل. والموشحــات فيها ما يعمل فى أنــواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهــجو والمجون والزهد. وما كان منهــا فى الزهد يقال له المكفر والرسم فى المكفر خــاصة أن لا يعمل إلا على وزن موشح معروف قوافى أقفــاله، ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفر ومستقبل ربه عن شاعره ومستغفره

***

obeikandl.com

الموشح التام[1]

الموشحات المغربية على طريق الأمثلة

ضاحك عن جان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

آه مما أجد شفنى ما أجد

قام بين وقعد باطش متئد

كلما قلت قد قال لى أين قد

وانثنى خط بان ذا مهز نضر عابثية يدان للصبا والقطر

ليس لى منك بد خ فؤادى عن يد

لم تدع لى جلد غير أنى أجهد

مكرع من شهد واشتياقى يشهد

ما لبنت الدنان ولذاك الثغر أين محيا الزمان من حميا الخمر

بى هوى مضمر ليت جهدى وقفه

كلما يظهر ففؤادى افقه

ذلك المنظر لا يداوى عشقه

بأبى كيف كان فلكى درى راق حتى استبان عذره وعذرى

هل إليك سبيل أو إلى أن أيأسا

(١) هذه الموشحة للأعمى التطيلى راجع ص ١٦٨ و ص ٢٢٧ .

obeikandl.com

ذبت إلا قليل عبرة أو نفسا

ما عسى أن أقول ساء ظنى بعمى

وانقضى كل شأن وأنا ... خالعا من عنان جزعى وصبرى

ما على من يلوم لى تناهى عنى

هل سوى حب ريم دينه التجنى

أنا فيه أهيم وهو بى يغنى

الموشح الأقرع:

سطوة الحبيب أحلى من جنا النحل

وعلى الكئيب أن يخضع للذل

أنا فى حروب مع الحدق النجل

ليس لى يدان يا حور فتان من رأى جفونه فقد أفسدت دينه

ينبغى لتجنى لمثلك فى الأنس

لو قبلت منى لنهت على الشمس

غاية التمنى هلم إلى الأنس

أنت مهرجانى وخدك بستانى غط ياسمينه إن الناس يجنونه

خطط الوزير بخطط إيثار

فانتهى السرور إلى غير مقدار

ردت الأمور إلى أسد ضار

ثـابـت الجـــنـان صفوح عن الجان قـد حمى عـرينه بالـرزق المسـنونـة

خل كـل مـــين إلى الحق منقـادًا

من رأى بعـــين فى ذا الخلق من سادا

كـأبى الحـسـين ويفديـه من جادا

كل ذى امـــتـنان لا بل كل هتـان رام أن يـكـونـه جـودًا فـأتى دونه

أظهــر المـقـــام فى الغربة حرمانا

فـــــأنـا ألام إسـرار وإعـــلانا

قـلت والـكـلام يصـرح أحـيـانا

فـــزت بالأمـــانى ما جاد بـإحسان صـاحـب المدينة أعلى الـله تمكيـنه

المركب قفله من جزأين

شمس قارنت بدرًا راح ونديم

أدر كؤوس الخمر عنبريه النشر إن الروض ذو بشر

وقد درع النهرا هبوب النسيم

وسلت الأفق يد الغرب والشرق سيوفًا من البرق

وقد أضحك الزهرا بكاء الغيوم

إلا أن لى مولى تحكم فاستولى أما أنه لولا

دمع يفضح السرا لكنت كتوم

أنى لى كتمان ودمعى طوفان شبت فيه نيران

فمن أبصرا الجمرا في لج يعوم

إذا لامنى فيه من رأى تجنيه شدوت أغنيه

لعل له عذرا وأنت تلوم

المركب قفله من ثلاثة أجزاء

حلت يد الأمطار أزره النوار فيأخدانى

اشــرب طاب الصبــوح فــى ذا اليـــــــوم

فى روضة تفوح لــدى الغـــــــيم

قد أشرقت تلوح لــدى القـــــوم

ووجــه ذا النــهــار مــغطا بخــمــار من الــدجن

هذا الهــوى يجــوز فـــمـــا صنعى

قــد ضاق يا منصــور بـــه ذرعـــــى

إذ ليس لى نـصيـــر ســـوى دمـــعى

فيـا ضعف انتـصارى إذا دمـعى أنصـارى على حــزنى

ظلـمت إذ بعــدت عـــن الــصـــب

قـعد كـما قـد كنت إلــى قــــــربى

غــدرت ونـفــرت فـــيـــا حـــبى

أفــديك من عـــذار يديـن بالـنفـــار ولا يـدنــى

محبـوبى هب رضاكا وخـــذ عـــمـــرى

obeikandl.com

وعلـنى لمـا كـــا من الـشـــغــــر

بمبـا حوت عـينا كـا من الـســحـــر

بــرد غــلـيــل نــارى وشم ظبـا الأشـفـار لا تقـتلنى

لما أطـال حـــزنى ولـــم يـــرحـــم

وزاد فى الـتـجـنى ومـــــا سـلـم

شـــدوتـه أغـنـى غنـا مـــغـــرم

حـبيـبى أنت جـارى دارك بـجـنـب دارى وتهـجـرنى

الموشح المختلف الأقفال:

بـأبـــى عـلـــق بالـنفـس علـيق

هـويـــت هـلالا فى الحسـن فريدا أعـــار الغــزالا إلحـاظا وجــيـدا

وتاه جـــمـــالا لم يـبغ مـــزيدا بدر يـتــــلألأ فى حسن اعـتدال

زانه رشـــيق والقـــد رشـيق

بدر يـتـــغـلب بالسـحـر المبـين عـذار معـقـرب على ياســمــين

سـوســـان مكتب بورد مـــصـــون لما لاح يســحب ذيول الجـــمـــال

عـن لـى خـلـق بالعـــشق خـليق

جـفـانـى يعـيش لوقـــفى عليـــه لو بالنـفس ريش لطـرت إليـــــه

للحـسن جـيـوش على مـــقلتـيــه واللحـظ المريش بالسـحـر الحـلال

فلـه مــــشق والقلب مـشـوق

تعـمـــد هجـرى مـــذ دنـت بوده وبددت صبـرى على طول صـــده

مـا الحسن يجـرى بصـفـحـة خـده ثـنـايـــاه تـرزى بـنـظـم الـلآلـى

فــمـــــه حق باللثـم حـقـيق

لما أن تـســـربل ثوب الحـسن زيا أردت أقـــبل لماه الشـــهـيـــا

فـــقــــال تمـثل بالشـعـر أبيـــا ومـــــال تـدلل بأجلـى مـقــال

أنا قــول قــوقــو ليس بالله تذوقو

الموشح الذى بيته ثلاثة أجزاء مفردة:

أأفردت بالحسن أم خلقك إبداع

أرى لك مهند أحاط به الأثمد فجرد ما جرد

فيا ساحر الجفن حسامك قطاع

أيا فتنة القلب خفف الله فى صب قتيل من الحب

تمنيه بالمزن وبرقك خداع

ما تركت بيته من فقرتين وثلاثة أجزاء:

كـــذا يقـــتـــاد سنا الكوكب الوقاد إلى الجـــلاس متشعتشة الأكواس

أقم عـــــدرى قد آن أن أعكف

علـى خـمـــر يطوف بها أوطف

كـمـــا تدرى هضيم الحشا مخطف

إذا مـا مـــاد فى مخضرة الأبراد رأيـــت الآس بأوراقـه قد مـاس

مـــن الأنـــس وإن زاد فى النور
على الـشـــمس وبدر الديجـــور
لــه نفـــــسى ومات نفس مهجور
غـــزال صـــاد ضراغمـة الآساد بلـحظ جـــاس خـلال ديار الناس
جـلا الأجـلاك بنور الهـدى مرآه
فـمـــا الأفـلاك تدير سوى عـلياه
كـــذا الأمـــلاك عبـيد عبـيد الله
فـــــــمن أراد قياسك بـالأمجاد فـجـهـلا قـاس سنا الشمس بالنبراس
لك الـفـــــضل وإنـك مـن آلـه
رأى الـــكـــل بكم نـيل مـــآله
فـــمـــا يخـلو من ينشد فى حاله
منـى عـــبـــاد بكم نحن فى أعياد وفى أغـــراس لاعـدمـتم للناس

ما تركب بيته من ثلاثة أجزاء ونصف:

من أودع الأجـفان صـــــــوارم الهـند
وأنبـت الريحـــان فى صـفـحة الخـد
قضى على الهيمان بالدمع والـسـهــد
أنى وللكتـــمـان للهـايـم المغـرم مـــدمع نم إذ يـســحم بما يـكتم
من الســــر فى عـــاطـل حـــال غـــزير ســـاط عـلى بالـدغج

يا بـأبى أحـــــور كـــالبـدر فــى التم
يفـتـر عن جـوهر مـسـتـعـذب اللثم
وخــــــــده الأزهر يــدمى مــن الوهــم
فكيف أن أعـذر وقـد سـرى أرقم على عـتـد فـلا يـلثم وقـد حكم
من الــســحـــــر لقـــتل أبـطال مع الأنبـــاط جــيـش من الزنج
أجــــــز لـلنـور كـصـــاحب الطور
كـــبـــدر ديجــور فى قـــد خـيـــزور
كـــغـــصن بـلور فى دعص كـــافـور
بنفس مـهـــجـور أفـدى وإن يتم فـفى مـــخـيم ثنابا فم قـــد نظم
من الـدر راجى وسـلســــــالى على أســـمــــاط عـطرية الفـلج
الحسن مـــوقـوف عليك يــا أحـمـــد
والأمـر مـصـروف إليـك يا أغـيـــــد
عـبـدك مشـغـوف فـيك ومـسـتبـعـد
أمنـك تعنيـف أو منك أن تـرجم وإن تحـرم ضنا مـغـــرم إذا يسـقم
فـــوآســرى فى بحـــر أوجـــالى بعـيـــد الشـاطى أمــسك بالموج
وغـــــاده تبـــدو كالـبدر فى السـعد
أمـــالهـــا النهــد فى غــــصــن رند
أوراقـــهـــا البـــرد أيــــنـع بـــالـــورد

obeikandl.com

باتت وهى تشـدوا حـبيـبى أهجم   وقم واعزم وقـبل فم وجى وانضم

إلى صـــدرى وقم بخـلخـــالى   . . . .

الموشح الذى يتركب بيته من جزأين مركبين فى فقرتين:

باكـرالـى الخـر واسـتنـشق الزهرا   فالعمر فى خـسر ما لم يكن سكرا

قفل ما أسلو عن مرشف الأكواس   وساحـر الطرف مـساعـد الجلاس

فـــســقـــينى بنت الـزراجـــين

فهـاتها صـرفا يا ذا الرشـا الأحور   راح حكت وصفا من خدك الأقمر

رشـاهو النبل والـعـدل بين الناس   والمسك فى العرف من نفحة الأنفاس

فدارينى   عن مسك دارين

كم لامنى فـــيـه نذل من الـعـذل   لما رأى فـيـــه مـيـــلا إلى وصلى

وإنما العـــذل فـــمـا بـه من باس   رضـا به يـشـفى ويكثـر الإيناس

فهنونى   لست بمغبون

للطـرف فى الفـتك أثار مـــعنى   والعـــز فى الملك عـــز سليـــمى

يهـابـه الكل خـوط القنـا الميـاس   يثنى على الحقف مثل قضب الآس

من اللين   ينقد عن لدن

لله ما أهوى   خوداً تغنيه

باحت بها الشكوى   عمداً لتعنيه

أنت المنى تحلو   فاترك كلام الناس

obeikandl.com

وادخل معى الفى　　مثل الشراب فى الكاس

يا كنونى　　كما تسيلنى

المركب قفله من ستة أجزاء:

الراح فى الزجــاجـة　　أعــاياها خــد النديم　　حـــــمــــــرة الورد

واســتــوهبت نسيـمــه　　فهــجنت نشــر العبير　　مع شــــــــذا النــد

مـــا همت بالحـمــا　　إلا وقـــد ســقــتنى

مليـــحـــة المحــيــا　　مليـــحـــة التـــثنى

والحـسن قـد تـهـيـا　　فـــيـــهـــا بـلا تأن

أذكى بهــا ســراجـه　　رأيت فى الليل البـهم　　شــــــعـــلـة الزنـد

لو أنهـــا عــليــمـــة　　تاهت على البدر المنير　　وهو فــى الســعــــد

إن الـــــتـــــى الام　　فــيــهــا عــلى غـرامى

لقــــدهــا قـــــوام　　كــالغــصن فى القــوام

لثــــغـــــرها نـظام　　كــالعــقــد فى النظام

لريقــهـــا مــجــاجــه　　كالمسك فى طيب الشميم　　كـــجـنا الشـــــهـــد

وعــينهـا السقــيـمــة　　وسنانه مــن الفــتـــور　　لا من الـســـهـــد

تــزيــد فـــى بــلائــى　　والنفس تشــتــهــيــهــا

ولا أرى دوائـــــــــى　　الإبريق فـــيـــهـــا

قـــالت لأصــدقـــائـى　　وقــد ضنيـت فـيـهـا

احمـى الهوى مـزاجه دعوه من طب الحكيم فـــــالـدوا عنـدى

مـحبـوبتى حكـيمـة تطفى برمـان الصدور حـــرقـة الوجـــد

كم فى الأنـام مـــثلى شـــفـــاؤهـا دواها

وكم تـريد قـــتـلى ولم أرد ســـــواهـا

وقــــــال لائم لـى لجــــجت فى هــواها

طابت لى اللـجـاجـة وقلت للأشجان دومى مـــا أنـا وحـــدى

ذو مـهجـة مـقـيمـة فى القرب ظبى غزير وهو فـى البـــعـــد

قلبـى لهـــا يـتــوق وقلبـــهـــا يـقــول

هيـــهـــات لا طريق هيـــهــات لا وصــول

فـــقلت والمشـــوق يقـنعــــــه الـقلـيل

" . . . . "

(انتهى ما جمعناه من كتاب دار الطراز لابن سناء الملك).

❊❊❊

جملة من الموشحات[1]

موشحة لسان الدين بن الخطيب

جادك الغيث إذ الغيث همى   يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلمًا   فى الكرى أو خلسة المختلس
إذا يقود الدهر أشتات المنى   ينقل الخطو على ما يرسم
زمرًا بين فرادى وثنا   مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى   فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما   كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبًا معلمًا   يزدهى منه بأبهى ملبس
فى ليال كتمت سر الهوى   بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكاس فيها وهوى   مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى   أنه مر كلمح البصر

---

(١) راجع طائفة من الموشحات فيما يأتى

فوات الوفيات للصلاح الكتبى جزء أول ص ٢٣، ٦٣ - ٦٧، ٩٨، ٢٣٧، ٢٥٥ وجزء ثانى ص ٤١، ١٣٩، ١٦١، ٢٤٣، ٢٦٧، ٣١١، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٤٥، ٣٧١ - ٣٨٧، ٣٨٥، ٤٠٤.

وفى نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول ص ٣٠١ وجزء ثانى ص ٣٠٤، ٣٢٤، ٤١٧، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٨٠، والجزء الرابع طبع بولاق فى الكلام على الموشحات والعذارى المائسات فى الأزجال والموشحات طبع بيروت.

obeikandl.com

حين لذ الأنس شيئًا أو كما   هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما   أثرت فينا عيون النرجس
أى شىء لامرئ قد خلصا   فيكون الروض قد كنن فيه
تنهب الأزهار منه الفرصا   أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحصا   وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورًا برما   يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآس لبيبًا فهما   يسرق السمع بأذنى فرس
يا أهيل الحى من وادى الغضى   وبقلبى سكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحل الفضا   لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى   تعتقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله واحيوا مغرما   يتلاشى نفسًا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما   أفترضون عفاء الحبس
وبقلبى منكم مقترب   بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب   شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب   فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى   جال فى النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى   ففؤادى نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل   وفؤاد الصب بالشوق يذوب

obeikandi.com

فــهــو لــلنفس حــبــيب أول ليس فى الحب لمحبــوب ذنوب
أمــره مــعــتــمل ممتــثل فى ضلوع قـــد براها وقلوب
حكم اللحظ بهــا فــاحــتكا لم يراقب فــى ضعــاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلمــا ومــجــازى البــر منهــا والمسى
مــا لقلبى كلمــا هبت صبــا عــاده عــيـد مـن الشوق جـديد
كــان فى اللــوح له مكتــتبــا قـــوله إن عـــذابى لـشـــديد
جلب الهــم له والوصـــبـــا فهـو للأشجـان فى جهـد جهـيد
لاعج فى أضلعى قد أضرمـا فــهى نـار فى هشــيم الـيـبس
لم يدع فى مــهــجتـى إلا زمـا كــبــقـاء الصــبح بعــد الغلس
سلمى يا نفــس فى حكم القـضـا واعــمرى الوقت برجـعى ومتـاب
دعك من ذكـر زمـان قـد مـضى بين عــتبى قـد نقضت وعــتـاب
واصر فى القـول إلى المولى الرضا ملهم الـتـوفـيق فى أم الكتـاب
الكـريم المنتـــهى والمنتـــمى أســد الســـرج وبدر المجـلس
ينزل الـنصـــر عليــه مــثل مــا ينـزل الوحـى بروح الـقـــدس
مــصطفى الله ســمى المصطفى الغـنى بـاللـه عن كـل أحـــد
من إذا مــا عـــقـد العـهــد وفــا وإذا مـــا قـــبح الخطب عـــقـــد
من بنى قـيـس بن سـعـد وكـفى حيث بـيت النصر مـرفوع العـمد
حيث بيت النـصر محمى الحمى وجنى الـفــضل زكى المغــرس

والهــوى ظل ظـليل خـيــمــا   والنـدى هب إلى المـغــتـــرس

ها كــهــا بأبسـط أنصـار العــلا   والذى إن عـــثــر الدهـر أقــال

غــادة ألـبـسـهــا الحـسـن مـلا   تبـهــر العـين جـلاء وصــقــال

عـــارضت لفظًا ومـــعنـى وحلى   قـــول من أنطقــه الحب فـقــال

هل درى ظبى الحمى إن قــد حمى   قـلب صــب حـله عـن مـكنـس

فــهــو فى حـر وخـــفق مـثل مـا   لعـــبت ريح الصـــبـــا بالقـــبس

موشحة ابن سهل التى عارضها لسان الدين

هل درى ظبى الحمى إن قــد حمى   قـلب صــب حـله عـن مـكنـس

فــهــو فى حـر وخـــفق مـثل مـا   لعـــبت ريح الصـــبـــا بالقـــبس

يا بـدورا أطلعـت يوم الثــــوى   غـــــررا تسلك فـى نهج الغـــــرر

مــا لقلبى فى الهـوى ذنب سـوى   منكم الحــسن ومن عـينـى النظر

أجــتنى اللـذات مكلوم الجـوى   والتـذاذى مـن حـبـيـبى بـالفكر

كلمـــا أشـكوه وجـدا بســمــا   كـــالربـا بالعـــارض المنـبــجس

إذ يقــيم القطر فــيــهــا مــأتما   وهى من بهـجــتــهــا فى عـرس

غـــالب لى غـــالب بالتـــؤده   بأبى أفــديــه من جـــاف رقــيـق

مـــارأينـا مـــثل ثغــــر نضــده   أقــحـــوانا عـصـرت منـه رحـيق

أخــــذت عـــيناه منه العــربده   وفـــؤادى سكره مــــا أن يفـــيق

فاحم الجمة معسول اللمى   أكحل اللحظ شهى اللعس

وجهه يتلو الضحى مبتسمًا   وهو من أعراضه فى عبس

أيها السائل عن ذلى لديه   لى يجنى الذنب وهو المذنب

أخذت شمس الضحى من وجنتيه   مشرقًا للصب فيه مغرب

ذهبت أدمع أجفانى عليه   وله خد بلحظى مذهب

يطلع البدر عليه كلما   لاحظته مقلتى فى الخلس

ليت شعرى أى شىء حرما   ذلك الورد على المغترس

كلما أشكو إليه حرقى   غادرتنى مقلتاه دنفا

تركت ألحانه من رمقى   أثر النمل على صم الصفا

وأنا أشكره فيما بقى   لست ألحاه على ما أتلفا

فهو عندى عادل إن ظلما   وعذولى نطقه كالخرس

ليس لى فى الحب حكم بعدما   حل من نفسى محل النفس

منه للنار بأحشائى اضطرام   يلتظى فى كل حين مايشا

وهى فى خديه برد وسلام   وهى وحريق فى الحشا

أتقى منه على حكم الغرام   أسد الغاب وأهواه رشا

قلت لما إن تبدى معلما   وهو من ألحاظه فى حرس

أيها الآخذ قلبى مغنما   اجعل الوصل مقام الخمس

obeikandl.com

وقد عارض هذا الموشح أيضًا بعض متأخرى المغاربة فقال:

يا عريب الحى من حى الحمى   أنتم عيدى وأنتم عرسى
لم يحل عنكم ودادى بعدما   حلتم لا وحياة الأنفس
من غديرى فى الذى أحببته   مالك قلبى شديد البرحا
بدرتم أرسلت مقلته   سهم لحظ لفؤادى جرحا
إن تبدى أو تثنى خلته   غصن بان فوقه شمس ضحا
نطلع الشمس عشاء عند ما   تنجلى منه بأبهى ملبس
وترى الليل أضا منهزما   وترى الصبح أضافى الغلس
يا حياة النفس صل النوى   والهًا مضنى شديد الشغف
قد براه السقم حتى ذا الهوى   كاد أن يفضى به للتلف
آه من ذكر حبيب باللوى   وزمان بالمنى لم يسعف
كنت أرجو الطيف يأتى حلما   عائدًا يا نفس من ذاقا يأس
هل يعود الطيف صبا مغرما   ساهرًا أجفانه لم تنعس
همت فى طلال ليلى وأنا   ليس فى الأطلال من أرب
ما مرادى رامة والمنحنى   لا ولا ليلى وسعدى مطلبى
إنما سؤلى وقصدى والمنى   سيد العجم وتاج العرب
أحمد المختار طه من سما   الشريف ابن الشريف الكيس
خاتم الرسل الكريم المنتمى   طاهر الأصل زكى النفس

obeikandl.com

موشحة لبعض شعراء الأندلس يعارض بها موشحة لسان الدين:

جادك الغيث إذا الغيث هما   يا زمان الوصل بالأندلس

عطر الأرجاء لما نسما   شمأل للصبح عند الغلس

وأنت شمس الضحى تنسخ ما   يقرأ الليل لنا من عبس

طاف بالكاس من الزهر فتى   مولع بالصد عنى مذ فتى

فتن الألباب لما انتقما   واحتسى منه ببعض الشفة

وأنا ما بين حتى ومتى   صده تيه الهوى عن الفتى

وكؤوس الراح بين الندما   أرجت بالعرف أفق المجلس

خمرة صفراء فى البلور ما   أشبه ألحان بروض النرجس

بادر اللذة واجمع شملها   بمدام وغلاب مطرب

ذى عيون ناعسات كم لها   من فنون السحر ما يلعب بى

وافر الأرداف عانى حملها   ناحل الخصر وذا من عجب

كلما أترع كلما قال ما   أنت بالشارى حياة الأنفس

فابذل الجهد وكن مغتنمًا   لنفيس النفس طيب الأنفس

فرص الأيام كن منتهزًا   مبتداها قبل حذف الخبر

ورحاب الأنس لج منتجزًا   قبل أن تمضى كلمح البصر

واجن من زهر الهوى محترزًا   من جنايات هجوم الكبر

لا تخف لومًا ويمم حيثما   لاحت اللذات كالمختلس

obeikandl.com

ما مضى أنس ووافى مثل ما　　كان ذا الدهر لنا بالحرس
للرياض اذهب ترى بلبلها　　لاشتياق الورد مثل الثكل
وخدود الورد قد كللها　　دمع طل لاشتياق البلبل
وقدود البان قد قام لها　　مانع الوصل بحد الأسل
والربا فاحت تحاكى خدما　　وعليهن ثياب السندس
حبيبها زرر بالزهر كما　　زر بالفضة ثوب الأطلس
وجلا الروض لنا أشجاره　　مائسات فى قباء أخضر
وترى فى جيدها نواره　　يتلألأ كعقود الجوهر
خلع الليل به أطماره　　فغدا كالصبح باهى المنظر
وبقاياه زهت فيه أما　　فى شفاه الغيد حس اللعس
كغدار فى محيا علما　　فبدا للغير لا الملتمس
حبذا الصبوة أيام الصبا　　وعيون الشيب فى سهو الوسن
فإذا أيقظها دهر صبا　　لصروف حد شفريها وسن
جرد الشيب لنا بيض الشبا　　واقتفى شرخ شباب وظعن
وغدا الإنسان شيخًا هرمًا　　واعتراه لاعج من وجس
فات إذا مات فيقضى ندما　　واغتنام الوقت شغل الكيس
لا تدع مرك يمضى هدرا　　أنت إذ ذاك جبان غافل
وارق بالجهد من السؤل الذرا　　واجتهد والضرع ضخم حافل

إنما الأيام أمثال السرى ... والجرىء الشهم ليث باسل

ووحوش الإنس تسعى مغنما ... بادرا للأسد المفترس

ترك الوهم وخاض الظلما ... وله العزم أضا كالقبس

ليس يحظى بالمنى إلا الذى ... كابد الأهوال حتى ظفرا

كان للراحة كالمنتبذ ... من وراء الظهر أنى ظهرا

مثل ما قد بات ذا طرف قذى ... يقطع الليل جميعًا سهرا

فى طلاب العلم حتى علما ... أنه يملأ بروح القدس

أحمد الناصب فينا علمًا ... للتقى فاز به من يأتسى

حل فى مصر وإن كان العلا ... قد عفت لما اعتراها فى خلل

ورياض الفضل لما أن علا ... نقع جهل جف منهن البلل

ازدرت أغصانها حتى خلا ... قاعها من عذب ما يشفى العلل

نفردت إذ حل فيها كالسما ... وهو بدر بكمال مكتسى

حوله الطلاب كالشهب سما ... قدرها من نوره المقتبس

أيها الطالب للعلم ائتد ... ليس إلا بابه ينفعكا

إن ترم نيل المرجى فاجتهد ... فى اتباع للذى يرفعكا

علم من يعمل أكسيد فزد ... منه واترك حاسدًا يدفعكا

والزم الأعتاب وانزل بالحمى ... خالع الربقة من قول المسى

باعتقاد فاز من قد لثما ... نعله والكبر شأن المبلس

obeikandi.com

منذ خبرت الناس طرا نظرا … لمناط الأمر فى هذا الزمان
لم أجد إلا مقالا صدرا … عن دعا وأخلفت عند العيان
غير ما يمليه فانظر لترى … درر الألفاظ فى سمط البيان
ببديع النطق لما نظما … بهت المنطيق مثل الأخرس
وأتى يخضع جمع العلما … نحو ذا المفرد فى الملتمس
إنما المجد الرفيع الممتطى … أرءوس الآساد قسرا مثل ذا
يدع المرفوع كالمنهبط … ثم للنازل يعلى منفذا
ناظرًا فى أمره بالأحوط … خافض الطرف على حر القذى
كل من أم حماد قا حمى … بحسام العزم هش الملمس
فإذا جرد منه انفصما … جامد الصخر بذاك الميس
حبذا المغرب قطرًا بالسنا … فضله يبهر بدر الأفق
قطره الشامخ قد أهدى لنا … سيد قد فاق شمس المشرق
كل من فاتته أسباب المنى … بعلاه للثريا يرتقى
فل لمن يرجو سوى المذكور ما … ينبت الزهر بأرض اليبس
لا ولا الناس سواء إنما … رأى من سواهم فى هوس
لذ بشهم فاز من أمله … بنوال فاق سح الهامل
أثقل السؤدد إذ حمله … وقر فضل مستبين شامل
وحماه الأمن من أمله … بلغ القصد فبشرى الآمل

obeikandi.com

بحــــره الوافــــر العـلم طمـــا   كـــامل الأمــداد لم يحـــتــبس
نال منجـه النـاس حـتى عـمـمـا   مـــشـــرقًـا والـغـرب لـلأندلس

موشحة ابن سناء الملك

كللى يا سحب تيـجان الربا بالحلى   واجـعلى سوارك منعطف الجـدول

دور

باسمًا فـيك وفى الأرض نجوم وما   كلما أغـربت نجمًـا أشرقت أنجـما

وهى مـا تهطل إلا بالطلى والدمى

قفلة

فاهطلى على قطوف الكرم كى تمتلى   وانقلى للدن طعم الشهـد والفوفل

دور

تتقـيد كالكوكب الدرى للمـرتصد   يعـتقـد بها المجـوسى بما يعـتقـد

فائتـد يا ساقى الراح بهـا واعتـمد

قفلة

واملى لى حـتى عـنك فى مـعـزل   قلل فالـراح كالعشق إن يزد يـقتل

دور

من ظلم فى دولة الحسن إذا ما حكم   فـالسـلام يجـول فى باطنه والندم

والقلم يكتب ما سطر فـوق القمم

قفلة

من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل   يعـزل الألحـان الـرشـا إلا كـحل

دور

لا أريم عن شرب صهـباء وعن عشق ريم   فالنعـيم عيش جديد ومـدام قديم

لا أهيم إلا بهـذين فـــقم يا نديم

قفلة

وانهل من أكؤس صـورن من صندل   أفـضل من نكهـة الـعنبـر والمندل

دور

هل يعود عيش قطعناه بوادى زرود   والجنود فى حـضرتى تضرب جنـكا وعود

والحسود فى معـزل عنا غدا لا يسود

قفلة

عذلى لا تـعذلونى فالهـوى لذلى   ما الخلى فى الحب مثل الـعاشق المبتلى

دور

أسفـرت ليلتنا بالأنس مذ أقـمرت   بشرت بملتقى المحبـوب واستبشرت

شمرت فقلت للظلمـاء مذ قصرت

قفلة

طولى يا لـيلة الوصل ولا تنـجلى   واسبلى سترك فـالمحبوب فى منزل

obeikandi.com

دور المديح

يا نسيم بلغ سلام المستهام السقيم لكريم طه إمام المرسلين العظيم

عن أليم وجدى به حدث وشوقى القديم

موشحة لابن زمرك

فى كؤوس الثغر من ذاك اللعس	راحة الأرواح
وتفشى الروض مسكى النفس	عاطر الأرواح
وكسا الأدواح وشيا مذهبًا	يبهر الشمسا
عسجد قد حل من فوق الربا	يبهج النفسا
فاتخذ للهو فيه مركبا	تلحق الأنسا
منبر الغصن قد جلس	ساجع الأدواح
حلل السندس خضرا قد لبس	عطفه المرتاح
قم ترى هذا الأصيل شاحبا	حسنه قد راق
ولا ذيال الغصون ساحبا	فى حلى الأوراق
ونديم قال لى مخاطبا	قول ذى إشفاق
عادت الشمس بغرب تختلس	هات شمس الراح
إن أرانا الجو وجها قد عبس	أوقد المصباح
ووجوه الشرب تغنى عن شموس	كلما تجلى

obeikandi.com

بلحـــاظ أسكرتنا عن كـؤوس　　خـــمـــرها أحـلى

مظهـرات من خفـايا فى النفوس　　ســــــورا تـتـلـى

مـا زمــان الأنس إلا مـخــتلس　　فـــاغـــتم يا صـــاح

وعيـون الشهب تذكـى عن حرس　　تخـــصم الـنصـــاح

مـا ترى ثغـر الـومـيض باسـمـا　　بظـهـــر البـــشـــرا

وثنـاء الروض هب نـاسـمـا　　عـــاطـر أنـشـــرا

بـث من أزهـاره دراهـمـــا　　قـــائلا بـشـــرى

ركب المولى مـع الظهـر الـفـرس　　وســـقـى وارتـاح

بجـنود اللـه دأبا يحـــتـــرس　　إن غـــــدا أو راح

وجـب الشـكـر عـلينـا والـهنا　　بعـــضنا بـعـــضًـــا

فـزمـان السـعـد وضـاح السنى　　وجـــهـــه الأرضـى

أثمـــرت فـــيـه الـعـوالى بـالمنى　　ثمـــر أغـــضـــا

يجـتنى الإسلام منهـا ما اغـترس　　ســيـــفـــه الســـفــاح

فى ضـميـر النقع منها قـد هجس　　شـــهب تـلتـــاح

يا إمــامـا بـالحـســام المنقـضى　　نصـــر الحـــقـــا

ثغـرك الوضـاح مـهمـا أومـضـا　　أخـــجل الـبـــرقـــا

وديون الســعــد منه تقــتـضى　　تـوسع الحـــقـــا

لك وجـه من صبـاح مـقـتبس　　بـشـــره وضـــاح

obeikandi.com

وجـمـيـل الـصـفـح منه ملـتـمـس   منـعـم صـــــفـــــاح

ها كـــهـــا تمـزج لطفًـــا بالنســيم   كــلـمـــــا هـبـــــا

قـد أتت بالبـر والـصنع الجـسـيم   تـــشـــكـــر الـــربــا

أخجلت من قال فى الـصبح الوسيم   مـــغــــرمــا صـــبــا

غـــرد الطيـــر فنبـه مـن نعـمــر   يـا مـــــــديـر الـراح

وتعــرى انفـجـر عن ثوب الغلس   وانجلـى الإصـــبـــــاح

وله أيضًا:

نواسم الـبـســـتـــان   تـنـشـــر سلك الـزهر

والطل فى الأغـصـان   ينظـمـــه بالجـــوهر

وراحـــة الإصـبـــاح   أضـاء منهـــا المشـرق   تـنـشـــرهـا الأرواح

فـــلا تزال تخـــفق   والزهــر زهر فـــاح   لـهـــا عـــيـــون ترمق

فـــأيقظ الـنـدمـــان   يبصـرن ما لم يبـصر

جـــواهر الشـــبـــان   قد عرضت للمـشترى

قـــدحت لـى زندا   يا أيـهـــا البـــارق   أذكــرتـنـى عـــهـــدًا

إذ الشـبــــاب رائق   فـــالشـوق لا يهـــدأ   ولا الفـــؤاد الخـــافق

وكـــيـف بالسـلوان والقـلب رهن الفـكر
وسـحب الهـــجـران تحـجب وجه الـقمـر

لولا شـمـوس الكاس يديرهـا بين البـــدور وأعـــــرج الإيـناس
منا على ربع الصـدور لكن لـهـا وســواس يغـرى بربات الخـدور

كم والـه هيـمـــان بصـبح وجـه مسـفـر
ضـــيـــاؤه قـــدبان من تحت ليل مـقـمـر

يـا مـطـلـع الأنـوار كم فيك من مرأى جميل ونزهـة الأبصــــــار
ما ضـر تشفى الغليل يا روضـــــة الأزهار وعرفـها يبـرى العليل

قـضـيـبـك الفـتـان يسـقى بدمع همـــر
فـلا عج الأشـــجـان فـيض الدموع يجـرى

هل فى الهـوى ناصر أو هل يجـار الـهـائم لو كــــان لـى زائر
طيف الخـيـال الحـائم مـــا بـت بالســـاهر ودمع عـينـى سـاجم

والحب ذو عــــــدوان يجـهـد فى ظلم البرى
وصـــارم الأجـفـــان مــــؤيد بالحـــور

رحـــمـــاك فى صب أذكـرته عـهد الصبـا بــواعـــث الحـــب
قـادت إليـه الوصـبـا لـم تهـف بـالـقلب ريح الصبـا الأهبـا

بـــلــــيــــلـــة الأردان قد ضـمخت بالعـنبر
يشيـر غـصن البـان منهـا بفــضل المئـزر

طيـــبـــهـا حـــمـــد فـخر الملـوك المجتـبى مـن يـرجـع الـطـود
من حلمـه إذا احتـبى قــد جــرد الســعــد منه حـسـامًا مـذهبًـا

فـالبـأس والإحـسـان والغـوث للمـستنصـر
تحـملـه الركــبــان تحـــيـــة لــلمنبــــر

عـــصـــابة الكتـــاب حق لها الفــوز العظيم تخـــتـــال فى أثواب
حق لها الفخر الجسيم فــحـسبـهــا الإطناب فى الحمد والشكر العميم

خليــفـــة الرحـــمن لا زلت سامى المـظهر
يا مــورد الـظمــآن ورأس المعـــــســـــر

خـذها عــلى دعـوى ترزى على الروض الوسيم جـاءت كـمـا تهـوى
أرق من لدن النــسـيم قــد طـارحت شكوى من قال فى الليل البهيم

ليل الــهــوى يقـظان والحب ترب الســـهـــر
والصـبـــر لى خـوان والنوم من عـينى برى

موشحة لأبى حسن المرينى

فى نغـــمـة العـــود والســـلافـة والـــروض والنهـــــر والـنديـم
أطال مــن لامنى خـــــلافـــه فظـل فى نـصــــحـــه مليم

دور

دعنى عـلى منهج التــصـــابى مـا قـــام لى العـــذر بالشـــبـاب
ولا تطـل فى المنى عـــتـــابى فلســت أصـــغى إلى عـــتـــاب
لا تـرج ردى إلى جـــــــواب والكاس تـفـتـر عن حـبـاب
والغــصن يبـدى لنـا انعطافـه إذا هفـــا فـــوقــه الـنســيـم
والروض أهـدى لنـا قطـافــــه واخـــتــــال فى برده الـرقـــيم

دور

يا حـــبـــذا عـــهـــدى القـديم ومن بـه همت مـــســـعـــدى
ريـم عـــن الـوصـــل لا يـريـــم مـــــــولـع بـالـتـــــــودد
مــــا تم علـى به النعـــــيم طوعًـــا على رغم حـــســـدى
مـعـــتـدل القــد ذو نحـافــه أســقــمنى طـرفــه السـقــيم
ورام طرفـى به انتـــصـــافــه فـــحـــد فـى خـــده الكلـيم

دور

غـصـن الصبـــا عــاطر المقــبل أحـــلـــى مـن الأمـــن والأمـــل
طامى الحـــشــا مـفـعـم المخلخل حلـو اللمـى ســـاحـــر المـقل

لكل من رامه توصل لم يخش ردا بما فعل
أشكو فيبدى لى اعترافه إن حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر فيه رافه فحق لى فيه أن أهيم

دور

لله عصر لنا تقضى بالسد والمنبر البهيج
أرى إدكارى غليه فرضا وشوقه دائمًا يهيج
فكم خلعنا عليه غمضًا وللصبا مسرح أريج
ورد أطال المنى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لا يديم

دور

يا من بحث المطى غربا عرج على حضرة الملوك
وانثر بها إن سفحت غربا من مد مع عاطل سلوك
واسمع إلى من أقام صبا واحك صداه لا فض فوك
بلغ سلامى قصر الرصافة وذكره عهدى القديم
وحى عنى دار الخلافة وقف بها وقفه الغريم

obeikandi.com

موشحة لابن الوكيل

غـــدا مـناديـنا مـحـكمًـا فـــينا يقضى علينا الأسى لاولاتنـا ســـيـنا

بحر الهوى يغرق من فيه جهده عام

وناره تحـــــرق من هم أوقد هام

وربمـا تـقـلـق فـتى عليــه نام

قد غـير الأجـسام وصـيـــر الأيام سودًا وكانت بكم بيــضًــا ليـالـينا

يا صاحب النجوى قف واستمع منى

إياك أن تهـــوى إن الهـوى يضنى

لا تقـرب البلوى اسـمع وقل عنى

بحـــــاره مــــره خضنا عـلى غره حينًا فـقام بهـا لـلنعى ناعــــينا

من هام بالغـيـد لاقى بهم هـمـا

بذلت مجـهودى لأحـــــور ألمى

يهـم بالجــــود ورد مــا هــمـــا

وعندمـا قد جـاد بالوصل أو قد كاد أضـحى الـثنائى بديـلا من تدانيـنا

بحـق مـــا بيـنى وبـيـنـكـم إلا

أقــررتم عـــينى فتجمـعوا الشملا

فـالعـين بالبـين فــقــدكـم أبلى

جـدد لنا ما كـان بالأهل والإخوان وموردا للهو صاف من تصـــافــيـنا

يا جيـــرة بانت عن مغـرم صب
لعــهــده خــانت من غيــر ما ذنب
مــا هكذا كــانت عــوائد الــعــرب
لا تحسـبوا البـعدا يغـيـر الـعــهـدا إذا طالما غـــيـــر النأى المحـــبـــينا
يا نازلا بــالبـــان بالشـــفع والوتر
والنمل والفــرقان والليل إذا يــســر
وسورة الرحــمن والنحل والحـجر
هل حل فى الأديان أن يقتل الـظمآن من كان صرف الهوى والود يســقـــينا
يا ســائــل القطر عرج على الوادى
من ســـاكنى بدر وقف بهــم نارى
عسى صبا تسرى لمغــرم صــدى
إن شـئت تحـيـينا بلغ تحـــيـــينا من لو على البعـد حيا كـــان يحـــيـــينا
وافـت لنـا أيـام كـــأنهـا أعـــوام
وكــان لى أعـوام كـــأنهـــا أيام
تمر كـــالأحـلام بالوصل لى لو دام
والكاس مـتـرعـه حـثت مشعـشـة فـينا الـشـمـول وغنـانا مــــغنيـنا

موشحة للشيخ محيى الدين

سرائر الأعيان   لاحت على الأكوان   للناظرين
والعاشق الغيران   من ذاك فى حران   يبدى الأنين

دور

يقول والوجد   أضناه والبعد   قد حيره
لما دنا البعد   لم أدر من بعد   من غيره
وهيم العبد   والواحد الفرد   قد خيره
فى البوح والكتمان   والسر والإعلان   فى العالمين
أما هو الديان   يا عابد الأوثان   أنت الضنين

دور

كل الهوى صعب   على الذى يشكو   ذل الحجاب
يا من له قلب   لو أنه يذكو   عند الشباب
قد قرب الرب   لكنه أفك   فانو المتاب
وناد يا رحمن   يارب يا منان   أنى حزين
أضنانى الهجران   ولا حبيب دان   ولا معين

دور

فنيت بالله   عما تره العين   من كونه
فى موقف الجاه   وصحت أين الأين   فى بينه

obeikandl.com

نقال يا ساهى   عانيت قط عين   بعينه

أما ترى عيلان   وقيس أو من كان   فى العابرين

قالوا بالهوى سلطان   إن حل بالإنسان   أفناه دين

دور

كم مرة قالا   أنا الذى أهوى   من هو أنا

فلا أرى حالا   ولا أرى شكوى   إلا الفنا

لست كمن مالا   عن الذى يهوى   بعد الجفا

ودان بالسلوان   هذا هو البهتان   للعارفين

سلوهم ما كان   عن حضرة الرحمن   والآفكين

دور

دخلت فى بستان   الإنس والقرب   كمكنسة

فقام لى الريحان   يختال بالعجب   فى سندسه

أنا هو الإنسان   مطيب الصب   فى مجلسه

يا جنان يا جنان   اجن من البستان   الياسمين

وحلل الريحان   بحرمة الرحمن   للعاشقين

obeikandl.com

موشحة لأحد الشعراء

فتق المسك بكافر الصباح   ووشت بالروض أعراف الرياح

فأسقيتها قبل نور الفلق وغناء الورق بين الورق كاحمرار الشمس عند الشفق

نسج المزج عليها حين لاح   فك اللهو وشمس الإصباح

وغزال سامنى الملق وبرا جسمى   وأذكى حرقى أهيف منسل سيف الحدق

قصرت عنه أنابيب الرماح   وثنى الذعر مشاهير الصفاح

صار بالذل فؤادى كلفا وجفون ساحرات وطفا كلما قلت جوى الحب انطفا

أمرض القلب بأجفان صحاح   وسبى العقل بجد ومزاح

يوسفى الحسن عذب المبتسم قمرى الوجه ليلى اللمم عنترى الباس علوى الهمم

غصنى القد مهضوم الواشح   ما درى الوصل صابى السماح

قد بالقد فؤادى هيفا وسبا عقلى لما انعطفا ليته بالوصل أحيا دنفا

مستطار العقل مقصوص الجناح   ما عليه فى هواه من جناح

يا على أنت نور المقل جدبو صل منك يا أملى كم أغنيك إذا ما لحت لى

طرقت والليل ممدود الجناح   مرحبًا بالشمس من غير صباح

obeikandl.com

موشحة لابن التلمسانى

قمــر يجلو دجى الغلس　　بهـر الأبصار مذ ظهرا

آمن من شينة الكلف

ذبت من حبيه بالكلف

لم يزل يسعى إلى تلفى

بركاب الدل والصلف

آه لولا أعين الحرس　　نلت منه الوصل مقتدرا

يا أميرا جاز مذوليا

كيف لا ترثى لمن بليا

فبعثر منك قد جليا

قد حلا طعمًا وقد حليا

وبما أوتيت من كيس　　جد فما أبقيت مصطبرا

بدرتم فى الجمال سنى

ولهذا لقبوه سنى

قد سبانى لدة الوسنن

بمحيا باهر حسن

هو خــشفى وهو مــفتــرسى　　　فــارو عن أعــجوبتى خــبــرا

لك خـــــد يا أبا الفــــرج

زين بالــتــوريد والضـــرج

وحــــــديث عــــاطر الأرج

كم سنى قــلبًــا بلا حـــرج

لو رآك الغـــصن لـم يمس　　　أو رآك البـــدر لاســـتــتـــرا

يا مــذيبًــا مهــجــتى كمــدا

فقت فى الحسن البدو رمدى

يا كــحيــلا كــحله اعــتمــدا

عــجــبًــا أن تــبــرى الرمــدا

وبســـقم النــاظرين كـــسى　　　جــفنك الســحــار وانكســرا

موشحة عارض بها أبو حيان موشحة التلمسانى

عــاذلى فــى الأهيف الآنس　　　لو رآه الآن قـــــد عـــــذرا

رشــــأ قـــد زانه الحــــور

غــصن مــن فــوقــه قـــمــر

قــمــر من ســحبــه الشــعــر

ثغـــــر من فـــيـــــه أم درر

obeikandi.com

جـــال بيــن الدر واللــعس　　　خــمـــرة من ذاقــهـــا سكرا

رجـــة بالردف أم كـــسل

ريقـــة بالشـــغـر أم عـــسل

وردة بالخـــد أم خـــجل

كـحـل بالعـين أم كـــحل

يا لهـــا من أعـــين نعس　　　جلبت لناظـرى ســـهـــرا

مـذ نـاى عن مـقلـتى سنى

مـــا أذيقـــا لذة الـوسن

طال مـا ألقـــاه من شـجن

عـجــبًا ضـــدان فى بدن

بفـــؤادى جـــذوة القـــبس　　　وبعـــينى الماء منفـــجـــرًا

قـــد أتـانى الله بالـفــرج

إذ دنا مـنى أبـو الفــــرج

قـمـــر قـد حـل فى المهج

كيف لا يخـشى من الوهج

غـيــره لو صـابه نفـــسى　　　ظنـه من حـــرة شــــررا

نصب العـيــنين لى شــركـا

فـانـثنى والقلب قــد ملكا
قـــمـر أضـــحى له فـلكا
قـال لى يومًا وقـد ضـحكا

أتحـــبى من أرض أنـدلس نحـو مصـر تعـشق القمـرا

obeikandi.com

موشحة لابن اللبانة الأندلسى

فى نرجس الأحداق وسوسن الأجياد نبت الهوى مغروس بين القنا الميـاد

وفى نقاق الكافور والمندل الرطب

والهودج المرزوز بالوشى والعصب

قضب من البللور حمين بالقضيب

نادى بها المهجور من شدة الحب

أذابت الأشواق روحى على أجساد أعارها الطاوس من ريشه أبراد

كواعب أتراب تشابهت قدا

عضت على العناب بالبرد الأندا

أوصت بى الأوصاب وأغرت الوجدا

وأكثر الأحباب أعدى من الأعدا

تفتر من أعلاق لآلئ أفراد فيه اللمى محروس بألسن الإغماد

من جوهر الذكرى عطل نحور الحور

وقلد الدرا سلالة المنصور

جاوز به البحرا وأخرق حجاب النور

وقل له شعرا بفضلك المشهور

جمعت فى الآفاق مناقب الأضداد فأنت ليث الخيس وأنت بدر الناد

خرجت محتالا أبغى سنا البرق

obeikandl.com

أقطع أمـــيـــالا غربا إلــى الشرق
مـؤمــلا حــالا يكون من وفـقى
فـقــال من قــالا وفــاة بالـصــدق
دع قطعك الآفـاق يا أيـهــا المـرتاد واقصد إلى باديس خـير بنـى حمـاد
يا من رجا الطلا وأمل التـعـريس
إن شئت أن تحلى بطائـل التـــأنيث
لا تعـتمـد أعلا على عــلا باديس
من فــوقـه أعــلا قدرًا من البرجيس
مــــواطن الأرزاق أولئك الأمـجــاد فاحطط رحال العيس وانفض بقــاء الزاد

obeikandi.com

موشحة لأبى حيان الغرناطى

إن كـــان ليل داج وخاننا الإصـباح فنـورها الـوهاج يغنى عن المصـباح

سـلافـة تبـدو كالكوكب الأزهر

مـزاجـها شـهـد وعـرفـهـا عنبـر

يا حـبـذا الورد منهـا وأن أسكر

قلبى بهـا قد هاج فمـا يرانى صاح عن ذلك المنهـاج وعن هوى يا صاح

وبى رشـا أهيف قد لج فى بعدى

بدر فلا يـخسف منـه سنا الخـد

بلـحظه المـرهف يسطو على الأسد

كـسطوة الحجـاج فى الناس والسفاح فما ترى من ناج من لحظه السـفاح

عـلـل بالمـسك قلب رشـا أحور

مـنعم المـسك ذى مبسم أعطر

رياه كـــالمسك وريقـــه سـكر

غصن على رجراج طاعت له الأرواح فـحـبـذا الأراج إن هبـت الأرواح

مهـلا أبا القاسم على أبى حـيـان

ما إن له عــاصم من لحظك الفتان

وهجـــرك الدائم قد طال بالهيمان

obeikandi.com

فـدمـعـه أمـواج وسـره قـــد لاح لكنـه مـا عـــاج ولا أطـاع الـلاح

يارب ذى بهـتان يعـــذل فى الراح

وفى هوى النزلان دافـــعـت بالراح

وقلت لا سـلوان عن ذاك يـا لاح

سبع الوجوه والتاج هى منيـة الأفراح فاختر لى يا زجاج قمعال وزوج أقداح

obeikandl.com

موشحة صفى الدين الحلى

شق جيب الليل عن نحر الصباح   أيها الساقون
وبدا للطل فى جيد الأقاح   لؤلؤ مكنون
ودعانا للذيذ الاصطباح   طائل ميمون
فاخضب المبزل نم نحر الدنان   بدم الزرجون
تتلقى دمها حور الجنان   فى صحاف جون
فاسقنيها قهوة تكسو الكؤوس   بسنا الأنوار
وتميت العقل إذ تحيى النفوس   راحة الأسرار
بنت كرم عتقت عند المجوس   فى بيوت النار
غرست كرمتها بين القيان   يد أفلاطون
وبماء الصرح قد كان يطان   دنها المخزون
أخبرتنا عن بنى العصر القديم   خبر مأثور
وروت يوم مناجاة الكليم   كيف دك الطور
ولماذا اتخذت أهل الرقيم   كهفها المذكور
ونداء يونس عند الامتحان   بالتقام النون
وبنا نوح غداة الطوفان   فلكه المشحون
مذ جلا شمس الضحى بدر التمام   فى الليالى السود
وغدا يصبغ أذيال الظلام   بدم العنقود

obeikandl.com

قلت يا بشراكم هذا غلام وفتاة رود
مزجا الكلس وقاما بسقيان في حمى جيرون
فبذلنا في القناني والقيان ما حوى قارون
نال فعل الخمر من ذات الخمار عند شرب الراح
فغدت تستر من فرط الخمار وجهها الوضاح
خلتها إذ لم تدع بالاختمار غير صلت لاح
قمرًا تم لسبع وثمان في الليالي الجون
قدرته الشمس في حال القران فهو كالعرجون
أفعم الزامر بالنفخ المدار نابه المخصور
فغدا وهو لأموات الخمار مثل نفخ الصور
أو كما عاش الورى بعد البوار بندى المنصور
ملك هذب أخلاق الزمان عدله المسنون
وأعاد الناس في ظل الأمان عضبه المسنون
ملك أنجد طلاب الندى غاية الأنجاد
متلف إن جال آجال العدى واللهى إن جاد
من بني ارتق أعلام الهدى سادة إنجاد
مهد الأرضين بالعدل فكان أمنها مضمون
ذيبها والشاة ترعى في مكان غدره مأمون

باذل الأمـوال من قبل السـوال　　بـأكـف الجـــــــود
مـــا رجـــاه آمل إلا ونـال　　غـايـة المقـصـود
فـــإذا مــا أمـــه راجى الـنوال　　جـــاد بالموجـــود
يهب الولـدان والحـور الحـسـان　　بـكرهـا والـعـــون
وســـواه إن دعـــاه ذو لســـان　　يمنع المســاعـــون
يـا مليـكًا لـبـنى الـدهـر ملـك　　فـــشـــرى الأحـــرار
مـلـك أنـت عـظـيـم أم مـلـك　　ســـــاطـع الأنـوار
بالـذى تخـتـــاره دار الفـلك　　وجـــرى المقــدار
مـــذ رأى بأسك سلـطان الأوان　　وهو كـــالمحـــزون
حاول الـنصر كـموسى فـاسـتعان　　بـــك يـــا هـــارون

وقد شاء فن التوشيح حتى أصبح مـن بدع الشعر والبلاغة. وانتشر فى جميع المجـالس على ألسنة الخاصة والعامة، ثم أمـعن الشعراء فى هذا النوع حى تسربت فيـه اللغة العامية، ودبت فى جسـمه دبيبًا، وغلبته على عـربيته الفصـحى وحتى خفيت مـعالم اللغة أو كادت، وغلب ذلك على الـشعراء، وسموا هذا النوع الجديد "زجلا" ونسج العامة على منواله واشتهر بقوله كثير من الشعراء. ذكر جملة منهم ابن خلدون فى مقدمته.

وقد اكـتفينا بالإشارة إلى هذا الشـعر العامى وإن كـان جديرًا بالعناية، لاحتوائه على صور النفوس العامة وبعض الآراء الاجتماعية. وأرجأنا تفصيل الكلام فيه لفرصة أخرى.

تم

obeikandi.com

obeikandl.com

فهرس كتاب بلاغة العرب فى الأندلس

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
فيه الكلام على الأدب وصلته بالاجتماع والكلام على بلاغة العرب فى الأندلس والغرض من هذا الكتاب ومراجع التاريخ والأدب فى الأندلس.	
العرب فى الأندلس - دخول العرب بلاد الأندلس واختلاطهم بسكان هذه البلاد - الخلاف بين القبائل العربية هناك - طارق بن زياد وخطبته - الدول الإسلامية وعصورها - عصور الأدب والبلاغة.	١٥
الحياة العقلية - تكوين الحياة العقلية والاهتمام بالعلوم - العناية بالكتب وجمعها - العناية بنشر التعليم وإنشاء المدارس - التأليف والمؤلفون - انتشار اللغة العربية واشتغال غير العرب بها.	٢٣
الفنون فى الأندلس - عناية العرب بالفنون - النقش والتصوير والعمارة - أخذ أهل أوروبا العلوم والفنون عن العرب فى الأندلس وكلام مؤرخيهم فى ذلك - الترف وأبهة الملك.	٣١
الغناء ومجالس الأدب - العناية بالغناء والكلام على زرياب المغنى - مجالس اللهو والرقص وأغانى العشق وأثر النساء فى ذلك - مجالس الأدب والإقبال عليها وإنشاد الشعر فيها.	٣٧
النثر فى الأندلس - أحوال النثر فى الأندلس وأنواعه ونماذج من أساليبه المختلفة.	٤٦

obeikandi.com

الموضوع	الصفحة
الشعر فى الأندلس – التشابه بينه وبين الشعر فى المشرق – ابتكار شعراء أهل الأندلس فى الوصف وغيره وأمثلة ذلك.	٥٤
أبو عامر بن شهيد – ترجمته وشعره ونثره وما يمتاز به من الأساليب القصصية – قطعة من رسالته المسماة بالتوابع والزوابع – آراؤه فى النقد الأدبى.	٦٥
ابن زيدون – حياته وصلته بابن جهور ثم موته	٨٦
شعر ابن زيدون وأساليبه	٩٠
الغزل فى شعر ابن زيدون وصلته بولادة بنت المستكفى	١٠٠
نثر ابن زيدون والكلام على رسالتيه الجدية والهزلية.	١٠٨
أحمد بن عبد ربه.	١١٨
ابن دراج القسطلى	١٢٣
المعتمد بن عباد	١٣١
الوزير ابن عمار	١٤٢
عبد الجليل بن وهبون	١٥٣
ابن حمديس الصقلى	١٦٢
ابن برد الأصغر وأسلوبه القصصى فى نثره ورسالته فى الأزاهر.	١٨٤
الأعمى التطيلى	١٩٧
ابن عبدون	٢٠٧
محمد بن هانئ وأسلوبه الشعرى والكلام على جمال الشعر	٢١٢

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
ابن الحداد وأسلوبه الشعرى فى وصف الأديرة والقساوسة وعبادة النصارى.	٢٢٢
ابن خفاجة الأندلسى والجمال وأثره فى الشعر.	٢٣٠
ابن سهل الإسرائيلى	٢٤٣
الفتح ابن خاقان	٢٥٣
ترجمة لسان الدين بن الخطيب	٢٥٨
الموشحات وكيف نشأت - الأنواع التى حدثت فى الشعر - كلام ابن خلدون فى الموشحات - الميل إلى الخروج من طريقة الشعر القديم - كلام ابن سناء الملك عن الموشحات فى كتابه "دار الطراز" - جملة من الموشحات لأشهر الشعراء.	٢٦٣